

موجز

تاريخ الفكر الاجتماعي والاقتصادي والثقافي

السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي

تأليف الدكتور

فهم فرح

مدرس في قسم التاريخ

بجامعة دمشق

دار الفكر

كلمة المؤلف

لما كانت المكتبات العربية تخلو في هذا الوقت من مؤلف يبحث في تاريخ الشرق الأدنى القديم السيامي والحضاري ، دفعني الواجب القومي أن أبذل قصارى جهدي لأضع بأمرع وقت ممكن كتاباً يسد هذا النقص المؤلم ويكون في متناول الطلبة العرب وغيرهم من القراء ومعيناً لهم في دراستهم الجامعية .

إن دراسة تاريخ الشرق القديم من امتع الدراسات ولكنها من أعقد المواضيع وأصعبها . لذلك راعيت في هذا الكتاب أقصى حدود التبسيط، وعرضت فيه الأحداث والأفكار الهامة بحيث يستطيع القارئ فهمها وحفظها بسهولة متجنباً التفاصيل الفضاضة التي كثيراً ما يضيع القارئ في متاهاتها وتزيد دراسة تاريخ الشرق القديم خاصة تعقيداً على تعقيد .

وقد اتبعت في البحث ، إلى حد ما ، المنهج المادي الديالكتيكي في تحليل الأحداث التاريخية والتطورات البشرية . وحاولت أن يكون هذا البحث تاريخ شعوب وليس تاريخ ملوك وأفراد .

ويقوم هذا الكتاب على الترجمة والجمع والتأليف . وهو عبارة عن جهد أولي متواضع اقتضت الظروف الملحة إخراجه على هذا الشكل آملاً أن تسمح الظروف في المستقبل بالعمل على تطويره في الشكل والمضمون . وحسبنا أن نكون قد قمنا بجزء يسير من واجبنا تجاه شعبنا وأمتنا العربية وتكفيها متعة سعادة العطاء التي ننسينا تعب الليالي الطوال .

المؤلف

الوطن العربي مهد الحضارات القديمة

مقدمة

منذ العصور الموعلة في القدم وقلب الجزيرة العربية ينبض بالدم العربي ويندفع على شكل موجات بشرية دفعت بها جزيرة العرب إلى المناطق المجاورة ما بين المحيط والخليج لتصبغها بالدم العربي فالمنطقة الممتدة من الهضاب الايرانية إلى مرمى موج الاطلسي كانت موطن العرب منذ أقدم العصور ولا زالت وستبقى وطناً للعربي . وبهذا فإن وحدة الوطن العربي الجغرافية والبشرية والتاريخية حقيقة واقعية على مر الدهور .

إن جميع الاقوام التي خرجت من الجزيرة العربية هي شعوب عربية تعود أصولها الجنسية واللغوية والمعاشية إلى الأمة العربية التي تفرعت وانخذت هجراتها أسماء مختلفة كالأكاديين والبابليين والآشوريين والعموريين والكنعانيين والآراميين والفينيقيين والمصريين وغيرهم .

وهكذا فإن الحضارات القديمة التي قامت في الوطن العربي تعتبر من عمل شعوب ذات أرومة واحدة وصفات عامة متشابهة اختلفت أمماؤها باختلاف فروع قبائلها كما اختلفت مظاهرها باختلاف البيئة التي قامت فيها والظروف التي رافقتها .

وستتطرق في بحثنا هذا إلى مختلف مظاهر تلك الحضارات القديمة التي قامت في الوطن العربي وبعض الحضارات المجاورة .

مدخل الى تاريخ الحضارة

الحضارة : تعريفها — شروطها — نشأتها — مظاهرها .

هناك اختلاط وتشابك في مفهوم الكلمات الثلاث التالية : الحضارة ، المدنية ، الثقافة .

فكلمة حضارة مشتقة من الحضن والحاضرة أي القرى والأرياف والمنازل المسكونة ، وبهذا تختلف عن البداوة والبادية . أما كلمة مدينة فمشتقة من المدينة وتعني مختلف النشاطات البشرية في المدن . وكلمة ثقافة تستعمل للدلالة على النواحي العلمية والأدبية والفنية وطريقة التفكير والحياة .

وبالواقع يصعب التمييز أو وضع حدود فاصلة بين مفاهيم الكلمات الثلاث الأنفة الذكر . ولكن كلمة حضارة التي نستعملها في بحث تاريخ الحضارة تقصد بها كل ما ينشأ عن تفاعل الإنسان والبيئة التي يعيش فيها أي كل ما يتعلق بحياة الشعوب من نظم اقتصادية اجتماعية وسياسية وفكرية وفنية . وهي في هذا المعنى تشمل دراسة جميع نواحي الحياة البشرية وتطورها .

إن دراسة تاريخ الحضارة تتضمن أكبر وأهم جانب من التاريخ لأنها تتناول العلاقات الاقتصادية — الاجتماعية والمظاهر الفكرية ، والمؤسسات السياسية ، وغير ذلك من مظاهر الحياة .

وبمعنى آخر يجب ألا تقتصر دراسة التاريخ على قصص الملوك والحروب.
وخوارق الأنبياء والطبيعة ، بل يجب أن تتناول تطور المجتمع البشري.
بمختلف مظاهر حياته .

ولما كانت الحضارة صورة الحياة البشرية المرسومة على لوحة الزمن
فهي لم تقتصر على عرق أو شعب معين . وإنما لكل شعب حضارته.
الخاصة ، وقد تختلف أو تتشابه ببعض ألوانها مع حضارات الشعوب
الأخرى ، وتختلف بدرجة رقيها وتطورها .

إن تاريخ الحضارة هو تاريخ صراع الانسان مع الطبيعة وتفاعله معها ،
فالحضارة وليدة الإنسان والطبيعة معاً . ورغم أنها قامت وتقوم في بيئات
بشرية وجغرافية تختلف في مظاهرها فإن هناك بعض الشروط الداخلية.
التي تساعد على نمو الحضارة أو تأخر تقدمها كالشروط الجغرافية والاقتصادية
والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها . والحضارة ليست من صنع الفرد
الواحد وإنما يصنعها المجتمع البشري أو بالأحرى المجتمعات البشرية . لأن
اجتماع البشر وتضافر جهودهم وتراكم إنتاجهم ومخلفاتهم وتفاعلهم مع البيئة.
أساس لنشوء الحضارة وتطورها . وإن عمر الفرد محدود بينما عمر المجتمع
والحضارة طويل ، وهما دائمان ويتطوران باستمرار . وقد لا تكون
الحضارة أصلية أي من صنع مجتمع واحد بل وليدة اتصال وتمازج
شعوب متعددة ويظهر ذلك كلما تطورت الشعوب ووسائل الاتصال .
ونستطيع القول أنه بالإضافة إلى الشروط الداخلية لنشوء الحضارة.
وتطورها هناك بعض الشروط الخارجية ومنها الاتصالات الخارجية التي
تكون إما سلمية عن طريق التجارة والهجرة والسياحة والاختلاط ، أو
حربية عن طريق الغزو والفتح والحكم الأجنبي . وقد تكون نتائج
الغزو على الحضارة والاتصال الحضاري أحياناً سلبية وأحياناً إيجابية ،

فالعزو قد يعطي ويأخذ ويطور كالفترحات العربية الاسلامية مثلاً ، أو يهدم ويقضي على حضارة الشعب المغلوب كغزوات التتر والمغول . وقد لا يكون الانتقال الحضارى من بلد إلى بلد ثاني مباشرة وإنما قد يتم عن طريق بلد ثالث كانتقال الحضارة العربية إلى أوروبا عن طريق اسبانيا والمدن الايطالية ، أو انتقال حضارة الصين والهند القديمة إلى أوروبا عن طريق الفرس والعرب ، أو الاتصال الحضاري بين مصر القديمة وبلاد النهرين عن طريق سورية مثلاً .

إن تطور الحضارة ليس عملية ممر وتقدم مستمر ومتصل ، بل إن الحضارة قد تقوم في مناطق معينة وفي فترات معينة ثم لا تلبث أن تنهار إما مؤقتاً لتظهر من جديد أو لتتلاشى نهائياً أو لتتروى قيمها الإبداعية حضارة أخرى ، أو تبدل فيها وتطورها . وقد كثرت نظريات المفكرين التي تعالج هذا الموضوع من وجهات نظر مختلفة نذكر منها نظرية الدورات التاريخية للفيلسوف الايطالي فيكو ومضمونها أن كل أمة تمر في تطورها التاريخي بأدوار متتالية . وهي عصر الآلهة وفيه يعتقد الناس بأن الآلهة تدبر وتسير كل شيء . ثم عصر البطولة ويلعب فيه الأبطال والملوك والشخصيات البارزة الدور الرئيسي في تسيير الحوادث . ثم عصر الحوادث . ثم عصر الناس الذي تسود فيه المساواة بين الناس والقوانين التي يتساوى أمامها الجميع وتقوم فيه حضارة حقيقية . وبعد هذه الأدوار الثلاثة تصاب الحضارة بالانتكاس وتعود إلى بربرية جديدة ، وعن هذه البربرية تنبثق حضارة جديدة تعود فتنهار وتغلق الدور وهكذا دواليك حتى فناء الأرض .

أما نظرية شبنغلر فمضمونها أن التاريخ يتكون من كائنات حية هي

الحضارات ، وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن الحي العضوي يمر بنفس الأدوار ، فكما أن للكائن العضوي مولده وطفولته وشبابه ونضجه وشيخوخته ثم موته ، ولكل دور صفاته وخصائصه ، كذلك يمر الحضارة في مثل هذه الأدوار وأخيراً تفتى إلى غير عودة .

ونظرية آرنولد توينبي ترفض النظرية العرقية التي تقول أن الحضارة من صنع عرق معين يتميز عن غيره بمواهب بيولوجية متفوقة . كما ترفض نظرية البيئة الجغرافية التي تقول أن الحضارة تقوم في بيئة جغرافية ملائمة تحوي شروطاً تسهل المعيشة .

ومضمون نظرية توينبي أن الأحوال الصعبة المعاكسة وليس الأحوال المواتية هي التي تساعد على قيام الحضارة . أي تقوم هذه النظرية على التحدي والاستجابة أي رد الفعل على هذا التحدي ، ويعطي مثلاً على ذلك الحضارة التي قامت في وادي النيل فيقول مامعناه أن تبدل المناخ في شمال أفريقيا من رطب إلى جاف أدى إلى عدم كفاية الطرائد والأعشاب ، بحيث تعذرت الحياة القائمة على الرعي والصيد ، فقابل المصريون القدماء تحدي الجفاف وانحدروا إلى وادي النيل الذي كثرت فيه المستنقعات في ذلك العصر فتحدوا هذه الظروف غير الملائمة للحياة أيضاً وكافحوا الشرائط الطبيعية الجديدة وتغلبوا عليها وأنشأوا الحضارة المصرية القديمة . وما جرى في وادي النيل جرى في وادي دجلة والفرات في العصور القديمة . ويسمى توينبي هذا الوضع بحسنة الأحوال المعاكسة . ولكنه يستطرد قائلاً : إذا كانت التحديات شديدة جداً بحيث لا يمكن تحديها فمن الصعب أن تقوم حضارة . ولكي تكون الاستجابة المبدعة ممكنة يجب أن لا تتعدى التحديات الطبيعية أو البشرية حداً معيناً بحيث لا يمكن التصدي له وتحديه .

وتتجلى دراسة حضارة شعب من الشعوب بدراسة مظاهرها المختلفة
كالمظهر الاقتصادي - الاجتماعي والسياسي والفكري والفني .

وتتطرق دراسة المظهر الاقتصادي - الاجتماعي إلى دراسة الانتاج
بشكله ووسائله واسلوبه والقوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية الناشئة عن
نوع الانتاج . لأن انتاج الخيرات هو الذي يحدد حياة المجتمع البشري
وتطوره . وإن مختلف المراحل الاقتصادية في حياة البشرية تتحدد بالطريقة
التي تنتج بها الخيرات المادية وبأية من أدوات العمل المستعملة في الانتاج .
ولفهم التطور الاقتصادي التاريخي للبشرية لا تكفي دراسة تطور القوى
المنتجة ، فمن الضروري أيضاً دراسة تلك الصلات والعلاقات الاجتماعية التي
يدخل فيها الناس من أجل انتاج الخيرات المادية ومن أجل تبادل نشاطهم ،
وعلاقات الناس الاجتماعية في عملية الانتاج تؤلف علاقات الانتاج التي هي
جانب لا ينقسم عن الانتاج المادي . وعلاقات الانتاج تحدد أيضاً نظام
توزيع المنتوجات في المجتمع .

إن القوى المنتجة وعلاقات الانتاج التي تطابقها تؤلف مجتمعة اسلوباً
للانتاج محدداً تاريخياً .

وبما أن اسلوب انتاج الخيرات المادية هو الأساس المادي للحياة
الاجتماعية فإنه من الضروري اعتبار تاريخ المجتمع ايضاً تاريخاً لتطور
أساليب الانتاج وتعاقبها الحتمي . وعند دراسة مراحل معينة في تطور
المجتمع فمن الضروري دراسة قوانين واسلوب الانتاج المطابق لها . حيث
ان تاريخ تطور المجتمع البشري هو عبارة عن انتقال حتمي من تشكيلة
اقتصادية - اجتماعية إلى تشكيلة أخرى أكثر تقدماً . وعلى هذا الأساس
نستطيع تقسيم تاريخ تطور المجتمع البشري إلى عدة مراحل هي : مرحلة
النظام المشاعي البدائي ، ثم مرحلة النظام العبودي ، ثم الاقطاعي ، ثم

الرأسمالي ، ثم الاشتراكي . وهكذا فإن ما همنا من دراسة الناحية الاقتصادية في تاريخ الحضارة هو علاقتها بالإنسان وأساليب معيشته ، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية .

وتبعت دراسة المظهر السيامي للحضارة في نوع الحكم والسلطات الحاكمة والادارة الحكومية ومؤسساتها . وهناك نظريات كثيرة لدى علماء السياسة تبحث في أصل نشوء الدول ومنها نظرية الأصل العسكري وقوامها أن الحرب تخلق الزعيم والمملك وتولد الدولة وتقيم النظام . أي عندما نشب القتال اختار المقاتلون أشجعهم لتولي القيادة ثم أصبح زعيماً وأخذ بيده زمام السلطة .

وهناك للنظرية الاقتصادية النفعية في أصل الدولة وتقول أن انجاز المشاريع العامة كإقامة السدود وحفر الأقبية وشن الطرقات يتطلب ائتمار جماعات كبيرة من الأفراد وهذا يستوجب قيام السلطة التي تضع القوانين لتأمين انجاز العمل وهكذا تنشأ الدولة بسبب ضرورة النظام .

أما نظرية العقد الاجتماعي التي قال بها جان جاك روسو فقوامها أن الأفراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية للمجتمع بوجه الإجمال ، وترتب على هذا التنازل تشكل سلطة سياسية وقيام الدولة . غير ان الأفراد بقوا مشاركين في السيادة واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها . فالعقد هو اتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الأفراد ومن جهة أخرى بالدولة . ولذلك فإن رغبة الأكثرية أو رغبة المجموع هي مظهر السيادة .

وقد قال البعض بنظرية الاصل التاريخي أو التطوري للدولة أي أنها تدرجت من جماعات متفرقة وقري يحكمها رؤساؤها إلى دولة بصورة تدريجية عن طريق اتحاد هذه الجماعات والقرى . كما قال آخرون بنظرية

الاصل الديني لنشوء الدولة أي أن الدولة نشأت بعمل سلطة دينية نظمتها وأوجدت القوانين ثم وطدت حكمها .

وبرأينا أن تطور المجتمع البشري من مرحلة النظام المشاعي إلى مرحلة النظام العبودي وظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات مستغلة وأخرى مستغلة - كل هذا أدى إلى نشوء الدولة . حيث أن ظهور الملكية الخاصة قاد الى عدم المساواة في الملكية وهذا أدى بدوره إلى ظهور عدم التساوي في الحقوق والواجبات ، وأخذت الطبقة الغنية في يدها دقة قيادة القوة الحربية واستخدمتها من أجل مصلحتها الخاصة للاستيلاء على أملاك جديدة وعبيد ينتجون الثروات . ولم يكن بوسع مالكي العبيد من الطبقات الغنية إخضاع العبيد وغيرهم من أبناء الطبقة الفقيرة وإكراههم على العمل من أجل زيادة ثروتهم الخاصة وإشباع جشعهم المتزايد إلا بوجود جهاز دائم للعنف والقسر ، لذلك أوجدوا هذا الجهاز الذي تطور تدريجياً حتى أخذ شكل الدولة والدولة في المجتمعات الاستثنائية هي جهاز يحمي مصالح الطبقة المسيطرة المستغلة ويدافع عن بقائه الاستبعاد الطبقي ويستخدم لقمع تمرد الجماهير الكادحة ضد السيطرة والاستغلال .

أما دراسة المظهر الفكري للحضارة فتشمل كل مايتعلق بالتفكير والانتاج الفكري من معتقدات دينية وآداب وعلوم . وقد ظهرت المعتقدات الدينية منذ القدم . وكانت من أهم عوامل التدين الحرف والحيرة في أسباب الحوادث التي يصعب تعليلها ، والأمل بالمساعدة الإلهية وغير ذلك .

وقد عبد الانسان أشياء كثيرة منها سماوية كالقمر والشمس والنجوم مثلا ، ومنها أرضية كالأرض والجبال والأنهار والاشجار والنباتات . ومنها بشرية كعبادة الأجداد والصالحين والأبطال والملوك .

ومنها عبادات لقوى خيالية غامضة وخارقة .

وللعبادات عقائدها وطقوسها وأساليبها ورجال يشرفون عليها هم الكهنة الذين استغلوا الديانة لصالحهم وصالح الطبقات المسيطرة في المجتمع . وقد تطورت العبادات مع تطور التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية .

أما الأدب فهو التعبير الفني عن فكر الانسان وعواطفه ووصف نواحي حياته . وتشمل دراسة الآداب على دراسة الشعر والنثر بضروبه المختلفة وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم النفس والاجتماع والمنطق وغير ذلك من العلوم النظرية . وتشمل الناحية العلمية في المظهر الفكري دراسة العلوم بشتى أنواعها كالعلوم الطبيعية والرياضية والفيزيائية وغيرها . أما دراسة المظهر الفني في الحضارة فتتضمن دراسة الفنون على مختلف أنواعها كفن البناء والنحت والرسم والنقش والغناء والموسيقى والرقص والتمثيل وغيرها .

وأخيراً لابد من القول أن جميع المظاهر الحضارية يؤثر بعضها على البعض الآخر ، لذلك عند دراسة الحضارات يجب تبيان التأثيرات المتبادلة بين المظاهر الحضارية والعلاقات الجدلية المنطقية فيما بينها .

وفي الحقيقة أن أسلوب الانتاج يحدد جميع جوانب حياة المجتمع ، حيث أن طابع علاقات الانتاج يحدد البناء الاقتصادي في المجتمع الذي هو الاساس والبناء التحتي الذي تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية والأفكار والمؤسسات . وهذا البناء الاقتصادي بالواقع هو الذي يحدد المؤسسات الحقوقية والسياسية التي هي رهن بالتركيب الطبقي (أجهزة الدولة ، الهيئات الدينية ، الكتل السياسية الخ ...) أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقى سيامي للجمع ، ومن ثم يحدد بصورة غير مباشرة مختلف الأفكار التي يتميز بها المجتمع المعني كالأفكار السياسية والفلسفية

والعقائدية والحقوقية والفنية وما إلى ذلك - أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقي ايدولوجي للمجتمع .

إن تبدل الأساس الاقتصادي أي البناء التحتي أو حدوث تغييرات فيه يؤدي إلى تبدل أو تغير في طابع البناء الفوقي أي في طابع المؤسسات السياسية وطابع الايدولوجية .

غير أن البناء الفوقي رغم أنه رهن بالأساس والبناء التحتي ، فإنه يؤثر بدوره على البناء الاقتصادي وعلاقات الانتاج وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبدلها . إن البناء الاقتصادي في المجتمع العبودي والإقطاعي والرأسمالي يتميز بالتناحر وصراع الطبقات لأنه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى استثمار الطبقة السائدة لمنتجات الخيرات المادية المباشرين أي جماهير الشعب الكادحة .

دولة سومر وأكاد

١ - الظروف الطبيعية : إن القسم الجنوبي من بلاد النهرين تشكل تدريجياً نتيجة امتلاء الطرف الشمالي من الخليج العربي برواسب وجة والفرات ، فانحسرت مياه الخليج نحو الجنوب تاركة وراءها سهلاً مستنقعيًا . وقد ظلت تلك المنطقة إبان العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) ، عبارة عن مستنقع دائم تنتشر فوقه سحائب من البعوض والذباب . ولم تكن الحياة مستطاعة فيه للإنسان ، ودلالة على ذلك فإن علماء الآثار حتى الآن لم يكتشفوا في تلك المنطقة شيئاً من أدوات العصر الباليوليتي .

فقط في فترة العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) ، أو على الأغلب في أواخره ، أخذ سكان المرتفعات المجاورة ينفذون إلى جنوب بلاد النهرين بأعداد كثيرة ومضطرين على الأغلب للإرتحال إلى تلك المنطقة غير الملائمة للحياة تحت ضغط ظروف صعبة كنفاد الاحتياطات الغذائية أو مهاجمة الأعداء .

أما الثروة الغذائية فقد تكونت بصره رئيسية من الأسماك المكتظة بأعداد كبيرة في الأنهر والبحيرات والخليج العربي ، ومن الطيور المائية المعششة في الأدغال والمقاصب . كما انحدرت من المضاب المجاورة الثيران المتوحشة والغزلان وحمير الوحش والنعام والطرائد الصغيرة والأسود .

وكان العمل الرئيسي للسكان الأوائل يقتصر على الصيد وخاصة السمكة

ثم نشأت ، على نطاق ضيق ، فلاحا الأرض بالمعزقة التي كانت حسب ما جاء في الاخبار الاسطورية من اختراع النساء .

قطع صغيرة من الأرض ، بين المستنقعات والبحيرات ، حفرت وبرزت بالحبوب كالشعير وغيره ، وزرعت أيضاً بالخضراوات كالثوم والبصل والخيار . كما زرعت مبكراً شجرة النخيل فأصبحت من الاشجار المثمرة الرئيسية في بلاد النهرين ، وقد أصبح السمسم ذو أهمية كبرى واستخرجت من بذوره الزيوت .

وفي نفس الوقت نشأت تربية الحيوانات (قطيع ذوي القرون من صغير أو كبير ، خنازير ، حمير) التي لم تستخدم للاستفادة من لحمها ولبنها فقط ، بل إن السكان تعلموا أن يكدنوا المحراث الخشبي على الحجير وفيما بعد على الثيران التي استخدمت أيضاً لطحن الحبوب .

إن الانتقال من حفر الارض بالمعزقة إلى الفلاحة بالمحراث دل على تقدم كبير في تطور قوى الانتاج ، وفتحت إمكانية استصلاح مساحة زراعية أوسع . ولكن كان من الضروري الاستيلاء على هذه المساحة من الطبيعة . فتطلب الأمر تخفيف المستنقعات ، وحماية الحقول من فيضانات دجلة والفرات ، وإيجاد ماء إحتياطي لأوقات الجفاف في حزانات اصطناعية . ومن أجل ذلك كان من الضروري أن تشق الأقبية ، وتقام السدود ، أو تحفر الآبار في البقاع المرتفعة . ومع الزمن تطورت وسائل ري الحقول حيث لم تكن الامطار كافية في بلاد النهرين وتمتلئ ، بصورة رئيسية ، في فصل الشتاء .

وهكذا بفضل جهود أجيال عديدة تحول وادي دجلة والفرات إلى منطقة خصبة تعطي محاصيلًا لامثيل لها (أكثر من خمسين محصولاً) . ولكن كانت هناك صعوبة من حيث الحصول على المواد الخام

الضروريه للبناء والصناعة ، إذ لم تكن في البلاد غابات كبيرة من الاشجار. بما دفع لاستخدام جذوع النخيل والصفاف الرفيع . أما جذوع السرو والأرز المتينة فقد تم الحصول عليها بصعوبة كبيرة من الجبال البعيدة . وقد وجد في المنطقة الطين والقصب فاستخدمها الناس في بناء المساكن التي حُبكت من القصب وطليت بالطين ، وفيما بعد بنيت من الآجر الحام . كذلك صُنعت بعض الأدوات الزراعية (حتى المناجل ومقاشر الحبوب) من الصلصال . وفي بلاد النهرين خاصة ظهرت لأول مرة كتب من الطين (ألواح عليها علامات محفورة) ، وحتى مغلفات طينية . وقد استخدم القصب في صنع المصنوعات الممكنة وللتدئة أيضاً .

إن تطور الزراعة والصناعة أدى إلى تزايد سريع في عدد السكان فنشأت القرى الكبيرة ثم تحول بعضها إلى مدن تحاط بالأسوار .

٢ - السكان : لم يكن سكان بلاد النهرين من جنس واحد حيث تواردوا إلى تلك البلاد من ناحيتين : فمن الشرق انحدروا إلى ضفاف دجلة والفرات السومريون الذين تحدثوا بلغة من الصعب أن نعيدها إلى إحدى الأمر اللغوية . ومن حيث المظهر الخارجي لا يمكن أن نخلط بين السومريين والشعوب الأخرى ، فالقامات القصيرة المدحجة ، والوجوه المستديرة ، والأنوف البارزة ، وعدم إطلاق اللحي والشوارب - كل هذا يميز السومريين عن الشعوب السامية المجاورة .

أما من الغرب والشمال الغربي فقد نفذت إلى بلاد النهرين القبائل السامية (ربما في نفس الوقت الذي انحدروا فيه السومريون من الشرق) . وتشير جميع المعطيات إلى أن المواطن الأصلي لتلك القبائل السامية كان في الجزيرة العربية وشمال افريقيا ، ثم عبرت إلى بلاد النهرين .

عن طريق فلسطين وسوريا . وقد أطلق على المرحلة السامية الأولى ، فيها بعد ، امم الأكاديين (نسبة إلى مدينة أكاد) . أما لغتهم القريبة من من العبرية والعربية القديمة فقد أصبحت تسمى اللغة الأكادية . ويميز الأكاديون عن السومريين ، من حيث المظهر الخارجي ، بقامات أكثر اعتدالاً وتناسقاً ، ووجوه أكثر استطالة تكسوها اللحم والشوارب .

٣ - النظام الاجتماعي : لقد عاش سكان بلاد النهرين الأوائل في مرحلة النظام القبلي . ولعبت النساء دوراً هاماً في الانتاج (خاصة في الفلاحة المعزوية) ، وامتعتن باحترام كبير ، فشاركن في اجتماعات العشائر والقبائل . وقد حفظت لنا الأساطير حول ذلك أنباء غير مباشرة تقول : كان الآلهة والآلهات يناقشون الأمور معاً في المجلس السماوي .

ولكن هذه الظواهر الخاصة بمرحلة نظام الأمومة (سيادة الأم) تلاشت مبكراً لتظهر مكانها علاقات جديدة أصبحت فيها الأمرة الأبوية هي الحلية الأساسية في المجتمع ، واكتسب الأب السلطة على الزوجة والأولاد ، وأصبح السيد المتصرف بأملاك الأمرة . ففي الألف الثالث قبل الميلاد أصبح يشترك في المجالس الشعبية الرجال المحاربون فقط .

بتطور أعمال الري ، وتعقيد الأدوات الزراعية ، لم تعد الأمر الكبيرة تستطيع منفردة التغلب على الاعمال المعقدة الضرورية لاستصلاح الأراضي وصد فيضانات الأنهار . لذلك بدأت الأمر تتعد فيما بينها بغض النظر عن علاقات القرى ، والارض تقسم وتوزع ، وتقوم مشاريع عامة يشترك فيها الجميع (كبناء السدود وشق الاقنية ثم بناء القناطر وإزالة أملاح التربة وغير ذلك) .

٤ - نشوء العبودية : عندما تحولت المجموعات البشرية البدائية ،

التي تسودها العلاقات القبلية ، إلى مجموعات فلاحة تسودها علاقة الجوار ،
ظهر استغلال الانسان للانسان الذي لم يكن ممكناً في السابق عندما
كانت قوى الانتاج على مستوى منخفض .

إذا كان من العيب أن يستخدم الصيادون البدائيون جهود أمراهم
في أعمال إجبارية حيث لم تعط مردوداً يذكر ، فإن الفلاحين وأصحاب
الماشية الآن يستطيعون الاستئثار بالانتاج الفائض المكون بجهود الآخرين .
لذلك أصبح الأمرى المأخوذون أثناء الاصطدامات بين القبائل يحولون
إلى عبيد ، وتلد النساء المستعبدة مع الزمن الذكور والإناث فيزيد
تدريجياً عدد العبيد من الرجال والنساء . وقد استخدمت جهود العبيد في
أصعب الأعمال حيث أجبروهم على حفر الأتنية وبناء المنازل . وعلى
عائق النساء منهم وقع طحن الحبوب في أرحية يدوية . ويوجد توبة
عن العبيد في أقدم الوثائق السومرية (حوالي الألف الثالث قبل الميلاد) .
ولكن عددهم كان قليلاً بعد . فالطبقة الرئيسية من المنتجين تألفت من
الناس الاحرار . كما يلاحظ أن السومريين لم يهتموا ، بعد ، الاهتمام
الزائد بجهود العبيد ، إذ كانوا غالباً ما يقدمونهم كضحايا للآلهة . ولكن
فيما بعد زالت هذه العادة من الوجود ، وأصبحت إضاعة هذه القوى
العاملة تعتبر تدييراً سيئاً لا يسلم به . وقد كان العبيد ، منذ البداية ،
مجردين من الحقوق . وأطلق السومريون عليهم « طارقي أو خافضي
العيون ، أي مطاطي الرؤوس أمام الاسياد . كما لم تسد المساواة حتى
بين أعضاء المجموعات الفلاحية الأحرار (خلافاً لما كانت عليه سابقاً
المجموعات القبلية) .

إن ازداد المنتوجات الزراعية والصناعية أعطى إمكانية تصريف الفائض
فنشأ التبادل السلعي أول الأمر ، وكانت الحبوب مقاساً للأسعار . ثم

ظهر التبادل النقدي ، واستعملت في الألف الثالث قبل الميلاد ، أحياناً ،
سبائك من الفضة ذات وزن معين .

في داخل المجموعة الفلاحية أخذت تدريجياً تبرز أسرفوية تستأثر بأحسن
الأراضي ، وتمتلك العبيد ، وتكسب الأملاك المنقولة ، وفي الحرب تنطلق
على عربات تجرها الحمير (تربية الخيول تظهر فيما بعد في الألف الثاني
قبل الميلاد) وتغتصب القسم الأكبر من الغنائم .

ه - نشوء الدول : وهكذا تبرز طبقة من نبلاء وأشرف القبائل
تستولي على السلطة والثروة ، في الوقت الذي يصبح فيه الأفراد العاديون
فقراء وعليهم أن يخضعوا لسلطة أصحاب الأمر والنهي .

إن تزايد عدم المساواة في الملكية واستغلال العبيد والفقراء من
الأحرار أدى إلى نشوء سلطة الدولة التي أمنت السيادة لطبقة أصحاب
العبيد الناشئة . ولكن التشكيلات الأولية للدول مازالت تحافظ بعد على
التقاليد العشائرية والقبلية . فالملك في كثير من الأمور لا يزال يشبه
رئيس القبيلة السابق . ولحلّ الأمور الهامة يستدعي مجلس الشيوخ ،
وبعد ذلك يدعو إلى إجتماع شعبي يحضره كل قادر على حمل السلاح .
واقترنت على ذلك الديكتاتورية القبلية أو ما يسمى « بالديكتاتورية العسكرية » .

إن توحيد البلاد لم يتم فوراً أو دفعة واحدة . ففي مطلع الألف
الثالث قبل الميلاد نجد بضع عشرات من دول المدن . ومدن تلك الفترة
كانت عبارة عن قرى اتحدت وشكلت عدة أحياء تدير نفسها بنفسها .
وفي وسط كل حي وجد معبد للإله المحلي . أما القرى الصغيرة فقد
خضعت لمثل ذلك المركز (المدينة) الذي ترأسه حاكم يسمى (باتيز) .
يعتبر في نفس الوقت القائد العسكري والساكن الأعلى . وعندما ماترتداد

قوة مدينة ماوتخضع لسلطانها بعض المدن الأخرى ، فإن حاكم تلك المدينة ينال لقب الملك (بالسومرية لوغال) . وقد قويت تدريجياً سلطة الدولة والملوك الذين اعتمدوا على الاشراف والنبلاء ، ولم يعودوا محسبون حساباً للعاباء البسطاء بل يدعونهم باستمرار للقيام بجميع الفروض والواجبات الممكنة .

إن عملية الانتقال من مرحلة العشيرة إلى مرحلة الأمرة الأبوية (أي سيادة الأب في الأمرة) والجماعة الفلاحية ، ومن مرحلة القبيلة (أو اتحاد القبائل) إلى مرحلة الدولة ، كانت عملية طويلة وتدرجية شملت زمناً من منتصف الألف الخامس حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، أي مرحلة العصر الحجري النحاسي (إنبوليتيك حسب مصطلحات علم الآثار) .

وتسمح لنا التنقيبات الموجودة أن نقدم صورة عن نمو قوى الانتاج المضطرد الذي قاد إلى تلك التطورات التي جرت على امتداد ألفي عام من الزمن .

وقد أطلق على الأطوار الرئيسية لتلك الفترة الطويلة تسميات اصطلاحية تقليدية مثل طود العبيد ، طور اوروك او الودكاه ، و طور جمدة نصر (نسبة إلى الاماكن الرئيسية التي تمت فيها التنقيبات) .

بالنسبة لحضارة طود العبيد فقد امتازت باستعمال الأدوات الحجرية وجزئياً الأدوات الفخارية (مناجل ، مغازل) . ووجدت فؤوس من النحاس المطروق وغيرها من الأدوات النحاسية. ولكن بكميات قليلة جداً . كما يلاحظ أيضاً انتقال من حياة الصيد والسمكة إلى الزراعة البدائية وتربية الحيوانات .

كذلك ساد على نطاق واسع استعمال الأواني الفخارية المزينة بالرسوم والزخارف الملونة .

في طور الورداء التالي (النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد) تظهر لأول مرة في تاريخ العالم دواليب العجلات التي نجدها الحمير كما تستعمل أيضاً القوارب النهرية . أما الأواني الفخارية في هذا الطور فتصنع بأعداد ضخمة بقصد تجارة المبادلة ، ولكن على حساب النوعية إذ لم تعد تزين بالرسوم الملونة . كذلك تظهر مباني كبيرة من الآجر ونوع من العمارات المدرجة أطلق عليها اسم (الزقورات) . ويعود إلى تلك الفترة أيضاً نشوء الكتابة التصويرية البدائية .

أما في طور جمدة نصر (مطلع الألف الثالث قبل الميلاد) فيلاحظ تطور أكثر في الانتاج والحضارة . إذ تدل مخلفات تلك الفترة على انتشار استعمال النحاس بشكل أوسع (رغم أن الأدوات الحجرية ظلت منتشرة الاستعمال) ، وكذلك بناء المدن وتقوية العلاقات مع البلدان المجاورة (عيلام ، شبه الجزيرة العربية ، سورية) ، واتقان الكتابة التصويرية . وقد كشفت التنقيبات في مكان مدينة اور القديمة عن وجود قبور ملكية تعود إلى سنة ٢٥٠٠ ق . م تقريباً ، ومليئة بمصوغات من الدرجة الأولى موضوعة إلى جانب جثث الملوك والملكات . ومن بينها رأس ثور ذهبي له حية زرقاء (من اللازورد) يزين قيثارة خشبية كبيرة من طراز رائع . وتدلنا كثرة أدوات الزينة هذه على تزايد عدم المساواة في الملكية ، وتعاضل السلطة الملكية .

بعد أن تنشأ المدن القوية في بلاد النهرين تجري حروب عديدة فيما بينها من أجل السيطرة السياسية على كل البلاد ، أو بالأقل على القسم الأكبر منها .

٦ - صراع دول المدن لقد كان التنافس شديداً بين مدن بلاد
النهرين وخاصة بين مدينة أور وأوروك (في أقصى الجنوب) ومدينة
لاغاش ، وكيش ، وماري (إلى الشمال منها) .

في أول الأمر بلغت مدينة كيش درجة كبيرة من القوة . ولكن
في القرن السابع والعشرين قام ضدها حاكم مدينة أوروك جلجاميش
(الذي أصبح فيما بعد بطلاً اسطورياً) فأحرز نصراً عظيماً على جيش
مدينة كيش . ثم حقق لمدينته مكانة بارزة في البلاد .

فيما بعد برزت مكانة مدينة أور لفترة وجيزة . ثم في القرن الخامس
والعشرين تبرز مدينة لاغاش ، إذ يسطر حاكمها إيانا توم على مدن
المنطقة الجنوبية من بلاد النهرين مثل أور وأوروك وغيرها . ثم يدخل
في صراع مع مدينة أوما المجاورة فتدمرها مدينة كيش . ولكن إيانانوم
اعتمد على الفرق الثميلة المؤلفة من حملة الرماح وتحميها حملة التروس
فاستطاع أن يحرز النصر على عدوه . ثم أمر بتخليد انتصاره على لوحة
رائعة تعرف باسم (نصب العقبان) وقد رسمت عليها أرض المعركة
تخللها جنث الأعداء التي تمزقها الطيور الوحشية .

٧ - الصراع الاجتماعي في مدينة لاغاش : في السنوات اللاحقة
يتوتر التنافس الاجتماعي إلى أقصى الحدود في مدينة لاغاش حيث أن
قسماً كبيراً من أراضي المعابد التي يعمل عليها الأفراد البسطاء تحول إلى
ملكية حاكم المدينة الذي خفف حصة عمال تلك الأراضي من المواد
الغذائية . كما فرض على الفلاحين الفقراء ، الذين هجروا قراهم ليشتغلوا
الأراضي البور تقدم حصة من محصولهم كضريبة للسلطة الحاكمة . فأدى
استياء الجماهير الشعبية إلى انقلاب توصل بنتيجته إلى السلطة موظف يدعى

أورو كاجينا الذي نصب نفسه حاكماً ثم ملكاً . واعتمد في صراعه على السلطة مع أنصار السلالة المعزولة على الفرق الخفيفة من الجنود الفقراء . وتناقص جنود الفرق الثقيلة الذين يجمعون عادة من أبناء الطبقات الغنية إلى الثلث . كما أقر أورو كاجينا إلغاء بعض الواجبات والضرائب الثقيلة ، وزيادة حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد ، فتوصل عدد سكان مدينة لاغاش الأحرار ، إلى ٣٦ ألف أي عشرة أضعاف مما كان عليه سابقاً .

ولكن كل هذه الإصلاحات لم تكن تهدف إلى تغيير جذري في النظام الاجتماعي السائد . وإنما كانت فقط تساهلات محدودة لصالح الملاكين الصغار الذين عانوا من تسلط واستبداد الأشراف والأغنياء . أما أوضاع العبيد فلم تتغير وبقوا كالسابق مجردين من الحقوق . وطبقة الأشراف والنبلاء اضطرت أن تتنازل عن قسم من مدخولها ولكنها حافظت على ثروتها الأساسية . رغم الإصلاحات فإن سلطة أورو كاجينا لم تبد متينة . ففي العام السابع من حكمه لاقى فشلاً ذريعاً من يد ملك مدينة أوما المجاورة ويدعى لوغال زاغيزي . كما فقد معظم المناطق الخاضعة لسلطته باستثناء حصن غير سو .

٨ - الدولة الأكادية : إن ظفر لوغال زاغيزي السومري لم يكن طويل الأمد . فرغم أنه فرض سيطرته (إذا صدقنا قصرجه) من البحر المنخفض (الخليج العربي) حتى البحر المرتفع (البحر المتوسط) فإن امبراطوريته هذه كانت سريعة الزوال على يد الأكاديين . إن نضاله من أجل الاستيلاء على القسم الشمالي من بلاد النهرين الذي تقطنه قبائل سامية كان فوق طاقته . فبعد أن استطاع اجتياح مدينة كيش

قام أمير من امراء يدعى سارجون فاستلم السلطة (في نهاية القرن الرابع والعشرين ق . م) بعد ملكه المهزوم وترأس النضال ضد المحتلين السومريين . كما اسس عاصمة جديدة وهي مدينة أكاد التي سميت باسمها دولة الأكاديين وراح يجهز الجيوش للقضاء على السومريين .

تألف القسم الأكبر من جيش سارجون الأكادي من رماة السهام الماهرين الذين كانوا أصرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري . وكذلك لعب دوراً كبيراً في ضعف السومريين استيلاء جماهير واسعة من الشعب لتسلط النبلاء والأشراف الذين بدأوا يرفعون رؤوسهم من جديد بعد عزل الملك اوروكاجينا صاحب الإصلاحات الاجتماعية المذكورة أعلاه .

وفي نهاية المطاف خاض سارجون حرباً حاسمة مع لوغال زاغيزي وانتصر عليه فسقطت سومر تحت سلطة الأكاديين . وهكذا استطاع سارجون توحيد شمال وجنوب بلاد النهرين في دولة واحدة اطلق عليها اسم الدولة الأكادية .

كان اتحاد شمال وجنوب بلاد النهرين تحت سلطة سارجون في صالح الشرفاء والنبلاء أصحاب العبيد في كلا القسمين من البلاد . حيث أن السلطة المركزية المستبدة التي تملك قوة عسكرية كبيرة تستطيع توطيد سلطتها وفرض سيطرتها على الجماهير الشعبية . ومن ناحية أخرى فقد حصلت في هذه الدولة الواسعة تطورات اقتصادية كبيرة غير ممكنة في الدول الصغرى ، فثلاً أصبحت مشاريع الري التي تنظم فيضانات الأنهار الكبرى تنتشر في طول البلاد وعرضها مما ساعد على زيادة المحاصيل . وقد وضع أيضاً نظام موحد للمقاييس والأوزان مما أدى إلى تقوية

العلاقات التجارية داخل البلاد . وتحدث إحدى الوثائق التاريخية عن تصدير القطيع ومنتجات الحليب من مدينة لاغاش إلى مدينة أكاد وعن تصدير المنسوجات والحبوب من أكاد إلى مناطق الجنوب .

ومارس سارجون وخليفته سياسة خارجية نشيطة . فقاما بجملات إلى البلاد الجبلية المجاورة الغنية بالمواد الخام كالمعادن والحجارة وخشب البناء . وأخضع سارجون أيضاً مدينة ماردي على الفرات الأوسط . ومن هناك عبر إلى سوريا ثم إلى الجبال الفضية (سلسلة جبال طوروس) .

وقد بلغت الدولة الأكادية قمة ازدهارها في عهد نارام سين الذي قام بجملات ناجحة إلى بلاد عيلام (شرقي بلاد النهرين) ، وكذلك ضد القبائل اللولبية في جبال زاغروس ووصل إلى هضاب أرمينيا . أما في الجنوب فقد قام الملوك الأكاديون بجملات إلى ماغان وميلوخا في الجزيرة العربية . وربما أقاموا علاقات غير مباشرة مع مصر . وعلى كل الأحوال وصلت أواني رخامية شفافة من مصر إلى أكاد عن طريق ماغان .

تطلبت الحملات البعيدة إعادة تنظيم الأمور العسكرية . فبما أن القوات المدنية التي تجتد فقط أثناء الحرب لم تعد كافية ، لذلك تم تشكيل جيش دائم من ٥٤٠٠ محارب اختصاصي ليستخدم في السياسة التوسعية من جهة ولإخماد التمردات الشعبية الداخلية من جهة أخرى .

أخذت التناقضات الاجتماعية في المملكة الأكادية تتوتر أكثر فأكثر . وحدث تفسخ كبير في الجماعات الفلاحية حيث أخذ رؤساء الأمر الغنية يستولون على أحسن الأراضي ويبيعونها أحياناً . أما الأفراد البسطاء وخاصة أبناء الفلاحين الصغار (غير الأبناء البكر) أصبحوا يجردون من

حصتهم فيضرون للحصول على الحبز أن يشتغلوا كعمال زراعيين مأجورين .
ومن ناحية أخرى أخذ يتزايد عدد العبيد المساقين من البلاد المفتوحة ما
وعلى هذا الشكل فإن التقدم الاقتصادي ورافقه اغتناء البعض وافتقار
البعض الآخر . فليس من قبيل الصدفة ان نرى بعض نفوس الملوك
الأكاديين تحتوي على أخبار قصيرة ولكنها صريحة جداً حول هزات
شعبية كبيرة بسبب الجوع في سني القحط . ورغم أنه تم إخماد حركات
الجمهير الشعبية فإن تلك الحركات أدت إلى زعزعة دعائم المجتمع
العبودي وتقويضها .

٩ - انهيار الدولة الأكادية واحتلال الغوتيين بلاد النهرين :
إن الدولة الأكادية التي استمرت حوالي ١٢٠ سنة تعرضت حوالي عام
٢٢٠٠ ق . م إلى تدمير على يد محاربيين جبليين أتوا من الشرق هم
الغوتيون . وقد كان الغوتيون قليلي العدد نسبياً ، ومازالوا يحافظون إلى
حد كبير على التنظيمات العشائرية القبلية . ولكي يؤمنوا سيطرتهم على
بلاد أكثر منهم تطوراً في النواحي الاجتماعية والاقتصادية اضطروا أن
يلجأوا إلى عقد اتفاقيات مع بعض مدنها . فأصبحت مدينة لاغاش
السومرية مركزاً رئيسياً للغوتيين وكانت هذه المدينة قد ازدهرت بعد
موت اودو كاجينا واحتلت مكان الصدارة في جنوب بلاد النهرين .

١٠ - الازدهار الثاني لمدينة لاغاش : في النصف الثاني من القرن
الثاني والعشرين ق . م حكم مدينة لاغاش عاهل يدعى غوديا تحت
سيادة الغوتيين . وقد مارس سياسة عمرانية نشيطة واستعمل في بناء
المعبد الكبير مواداً من خارج البلاد كالحشب من ماغان وميلوخا .
وتتحدث الاخبار عن عظمة غوديا بأنه قد خضع له ٢١٥ ألف مواطن
حر (يدخل في ذلك سكان المدن المجاورة الخاضعة له على ما يبدو) .

في نفس الوقت الذي ظل فيه حاكم مدينة لاغاش وفياً مخلصاً للغوتيين ونال منهم دهماً وامتيازات ، فإن بعض المدن الأخرى الخاضعة للغوتيين أبدت مقاومة للمحتلين . وترأس التمرد الناشب ضد الغوتيين (في نهاية القرن الثاني والعشرين ق . م) مدينتا أور وأودوك .

١١ - سلالة اور الثالثة : وهكذا في عام ٢١٠٨ ق . م لاقى الغوتيون فشلاً تاماً وطُردوا من البلاد . فالتحمت بلاد النهرين مرة ثانية بزعامة سلالة اور الثالثة التي حكمت حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد . وأطلق ملوك هذه السلالة (أشهرهم أورنامو ، شلغي) على أنفسهم ملوك سومر وأكد ، وفيما بعد ملوك جهات الأرض الأربعة . بما يدل على ادعائهم سيادة العالم . كما سموا أحياناً آلهة (على غرار الملك الأكادي نارام سين) . وقد قام ملوك سلالة اور الثالثة بعدة حملات نحو الغرب على سوريا ، ونحو الشرق على عيلام ، وفي الشمال أخضعوا إلى نفوذهم بلاد آشور .

وقد تطورت في عهدهم التجارة الداخلية والخارجية ولعب في ذلك الدور الرئيسي وكلاء الملوك - التامكاريون . ويلاحظ أيضاً تطور في قوى الانتاج الذي ظهر خاصة بانتشار الأدوات البرونزية مكان الأدوات الحجرية والنحاسية السابقة . ويبلغ انقسام الطبقات الاجتماعية أقصى مداها . إذ أخذ الأفراد البسطاء المفتقرون يفقدون حريتهم جماعات ووحداً ، والآباء يبيعون أولادهم أو يقدمونهم مقابل الديون فلم تتميز اوضاعهم عن أوضاع الأسرى المستعبدين أو الغرباء المباعين .

لقد حفظت مئات الآلاف من الوثائق المكتوبة التي تعود إلى زمن سلالة اورا الثالثة وهي من وضع المحاسبين والكتبة الذين كانوا يعملون

في أملاك المعابد والحكام الكبيرة ويتألف معظمها من سجلات بأسماء العمال والعاملات وتقارير عن سير الأعمال . أضعف إلى ذلك فإنه لأول مرة في تاريخ العالم تظهر محاولات لإحصاء أيام العمل . وكان معظم عمال الأتبان الزراعية والورش الصناعية من العبيد نساء ورجالاً . يضاف إليهم أحياناً عمال مأجورين ، خاصة في مواسم الحصاد عندما لا يعود يكفي الأشخاص الدائمون . وقد تقاضي العمال المأجورون أجرة عينية من المحصول تساوي ضعف قيمة طعام العبد في اليوم .

لم تستمر دولة سلالة اورا الثالثة ، كما الدولة الأكادية ، زمناً طويلاً . ففي نهاية القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد تعرضت للفتنة والانحيار حيث هاجمتها القبائل السامية الآمورية من الغرب ، كما هاجمها ، في نفس الوقت ، العيلاميون من الشرق .

★ ★ ★

الدولة البابلية القديمة

١ - الصراع بين مدن بلاد النهرين وارتقاء مدينة بابل :

على امتداد قرنين ونيف ، بعد سقوط سلالة أور الثالثة ، يلاحظ في بلاد النهرين تزايد في تصارع القوى والانقسام السياسي والحروب الداخلية . الفاتحون الآموريون أسسوا عدة دول ظهرت من بينها دولتان قويتان أطلق حكامها على أنفسهن ملوك سومر وأكاد أي ادعوا السلطة على كل البلاد . هاتان الدولتان هما إيسن ولارسا اللتان بصراعهما أنك كل منهما الآخر فلم يستطيعا تحقيق ما ادعاه ملوكهما . أضعف إلى ذلك فإن لارسا وقعت تحت تأثير جارتها دولة عيلام التي كان ملوكها ينصبون على عرش مدينة لارسا حكاماً من صنائعهم ...

على نخوم بلاد النهرين لعبت دوراً مستقلاً دولتان أموريتان هما دولة مارّي على الفرات الأوسط ودولة إشنونا إلى الشرق من نهر دجلة .

بالإضافة لذلك فإن دولة مدينة آشور السامية (على دجلة الاوسط ونواة الامبراطورية الآشورية القادمة) أخذت تحاول التدخل في شؤون بلاد النهرين .

وأخيراً تنهض مدينة كعب لها في المستقبل أن تصبح ، لقرون عديدة المركز الرئيسي في وادي دجلة والفرات وأن تفوق بياتها وروعها مدناً أكثر منها قدما . هذه المدينة هي بابل (باب ايلو = بوابة الإله)

وتقع على ضفة الفرات اليسرى (جنوب بغداد الحالية) .

حتى القرن التاسع عشر قبل الميلاد لم تلعب مدينة بابل دوراً سياسياً مستقلاً . ولم يكن لها وزن كبير . ولكن فيما بعد تتصاعد قوتها الاقتصادية والسياسية على حساب انحطاط وتدهور المدن المجاورة مثل كيش وأكاد . ولأن موقعها الملائم عند تقاطع طرق القوافل والأنهار أدى إلى تحويلها إلى مركز تجاري كبير . وتزايد سكانها من جراء تدفق الآموريين القادمين من سوريا .

٣ - نشوء الدولة البابلية القديمة : من سنة ١٨٩٤ وحتى ١٥٩٥ قبل الميلاد تتولى الحكم في بابل سلالة مستقلة وتمارس سياسة خارجية نشيطة ساعية لتوحيد حوض دجلة والفرات تحت سلطتها ...

وتبلغ الدولة البابلية درجة كبيرة من القوة في عهد الملك حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق . م) ، الذي يرهن عن نفسه أنه سيامي ضليع خبير استطاع أن يستغل النزاع والصراع بين جيوانه . فقد أقام اتحاداً وطيداً مع دولة ماري الغنية والمسيطر على الطريق التجارية المؤدية إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط . فأمن بذلك حدوده الشمالية ، وراح يركز الضربة الرئيسية ضد دولة مدينة لارسا التي لها علاقة مع دولة عيلام .

وبعد أن دمر حمورابي ذلك المنافس الخطير (لارسا) قطع بشكل حاسم علاقاته الودية مع مدينة ماري . ثم احتلها ودمر قصرها ، الذي تدل الأبحاث التي اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون ، أنه من أجل مباني عصره . وتخضع آشور لسلطة حمورابي أيضاً :

وهكذا تنشأ مملكة بابلية واسعة تضم القسم الأكبر من بلاد النهرين ...

٣ - مجموعة قوانين حمورابي : نستطيع التعرف على سياسة حمورابي الداخلية من مراسلاته مع الامراء والموظفين ، وخاصة من مجموعة القوانين التي أصدرها . هذه القوانين محفورة على نصب من البازلت ، (النسخة الاصلية موجودة في متحف اللوفر في باريس . كما يوجد في متحف بومبيكين في موسكو صورة طبق الأصل عنها) مزين برسوم نافرة تمثل حمورابي نفسه واقفاً أمام عرش إله الشمس والحقيقة والعدالة - الإله شمش . ويستلم من يديه شعارات السلطة القضائية العليا :

تخيط قوانين حمورابي بجميع نواحي الحياة ونشاطات السكان المختلفة . وتمت بشكل خاص بأمور الزراعة . فكل فلاح مسؤول بصراحة عن المحافظة على السدود المجاورة لأرضه . فاذا حدث فيضان نتيجة خطأ ارتكبه فإنه هو وأملاكه معرضون للبيع ، وذلك لتعويض الخسائر اللاحقة بالجيران . ونظمت شروط تأجير المزارع والحقول بشكل تفصيلي دقيق . فالمستأجر بالحصة المهمل الذي لا يجمع محصوله بسبب كسله عليه أن يدفع للمؤجر حصته عينية تقاس بمعدل إنتاج أرض مجاورة تشابهها في المساحة . كما نظم القانون شروط تأجير القطيع أيضاً وتحدثت بعض نصوصه حول موضوع اتقان المصنوعات التي يوصى عليها حسب تسعيرة معينة ، وكذلك عن عمليات الربى والتجارة ...

بالإضافة إلى بقاء عناصر الاقتصاد العيني (البضاعي) [احياناً دفع ثمن البضائع حبوباً وتعويض الاضرار دفع عينا] فقد بدأت تنمو المعاملات النقدية . وأصبحت السبائك الفضية مقياساً للثمن ، سيكل = ٨ غرام ، مينا يساوي = ٥٠٠ غرام ، تالانت = ٣٠ كيلو غرام) . الجماعة الفلاحية أصبحت في حالة تفسخ تام وقطع الأرض ، باستثناء أملاك القصر ، أصبحت تباع وتشترى . وأخذت أملاك المعابد والقصر

الكبيرة التي تعود إلى زمن سلالة أور الثالثة تنفتت وتتنقسم إلى عصر حمورابي . فالأراضي التابعة للقصر أصبحت توزع على الجنود المحاربين كملكية مشروطة بالخدمة العسكرية ، أو على فلاحين يدفعون عنها ضرائباً عينية للقصر ...

ويقسم سكان البلاد إلى ثلاثة طبقات - طبقة الأحرار ، وطبقة المساكين الموجودين تحت حماية القانون ، وطبقة العبيد الذين ينظر إليهم كالطبيع أو الأشياء المملوكة ويتصرف بهم السيد حسب ما يريد ...

فإذا قتل شخص حر عبداً غريباً عليه أن يقدم إلى سيده عبداً آخر ، أو يعرض عليه ثمنه . أما مقابل تشويهه كفقء العين أو كسر العظام فيعوض نصف ثمن العبد . ولكن إذا ضرب العبد شخصاً حراً فيجازى بقطع أذنه . وخلافاً لما كان عليه الأمر في عهد سلالة أور الثالثة تتخذ بعض الاجراءات في عهد حمورابي لسكي لا يصبح الحر البابلي الأصل عبداً (فقط الجرائم الكبرى تؤدي إلى فقدان الحر حريته) . فسابقاً انتشرت طريقة استعباد جماهير الشعب نتيجة تراكم الديون عليهم . ولكن قوانين حمورابي كانت تهدف إلى وضع حد لذلك . ولا غرابة في هذا حيث أن أعمال المراهين الجشعة ، التي عانى منها الفقراء والملاكون على حد سواء ، أدت إلى استياء عام وألحقت الضرر بالملك نفسه الذي فقد رعاياه الأحرار (الأحرار الذين باعوا أنفسهم في العبودية لإداء الدين أصبحوا ملك سيدهم فلن يستفيد الملك منهم) ...

إن قانون حمورابي الذي اهتم بحماية الملكية الخاصة سمح بتحصيل الديون والفوائد . ولكن ضمن حدود معينة . فالمدين عليه أن يقدم زوجته وأولاده ليعملوا لدى الدائن مدة أقصاها ثلاث سنوات (المدين

نفسه لا يسمح له بالعمل لدى الدائن) . ويختلف وضع هؤلاء الناس (الذين يعملون لدى الدائن) عن وضع العبيد بحماية القانون لهم . فالمرابي الدائن إذا قتل ابن المدين الذي يعمل لديه لقاء تسديد دين أبيه عليه أن يقدم حياة ابنه ثمناً لذلك ...

رغم كثرة التحدث في قوانين حمورابي عن العبيد فانهم لم يشكوا بعد إلا جزءاً من المنتجين المباشرين . فبالإضافة إلى العبيد كانت تستغل أيضاً فئات متنوعة من الأحرار . ففيما عدا مستأجري الأراضي المذكورين أعلاه والذين يقدمون لمالك الأرض $\frac{1}{3}$ أو $\frac{2}{3}$ المحصول ، وكذلك الذين يعملون لدى الدائن لتسديد ديون سيد الامرة المدين ، يتحدث أيضاً قانون حمورابي عن العمال الزراعيين المأجورين الذين لاملكية لهم ، بل ينالون لقاء عملهم أجرة عينية أو نقدية ...

بالإضافة إلى وجود فروق بين جماهير الشعب الحرة من الناحية الاقتصادية ، توجد أيضاً فروق من الناحية الحقوقية . فمن ناحية نرى أحراراً يتمتعون بالحقوق الكاملة . ومن ناحية أخرى نرى طبقة الرعايا المساكين (موشكينو) ، الذين يحق لهم أن يملكوا الأراضي ويقتنوا العبيد ، ولكن من الناحية القانونية ، لم تكن لهم حقوق كاملة تماماً كطبقة الأحرار . (يفترض البعض أن ذلك له علاقة بأصلهم إذ أن قسماً من الموشكينو كان من العبيد الذين تحرروا) فإذا أخط شخص تشوياً بأحد الموشكينو فيكتفى بدفع غرامة (عينية أو نقدية) . بينما إذا سبب أحد ما عاهة لشخص حر (« ابن الرجل ») فات المجرم يعاقب حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن » . . .

كانت السلطة الملكية في عهد حمورابي ذات طابع استبدادي ،

وتدخلت في جميع العلاقات بين المواطنين . وقد جاء في مقدمة المجموعة القانونية أن الآلهة منحت الملك سلطات غير محدودة . ولكن في الواقع فإن الملك اخذ اعتباراً للقوانين التقليدية في الأسرة الأبوية ، فالزوج مثلاً يحق له أن يقتل الزوجة الخائنة وعشيقتها أيضاً . وإذا ساهمت الزوجة في قتل زوجها فإن القانون يحكمها بالاعدام . وعلى التصرف السليم والتبذير تعاقب الزوجة بالطرد خارج البيت أو تتحول إلى عبده . والابن الذي يضرب أباه يعاقب بقطع كف يده . أما إذا ضرب الأب ابنه فلا يعتبر هذا جريمة . وأحياناً كان الأولاد مسؤولين عن جريمة والده . مثلاً يعاقب ابن المعهاري بالموت إذا انهار البيت الذي بناه والده نتيجة إهماله وأدى الأنهار إلى قتل ابن صاحب البيت (على مبدأ العين بالعين) ...

ولكن سلطة الدولة أدخلت بعض القيود على قوانين الأسرة الصارمة . فالزوج المفترق على الزوجة البريئة عليه أن يمنحها طلاقاً مشرفاً (مع تعويض مالي) . والأب لا يستطيع حسب هوراه أن يجرد ابنه من حق الارث وإنما يستطيع ذلك فقط عن طريق المحكمة ...

هكذا نرى أن أجهزة سلطة الدولة كانت تتدخل حتى في الحياة الخاصة للمواطنين . ناهيك عن أن مشاريع الري أقيمت تحت إشراف الملك وحق الاستفادة منها كان مرتبطاً بالسلطة العليا أو بمندوبيها المحليين . ولم تقض قوانين حمورابي بتقييد سلطة الملك أو تصرفاته . وجاء في القصيدة الشعرية « حديث السيد مع العبد » التي تعود بالواقع إلى زمن متأخر أكثر) ان الذين يتمردون ضد الملك إما يقتلون وإما تسمل عيونهم أو يوضعون في السجن . وعلى ما يبدو فإن هذا قد تم دون قرار من المحكمة حيث أن قوانين حمورابي لم تتحدث شيئاً حول ذلك .

٤ - احتلال الكاشيين بلاد بابل : في عهد خلفاء حمورابي ضعفت السلطة المركزية من جديد في الدولة البابلية ، وانفصلت عنها المناطق الجنوبية ، وراحت تهاجم البلاد من الشمال الغربي شعوب آسيا الصغرى كالحثيين والكاشيين (سابقاً سادت فكرة تقول : إن الكاشيين أنوا بلاد النهرين من الشرق أي من المناطق الجبلية في شمال عيلام . حيث أت اليونانيين وجدوهم هناك . ولكن يبدو أنهم إرتحلوا إلى شمال عيلام . مؤخراً . حيث أن الابحاث الحديثة تؤكد أن الكاشيين من حيث اللغة وطراز الحياة يشبهون شعوب آسيا الصغرى) .

إذا كان هجوم الحثيين على بابل عام ١٥٩٥ ق . م . عبارة عن غارة قديمية مؤقتة ، فان الكاشيين قد توغلوا في بلاد بابل تدريجياً ولكن بثبات ورسوخ .

ففي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد توطدت في الحكم سلالة كاشية (في بابل) (١٥١٨ - ١٢٠٤ ق . م) . وشكل المحتلون طبقة مهيمنة من الأمراء العسكريين الذين زاحموا العسكريين البابليين ودفعوا بهم إلى المرتبة الثانية .

إن سيطرة هؤلاء المحاربين الجبلين الذين احتلوا بلاداً ذات حضارة زراعية راقية رافقها تأخر ملموس إذ انبعثت من جديد إلى حد معين الجماعات الفلاحية . ولكن في نفس الوقت بدأوا يستخدمون على نطاق واسع البغال والخيول ، التي قليلاً ما كانت معروفة من قبل . واستخدموها الآن في الأعمال الحربية والمواصلات كحيوانات للجبر . كذلك يحدث تطور في اتقان بعض الأدوات الزراعية . فيظهر نوع من المحاربت .

يستخدم للفلاحة والبذار في آن واحد كما يقيم الكاشيون علاقات مباشرة ودائمة مع مصر . وبعد أن يتعرض الفاتحون الكاشيون لبعض العقبات خلال مدة قصيره فانهم يعاودون تحركهم بقوة جديدة .
إن مصير بلاد بابل فيما بعد مرتبط بتاريخ الدولة الآشورية وسوف نتطرق إلى ذلك عندما نتحدث عن الآشوريين .

★ ★ ★

الثقافة السومرية - البابلية

١ - دور شعوب بلاد النهرين العديدة في بناء حضارتها :

إن الحضارة التي قامت في حوض دجلة والفرات كانت من ابداع شعوب عديدة ، أغنى كل منها الآخر بما توصل اليه في مجال الادب والعلم والنشاط العمراني والفن . وإن الأسبقية في كثير من الأمور تعود للسومريين . كما ساهمت بقسط كبير الشعوب السامية من أكاديين وآشوريين وآموريين . وعندما ازدهرت بابل أطلق على تلك الحضارة المركبة اسم الحضارة البابلية .

السومريون كما رأينا انصهروا وفقدوا لغتهم . ولكن ماتركوه من تراث كان له تأثير كبير على الشعوب السامية . حتى أنه من الأصح أن نسمي الحضارة البابلية بالحضارة السومرية - البابلية .

ان الاصدامات الحربية لم تكن لتعيق التفاعل الحضاري بين السومريين والأكاديين وبين الشعوب الأخرى أيضاً . في الألف الثاني قبل الميلاد حصلت المدن السامية على السيطرة السياسية فانصهرت تدريجياً الشعوب غير السامية وتقهقرت اللغة السومرية أمام اللغة الأكادية . ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ، أن انصهار الشعب السومري في الشعوب السامية رافقة استيعاب الساميين عناصر عديدة من اللغة السومرية التي

أصبحت لغة مينة (خاصة بما يتعلق بالاسماء الجغرافية والاصطلاحات العقائدية) . فمع أن اللغة السومرية لم تعد تستعمل في الكلام والمحاطبة ، فان الكتابة البابليين والآشوريين تعلموها بدقة واتقان (كما في العصور الوسطى تعلم الاوربيون الكتابة باللغة اللاتينية مع انها لم تستعمل كلغة للمحادثة) . حيث بدون معرفة اللغة السومرية لم تكن الثقافة مستطاعة .

٢ - الكتابة : بما أن طراز الكتابة الاكادية اعتمد بالاساس على طراز الكتابة السومرية ، فقد أخذ عنه مبدأ الحركات الغريب على الكتابات السامية الأخرى كالفنيقية والعبرية مثلاً التي تكتب فيها الاصوات الساكنة فقط . أما النبرات الصوتية فتضاف من قبل القاريء بصورة تلقائية حسب اللهجة المحلية وأحياناً بشكل مفلوط .

إن تثبيت الحروف الصوتية الأساسية (أ - ي - و) في الكتابة الاكادية كان مزينة كبرى ساعدت على نقل الكلام الحي ينتهي بدقة ، والاكاديون مدينون بهذه المنجزات إلى معلمهم السومريين .

وقد أطلق على طراز الكتابة الذي استعملته شعوب بلاد النهرين ، ومن ثم انتشر إلى ما وراء الحدود ، اسم الكتابة المسارية أو الاسفينية . وهذه التسمية الاصطلاحية جاءت من الشكل المميز لحروف الكتابة التي تشبه الاسافين أو المسامير . ولكن هذا الطراز الحاص من الكتابة ، الذي يتميز عن طراز الكتابة الهيروغليفية الصينية والمصرية ، وعن اشكال الكتابات الأخرى أيضاً ، لم يكن أول طراز للكتابة في بلاد النهرين . بل أن أقدم الكتابات في بلاد النهرين ، كما في كل مكان ، هي الكتابة التصويرية التي في كثير من الأحيان كانت الصورة الواحدة (لوغو غرام = صورة تنقل كلمة . أو إيديو غرام = صورة تنقل

مفهوماً) تعطي عدة معاني مختلفة . فمثلاً رحمة العين لم تعن فقط جهاز البصر ، وإنما مفاهيماً اشتقاقية أخرى أيضاً (مثل وجه ، أمام ، أمامي ، سابق) . وخطان عموديان (فيما بعد ثلاثة أسافين عمودية واحد كبير واثنان صغيران) كانا يرمزان إلى جريان الماء ويعبران عن الابن أيضاً . ولم يتوقف الامر عند ذلك . فالشكل المذكور أعلاه الذي يعبر عن الماء ويلفظ باللغة السومرية بصوت (آ) أصبح يرد في كلمات لا تمت إلى الماء بصلة . وتحول إلى حرف عادي هو حرف (آ) . لكن هذا الحرف البسيط كان يرد في النص الواحد أحياناً كحرف (آ) ، وأحياناً كلمة ماء وأحياناً كلمة ابن . وهكذا كثيراً ما كان الرمز الكتابي الواحد يعبر عن أكثر من عشر معاني أحياناً .

ان تعداد المعاني للرمز الكتابي الواحد أدى إلى صعوبات كبيرة . فقراءة نص ما كانت كحل أحجية من الاحاجي . لذلك لم يستطيع القراءة والكتابة بشكل صحيح إلا الكاتب الحبير الذي قضى سنيناً عديدة في الدراسة . ولكن الشكل المقعد للرموز الكتابية أخذ تدريجياً يميل إلى البساطة ، حتى أنه في نهاية الألف الثالث ق . م أصبحت الرموز الكتابية بعيدة كل البعد عن صورها الاولية .

بما أن المادة الرئيسية للكتابة كانت من الطين الذي قطعوه على شكل ألواح مستطيلة أو موشورة أو مستديرة أو غير ذلك ، فإن الكاتب عندما يرسم الخطوط لصورة تقريبية ، قد يخفف ضغط يده بصورة عفوية ، فيتحول الخط المستقيم إلى اسفين أفقي أو عمودي أو منحرف . والخطوط الدائرية قد تصبح مستقيمة عند الكتابة بسرعة . فمثلا الدائرة التي عبرت عن الشمس أصبحت تشبه شكل المعين . وفيما بعد تحولت إلى ثلاثة أسافين ، أحدهم عمودي واثنان صغيران يلتصقان به من الجانبين .

إن معرفة القراءة والكتابة في بلاد النهرين ، كما في بلدان الشرق الاخرى ، كانت مقتصرة على أقلية محدودة . فالبنات عامة لم يذهبن إلى المدرسة (ربما بنات الملوك والامراء والكهنة تعلموا في البيوت ولكن لانوجد أخبار مباشرة حول ذلك) التي اقتصرت على الصبية فقط من ابناء الكهنة والموظفين وكبار الشخصيات المدنية والعسكرية . وكان مكانها في المعابد والقصور ، حيث أن أملاك المعابد ودوائر الدولة كانت بحاجة إلى اناس متعلمين . وقد كان التعليم لقاء أجر عدا عن الهدايا الاضافية للمعلمين . والطلبة الكسالى يتعرضون لعقاب جسدي ، وكان في المدرسة مراقب يحمل كراباجاً لهذا الغرض . لكن الطلبة كانوا معقنين من الجهود العضلية . وعند انهاء دراستهم يستلمون وظائف ذات دخل معين .

لقد وصلتنا مئات الألوف من النصوص المسماة المكتوبة على الواح من الطين وقسم قليل منها محفور على القرص أو صفائح معدنية . وبفضل هذا نستطيع أن نطلع على الانتاج العلمي والأدبي لشعوب بلاد النهرين . لكن هذا الانتاج ، كما في البلدان القديمة الاخرى ، يحمل طابعاً من التفكير الديني الاسطوري ، الذي تجاوزه تدريجياً ولكن ببطء وليس بصورة نهائية .

٣ - الديانة : رغم أن عقائد السومريين والاكاديين اتصفت ، كباقي العقائد الدينية القديمة ، بنزعة المحافظة على القديم ، وثبات الآراء والتصورات التي فات زمانها ، كان لا بد لها أن تتغير وتتطور تحت تأثير التحولات الاقتصادية والتطورات الاجتماعية .

في مرحلة نظام المجتمع البدائي لم يشعر الانسان بعد بسيطرته على

الطبيعة التي تحيط به ، ولم ينفصل عن عالم الحيوان . فكل عشيرة (فيما بعد كل قبيلة) كانت تعيد أصلها إلى وحش ما ، أو طير ، أو سمكة ، أو حشرة . وليس من قبيل الصدفة أن الملوك القدماء أطلقوا على أنفسهم أسماء بعض الحيوانات كالحروف ، والعقرب ، وغيره . وحتى في عصور متأخرة بعد أن تلاشى النظام القبلي ، كان بعض الآلهة يصور على شكل حيوانات أو طيور . ولكن هذه حالات شاذة ، إذ أن معظم الآلهة في الدول ذات النظام العبودي أصبح على شكل إنسان .

ومن ناحية أخرى فإن الانتقال من نظام سيادة الام إلى نظام سيادة الأب في الأمرة انعكس على الايديولوجية الدينية . ففي العهود القديمة لعبت الآلهة المؤنثة دوراً رئيسياً ، إذ ليس من قبيل الصدفة أن الإلهة المؤنثة تيامات كانت تمثل عنصر الماء . ولكن فيما بعد . عندما تنظمت للتصورات الدينية من قبل الكهنة ، وتشكل مجمع الآلهة ، فإن معظم الآلهة فيه تصبح مذكرة . ورغم أن الآلهة المؤنثة تشارك في المجلس الإلهي ، لكن دورها يصبح في الدرجة الثانية . وهكذا ينتصر مبدأ سيادة الرجل في المجال الديني بعد أن انتصر في مجال العلاقات الاجتماعية الواقعية بقليل ..

كان عدد الآلهة المعبودة في بلاد النهرين كبيراً جداً . فكل مدينة ، وحتى كل حي ، أو كل قرية صغيرة كانت أم كبيرة ، كان لها إله أو إلهة تحميها . وبعض الآلهة كانت تعبد في جميع أنحاء البلاد ، وبعضها كانت آلهة محلية .

قوانين الطبيعة الحتمية كتبدل الليل والنهار وفصول السنة . وكذلك

التحولات الاقتصادية ، كظهور الزراعة ، وتربية الحيوانات ، والاختراعات
التقنية ، ، كل هذا كان يفسر بحوادث من حياة الآلهة .

وقد وضع السومريون القدماء نظرية معقدة حول نشوء الكون .
فالعنصر الأول ، حسب تلك النظرية الاسطورية ، كان عبارة عن هيولى
مائية . وأول المحيطات تصوروه على شكل امرأة عملاقة ، ثم نشأت في
داخلها اليابسة على شكل جبل ضخيم ، فكانت قمته هي إله السماء
أنو وقاعدة الجبل المسطحة اعتبروها إلهة الأرض كمي ولم يكن كلا
الإلهين منفصلين عن بعضها البعض . ثم من هذين الإلهين ولد إله الهواء
إلليل . وعندما كبر شعر بضيق المكان ، فقطع بسكينه الجبل وفصل
إلى الأبد الأب- السماء عن الأم- الأرض . ومنذ ذلك الحين أصبح يحكم
في الأرض ، وخلف جيلاً من الآلهة . فابنه الأكبر أصبح إله القمر
(السومريون سموه نانا ، والاكاديون سموه سين) الذي خلف ولدين :
أحدهما أصبح إله الشمس (السومريون سموه أوتو والاكاديون سموه
شاماش) ، والثاني أصبح إلهة نجم الزهرة (السومريون سموها إنانا
والاكاديون قارونها بالهتهم عشتار . وهذا الإله مزدوج الشخصية فهو مذكر
في الصباح ومؤنث في المساء) التي اعتبرت إلهة الحب والحصب . وهكذا
اعتقد السومريون أن القمر أعمر من الشمس والنجوم . لذلك اعتبروا
أن الليل هو النصف الاول من اليوم ويبدأ عندما يدب الظلام .

عندما أصبحت مدينة بابل المركز الرئيسي في بلاد النهرين ، فان
اسطورة نشوء الكون طرأ عليها تغيير جديد . لقد ظهر في وسط بابل
الإله مردوخ الذي يجمي العاصمة الجديدة . ولكن كهنة بابل لم
يستطيعوا أن ينكروا أن مردوخ كان أصغر سناً من الإله أنو والإله

إنليل وغيرهم من الآلهة ، حيث أن مدينة بابل ظهرت بعد المدن الأخرى التي ظهرت فيها الآلهة السابقة . لذلك تحابلوا على إيجاد مخرج للأمر وقرروا إثبات حق إلههم مردوخ في السيادة ، مدعين بأنه حقق بعض المآثر تجاه الآلهة الأخرى . ولما كانت الاساطير البابلية تصور إلهة المحيط الاولي تيامات على شكل وحش مفترس يحاول أن يقضي على جميع الآلهة التي نشأت من جوفها ، لذلك تعقد الآلهة مجلساً للبحث عن وسيلة للانقاذ . فكان الإله مردوخ اكثرهم جرأة وحزماً ، وعرض أن يدخل منفرداً في حرب مع تيامات . ولكنه طلب مقابل ذلك أن تعترف جميع الآلهة به سيد الأرباب ، فأقامت الآلهة حفلة وشربت خمرأ وابتهجت ، وقبلت شروط الإله الصغير مردوخ ، الذي تسلم ودخل في معركة مع العدو الخفيف . وعندما رأت تيامات خصمها فتحت فمها الكبير ، لكن مردوخ أغرز فيها سبعة حراب أخذت تترق أحشاهاء . بعد ذلك قهر الإله الشاب بسهولة الوحش المنهوك ، وشق جسده إلى قسمين كما تشق الصدفة . وضع من القسم العلوي السماء ، ومن القسم السفلي الأرض ، ثم خلق عليها جميع الكائنات ...

جميع انجازات البشر نتيجة صراهم مع الطبيعة . والتحويلات الاقتصادية الكبرى ، كزراعة النباتات ، وقائيس الحيوانات ، وظهور الصناعة وغير ذلك - كل هذا أعاده السومريون والاكاديون إلى الارادة السماوية . أما دور البشر فكان فقط تنفيذ ما يخطط في السماء من قبل . فحسب الاساطير السومرية كان نمط حياة الآلهة بعد نشوء الكون وضعياً وقبيحاً ، إذ تغذت بالاعشاب، وشربت المياه من السواقي ، ونجولت عارية . ولكن أخيراً بأمر من الإله إنليل والإله إنكي أوجد الإله لاخاو

الغنم والماعز . كما أن أخته الإلهة اشنان بزرت في الأرض أو حبة ،
تم أصبحت الثياب تنسج . ولكن تأمين الحليب والخبز والثياب إلى
امر سكان السماء الكثيرين لم يكن مهمة سهلة . إذ أن عمال وعاملات
السماء لم يكن لديهم من القوة والوقت الكافي للقيام بهذه المهمة ، فاحتاج
الامر إلى عمال عاديين . عندئذ صنع إله الحكمة إنكبي من الطين
الناس الأوائل ، ليشغلوا الأرض ، ويربوا المواشي ، ويؤمنوا لآلهة
السماء كل ما يحتاجه من ضروريات

بالإضافة إلى الاساطير المتعلقة بنشوء الكون وظهور الانسان ، وضع
السومريون والاكاديين مجموعة أخرى من الاساطير حول تفسير تبدلات
الطبيعية . وأم هذه الاساطير هي قصة موت وبعث إلهة الحصب عشتار .
تهبط عشتار إلى عالم مظلم تحت الأرض لتتقذ زوجها تموز . وما
دامت هي هناك تعاني من الآلام الفظيعة يتوقف تكاثر البشر والحيوانات
على الأرض . لكن الآلهة تعمل على انقاذ وتحرير الإلهة الرزوفة عشتار
فتعود الحياة الطبيعية على الأرض من جديد .

إن عودة إلهة الحصب عشتار تفسر تبدل الشتاء بالربيع ، وهو
الحبوب المزروعة في الأرض من السنة الميتة التي قطعها المنجل سابقاً .
وهذا يعني انتصار الحياة على الموت .

إن مثال الآلهة المعذبة استخدم للدعاية حول ضرورة تحمل الآلام
وضرورة الخضوع للمشيئة الإلهية . وهذه الدعاية استخدمتها الطبقات
المسيطرة في مجتمع بلاد النهرين لصالحها ، كما أن دهاية الخضوع للمشيئة
الإلهية ظهرت أيضاً لمحاولة تفسير المصائب الطبيعية التي نزلها الآلهة
كعقاب على عقوق البشر . وقد انعكس هذا المفهوم بشكل واضح في

الاسطورة السابلية عن الطوفان . ففي بلاد النهرين غالباً ما كانت تحدث طوفانات نتيجة فياضانات الانهار فتغمر مساحات واسعة حتى ظن سكان المنطقة في ذلك العصر أن الفيضانات تغمر العالم بأجمعه . إن اسطورة الطوفان تعبر عن غضب الآلهة المستاءة من عقوق الناس . لذلك باقتراح من الإله إنليل تبعت الآلهة إلى الارض بوابل من المطر الخيف فيدمر البشرية بأمرها ماعدا الانسان الطاهر أو تئابشتيما الذي يصنع بناء على نصيحة الإله إيا ، سفينة على شكل صندوق محكم السد فينجو مع عائلته وخدمه ...

وجدير بالملاحظة أن الاسطورة الخيالية حول الآلهة لم تستقر على طابع واحد دائم في مفهوم البشر ، إذ أن التحولات الاجتماعية كانت تؤدي باستمرار إلى تبدل مفهوم البشر عن العلاقات القائمة بين الآلهة . ففي أول الأمر قسّمت الآلهة إلى مراتب فكان السبعة الأوائل منها أعلى مرتبة ويدهم تقرير مصير العالم . ويليه في المرتبة الثانية خمسون إلهاً عظيماً . وفي المرتبة الثالثة يأتي عدد كبير من الآلهة للبطاء ومادام نظام الديمقراطية القبلية سائداً في سومر وأكاد ، فقد ظل هذا النظام معمولاً به في المجال السماوي أيضاً ما بين الآلهة . فمثلاً كان يجب على الإله إنليل أن يحصل على موافقة الآلهة الآخرين من أعضاء المرتبة الأولى لإقرار فكرته السابقة حول الانتقام من البشر بالطوفان .

ولكن تدريجياً يصبح التناقض الاجتماعي حاداً بين أصحاب العبيد والنبلاء والاشراف من جهة ، وبين العبيد والجمهير الشعبية الكادحة من جهة اخرى . فتبدل النظم والتقاليد القبلية السائدة لتحل مكانها علاقات ونظم جديدة . هذه النظم والعلاقات الجديدة تنتقل إلى المجال السماوي

أيضاً . فلم يعد الإله الأعظم يشبه رئيس القبيلة ، وإنما أصبح سيداً مطلقاً يملك سلطة غير محدودة . فالإله أنليل أصبح يسمى الآن سيد الارباب الرهيب الذي لايجراً أحد من الآلهة أن ينظر إليه .

كانت تقوم الضحايا والقرايين على شرف الآلهة وخاصة في أيام الاعياد وتوضع ضحايا المؤمنين على مذبح القرايين الموجود في باحة المعبد ، فيأكل الكهنة وخدام المعبد القسم الأكبر من اللحم أو الحبز أو غيره من المنتوجات المقدمة للآلهة . أما الضحايا البشرية فاعتباراً من الالف الثالث قبل الميلاد حل محلها ذبح الخراف ...

وفي أيام الاعياد كانت تماثيل الالهة تخرج من المعابد ويطاف بها في استعراض احتفالي . وأحياناً تحمل في قارب مزين يعبر السواقي أو الانهار . أما الصلوات والانشيد الدينية فقد كان يرافقها عزف على المزمار أو القيثارة ، أو غيرها من الآلات الموسيقية .

الآداب : بالإضافة إلى الاساطير الدينية ، وصلتنا من شعوب بلاد النهرين القدماء ملاحم ادبية تتغنى بمآثر الأبطال الذين تمتعوا بقوة وحكمة خارقين ، ولكنهم تميزوا عن الآلهة الخالدة بأن مصيرهم سيكون كمصير بقية البشر ، وعاجلاً أم آجلاً سيفارقون الحياة .

في تلك الملاحم الادبية تتشابه عناصر متعددة متنوعة . فالأدب الشعبي يتفاهم بإضافات وشروح من صنع كتاب القصور والمعابد الذين يحاولون أن يسلكوا اتجاهاً طبقياً معيناً . ومن ناحية أخرى نرى أن أخبار الحوادث التاريخية الواقعية تغص بالمبالغات الواضحة وتنمق بالتفاصيل الاسطورية .

وأفضل ما يعبر عن هذا الطابع الأدبي الخاص في بلاد النهرين القديمة
السلسلة الملحمية عن البطل العظيم جلجاميش . وقد حفظت من تلك
السلسلة فصول مبعثرة باللغة السومرية أخذها فيما بعد الأكاديون فعدلوا
فيها ونظموها وأنشأوا منها باللغة الأكادية قصيدة واحدة عن جلجاميش
تتألف من إثني عشر فصلاً . وفي الوقت الحاضر نوضح أن جلجاميش
شخصية تاريخية حقيقية ، حكم مدينة أودوك التي أصبحت في عهده مركزاً
رئيسياً في بلاد النهرين . وقد تحدثت الأسطورة البطولية القديمة كيف
أن جلجاميش ، بعد موافقة المجلس الشعبي نظم النضال لتحرير مدينته من
سلطة مدينة كيش ...

في القصيدة الأكادية يظهر جلجاميش كحاكم شاذ متقلب المزاج
والاطوار ، يجبر الرجال على بناء أسوار المدينة ، أما البنات فيأخذهن
كجواري له . ويقوم هو وصديقه إنكيدوا بعدة مآثر بطولية فيقتل
مثلاً العملاق خومبابو الذي يسكن في غابة الصنوبر . وقد أدهشت
قوة جلجاميش وحكمته الإلهة عشتار نفسها فعرضت عليه أن يتزوجها .
ولكن ذلك البطل البعيد النظر رفض طلبها ، مذكراً إياها كيف أنها
بغدر وخبث كانت قد قتلت جميع عشيقاته السابقات . ورداً على رفضه
الوقع ، تطلب الإلهة المهانة عشتار من والدها الإله أن يرسل إلى مدينة
أوروك نور السماء الذي هبط وابتلع مياه الفرات وشق الأرض بزفيره .
ولكن جلجاميش وإنكيدوا يتصدیان لهذا الرحش المفترس ويقتلانه ...

وفي نهاية المطاف يفشل جلجاميش في صراعه مع الآلهة ويموت
صديقه إنكيدو . وأخذت فكرة حتمية الموت تؤرق البطل جلجاميش
فينطلق في رحلة طويلة ليجت عن مر الخلود . وعبر المحيط حتى وصل

إلى جزيرة يعيش فيها جده أوثنا بشتيم ، الذي كان قد نجا من الطوفان الكبير ، وبارادة الآلهة وهب له ولزوجته الخلود . وبناء على نصيحتها يغوص جلعاميش إلى أعماق البحار ، ويقطف من هناك نباتاً سحرياً تعيد الشيوخ شباباً . ولكن تظهر له حية وتسرق منه ذلك النبات .

وتتلخص الفكرة الرئيسية من تلك القصيدة أن أعظم الابطال لا يستطيع الحصول على الحياة الأبدية وعليه أن يستسلم للآلهة . ونفس هذه الفكرة حول إمكانيات الانسان المحدوده ترد أيضاً في قصيدة أخرى يكون بطلها إثانا ، الذي راح يبحث كما فعل جلعاميش ، عن الاعجوبة « نبات الحياة » . ومن أجل ذلك يمتطي إثانا رقبة صقر ويصعد إلى السماء الرابعة عشرة . ولكن ما إن نظر نحو الاسفل حتى وجد أن الارض قد غابت عن ناظريه فارتعد ذلك البطل ، وأفلت يده رقبة الصقر وهبط يهوي فتحطم ...

بالإضافة إلى القصائد الملحمية التي أوردنا نماذجاً واضحة عنها ، فقد وصلتنا أيضاً نماذج سومرية وأكادية من الشعر الغنائي . حيث نظمت على شرف الآلهة أناشيد عديدة يتغنى أحدها بإله الشمس شاماش الذي يقاصص الجرمين ويحفظ المسافرين ...

واستعمل أيضاً نوع خاص من الحادثة الأدبية التي تعبر عن التأملات العميقة حول فكرة الحياة . ويعتبر نموذجاً لهذا النوع من الادب « حديث السيد مع العبد » . ومضمون الحديث أن أحد الأمراء غضب عليه الملك فيتشاور مع عبده ويسأله النصيحة ولكنه لا يجد مخرجاً من ذلك المأزق ، حيث لا يأمل رحمة من قبل الملك ، والتمرد ضده دون جدوى . ولكنه يستطيع أن يتمتع بسررات الحياة قبل فوات الأوان .

كما يستطيع أن يقيم الولايم ومجب النساء . ولكن لافائدة في هذا . فالانتمام يعود بالألم ، والمرأة في تصوره خبيثة وسكين حديدي قاطع يمز رقبة الانسان . وقد أكد له عبده أن لافائدة ترجى من الإله الذي لاتهمه أمور الانسان ومصائبه ، وهو أصم لا يستجيب للدعاء والتعاويز السحرية . في تلك التأكيدات نلاحظ مذهب الشك والارتباب الذي يهدم أركان العقائد الدينية . فرغم أنه لم ينكر وجود الإله بشكل صريح ، نلاحظ وجود خطوة أولى في هذا الاتجاه وهي الاعتقاد بعدم فائدة الطقوس الدينية .

وفي نهاية المحادثة يهدد الأمير الساخط بالقتل عبده الماكر الذي لا يرغب في تهدة روعه . ولكن العبد يجيبه بهدوء أنه لن يعيش بعده أكثر من ثلاثة أيام . وهنا فكرة واضحة : كما أن الأمير عاجز أمام المملك كذلك العبد عاجز أمام الامير .

شكلت القصص الاسطورية أيضاً فناً خاصاً حفظ أكثر من غيره من الفنون ملامح الادب الشعبي . وقد وصلتنا منها بعض القصص عن حياة الحيوانات (عن الصقر والحية ، عن الثعلب الجبان المغرور ، وعن الأسد الشهم وغير ذلك) .

وتجدر الاشارة أيضاً إلى الامثال الشعبية ، التي تعكس بدقة صفات أمور الحياة ، وتشكل أحياناً المواضيع الرئيسية في علم الأخلاق . فمثلاً أحد الامثلة يدين الحياة التي ليس لها مقوماتها ويدعو إلى تلبية الحاجات فقط : « الذي يبني كالسيد يعيش كالعبد ، والذي يبني كالعبد يعيش كالسيد » . كما تظهر الحكمة الشعبية الاصلية في إدانة الحروب « أنت تذهب لاحتلال أرض العدو ، فالعدو يأتي لاحتلال أرضك » .

ه - العلوم : إن النشاط العلمي في بلاد النهرين ، كما الآداب ، تطور تحت تأثير المعتقدات الدينية والتأملات والاعمال السحرية الخرافية التي مارسها الكهنة بصورة رئيسية .

في أكثر الأحيان لم تكن التجربة أو الملاحظة تهدف إلى التعرف على حقيقة الكون ، أو تطبيق النتائج في الحياة العلمية . وقد نسبت إلى كل مادة أو ظاهرة صفات وهمية خيالية بالإضافة إلى صفاتها الحقيقية . فحتى الظواهر الطبيعية المعروفة أعطيت طابعاً خرافياً . كما لم يكن هناك تحديد بين الطبيعية العضوية وغير العضوية . فالارض والماء والهواء والكواكب اعتبرت جميعها كائنات حية . وقد قاد الإعتقاد بالسحر والتعاوين إلى تقسيم المواد والكائنات الحية إلى إيجابية وسلبية ، بغض النظر عن خواصها الحقيقية ، ونافعة كانت أم ضارة للإنسان . فقد اعتقد السومريون مثلاً بوجود صفات مباركة في الحجر الاسود ، وبوجود صفات سلبية ضارة في الحجر الابيض . أما البابليون فقد اعتقدوا أن الصراير السوداء تنذر بالمصائب على عكس الحمراء . وقد اعتبرت الافاعي خطيرة أحياناً أو ذكية ومباركة أحياناً أخرى ، والاعتقاد بأن الاعداد بعضها محظوظ وبعضها ينبئ بالسوء كان له تأثير على التقويم وعلم المقاييس .

لكن المتطلبات العملية اقتضت تخطي المحظورات السحرية الدينية . وبعض الملاحظات التي أجريت من أجل الحصول على قدرة سحرية كانت أحياناً عن طريق الصدفة تقود إلى اكتشاف علمي قيم . وهكذا تدريجياً ولكن بشكل مضطرب أخذت تتحرر معرفة الكون من قيود التفكير الديني . ولكن ذلك التحرر لم يحقق تماماً في ظل سيادة النظام العبودي

في بلاد النهرين . ومهما يكن من أمر فقد تمت إنجازات كبيرة في مجال الرياضيات وعلم الفلك .

الرياضيات :

في العهد السومري عمل في أراضي النهر والمعاابد عشرات المحاسبين الذين أجروا حسابات دقيقة المنتوجات والقوى العاملة ، حتى أنهم حسبوا الكسور (لتقدير أيام العمل مثلاً) . كذلك تطلب القيام بمشاريع الري والبناء معرفة الحساب والهندسة . وقد استعملوا النظام الستيني في الحساب رغم صعوبته وكان من رواسب التصورات الدينية (العدد ٦ والأعداد الناتجة عنه مثل ١٢ ، ٣٦ ، ٣٦٠ الخ ... اعتبرت أعداداً محظوظة) .

وفيا بعد ظهر نظام عشري وسطي فكان عملياً أكثر من النظام الستيني . والاعداد الرئيسية فيه هي العدد ٦٠ (ناتج عن ضرب ٦ × ١٠) والعدد ٣٦٠ والعدد ٣٦٠٠ الخ ... وإلى هذا النظام يعود تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة ، والساعة إلى ٦٠ دقيقة ، والدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، والسنة إلى ٣٦٠ يوم ٠٠٠

ومن الانجازات الهامة في مجال الرياضيات لدى السومريين والبابليين كان إنشاء النظام الموقعي الذي يتبدل فيه معنى الأرقام حسب موقعها في الأعداد المركبة . فالإسفين العمودي عادة يشير إلى الرقم واحد (١) . ولكنه إذا وقع أمام الرقم عشرة (١٠) فيشير إلى العدد (٦٠) . وفي مركبات أخرى يشير إلى العدد (٣٦٠٠) . أما النقص الكبير في تلك الرياضيات فهو عدم وجود إشارة الصفر (٠) .

وتجدر الاشارة إلى ظهور مبادئ الجبر والهندسة إذ حلت معادلات من الدرجة الثانية ، وحسبوا طول المحيط ومساحة الدائرة وغير ذلك .

الفلك :

أما علم الفلك فقد كان على صلة وثيقة مع علم التنجيم المزيف . وبما دفع إلى دراسة النجوم الاعتقاد الشديد بتأثير كواكب السماء على مصير الفرد أو المجتمع . هذه الدراسة ، بالإضافة إلى الاوهام المتراكمة نتيجة تطابق ظواهر السماء أحياناً مع حوادث تجري بالواقع على الارض ، قادت إلى نتائج موثوقة ذات قيمة علمية . فعرفت مثلاً العلاقة بين الشمس وپروج الافلاك في يوم الاعتدال الربيعي (هذه العلاقة تتبدل كل ٢٠٠٠ سنة ، عصر التوائم ، عصر الجسيات النخ ٠٠٠) . كما تنبأوا بحدوث الكسوف والخسوف . وعرفوا سلفاً متى يكون القمر على أقرب مسافة من الأرض . ونشأ في بلاد النهرين تقويم شمسي وقمري مالمب أن انتشر إلى البلاد المجاورة . وقد تطلبت أمور الزراعة دقة كبيرة في حساب التقويم . فملا كل ثلاث سنوات أضيف شهر كبيسي حتى تتساوى السنة القمرية مع السنة الشمسية .

العلوم الطبيعية :

وضع الكتاب السومريون والبابليون ومن بعدهم الاشوريون قوائم ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن . كما حاولوا تبويب هذه القوائم وتقسيمها إلى مجموعات معينة . ولكن ذلك التبويب كان بشكل صافج . فمثلا صنّفوا الحمار والفرس والجمال في مجموعة واحدة . وسموا الاسد كلباً كبيراً النخ ٠٠٠ كما درسوا بدقة تركيب أجسام الحيوانات المذبوحة . حيث وصلتنا تصاميم

الأكباد مصنوعة من الطين بشكل رائع كانت تستعمل للعرافة وقراءة
البغث ولكنها أصبحت عملياً كوسائل إيضاح للتعرف على علم التشريح ...
في الألف الثالث قبل الميلاد وضع باللغة السومرية بحث في علم الزراعة
درست فيه خصائص التربة والنباتات الزراعية وغير ذلك . كما نعلم عن
وجود وصفات مكتوبة بالمسمارية حول تحضير الأحجار الاصطناعية
كاللازورد مثلاً . وهكذا أخذت العلوم الطبيعية تفقد تدريجياً صلتها
بالسحر وبدأت تستخدم لاهداف إقتصادية ...

الطب

كان من الصعب معرفة أسباب الأمراض الداخلية . وقد فسروا ذلك
عادة بدخول أرواح شريرة في جسم المريض ، أو نتيجة لسوء نوايا السحرة
أو مكائد الساحرات وغير ذلك . لذلك اعتبروا أن الصلوات والتعاوين
وحرق تماثيل السحرة من أفضل الطرق للعلاج . أما الادوية فكان لها
دور إضافي فقط . وكان أكثر العلوم تحمراً من أمور السحر الكاذبة
هو علم الجراحة حيث يقوم على معالجة ظواهر واضحة للعيان . وقد
تجرباً الأطباء البابليون في عهد حمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد)
أن يقوموا بعمليات معقدة في العين ، كإزالة الماء الزرقاء بواسطة سكين
من البرونز مثلاً . ولكن في حال فشل العملية يتعرض الطبيب لعقاب
شديد (قطع راحة اليد) ...

الجغرافيا :

بما أن السومريين والبابليين كانوا يعتقدون بأن الأرض إله (الإلهة كي
وفيا بعد الإله بل) مولود من المحيط الأزلي ، فقد تصوروا أن اليابسة

تحيطها المياه من جميع الجهات . واعتقدوا أن البحار ناتجة عن تدفق المحيط الكبير الذي يلف الأرض النافرة بأكملها (هناك مصور بابلي يشير إلى ذلك) . كما تصوروا الجهات الأربعة عبارة عن فضاء خارجي فسيح . وقد تم تحديد المناطق الجغرافية عادة حسب خطة معينة ، كحساب المحيط ، أو القياس من اليمين إلى الشمال ، أو حسب مبدأ المقارنة ...

التاريخ

لم تعرف شعوب بلاد النهرين العلوم التاريخية بمفهومها الحالي . ولكن تم وضع قوائم بأهم الحوادث ووصف الحروب ونشاط الملوك العمrani . واعتقدوا أن أسباب التحولات التاريخية تعود إلى إرادة الآلهة التي تعاقب على الذنوب ، أو إلى نشاط الملوك الأخيار أو الأشرار .

الفنون

بفضل التنقيبات التي جرت في القرنين التاسع عشر والعشرين أصبح معروفاً لدينا الكثير مما أنتجه المهندسون والمعماريون والنحاتون والرسامون في بلاد النهرين القديمة .

تلك التخلقات الفنية ، بالإضافة إلى كونها تعكس ملامح السلطة والسيادة في بلاد الشرق القديم ، تميزت بصفات خاصة حددتها طبيعة الظروف المحلية .

في البناء استعمل السومريون والآكاديون ، بصورة رئيسية ، الطوب الجفف بالشمس . أما استعمال الحجر والخشب فكان على نطاق ضيق . كصرف بعض الأماكن بالحجارة ، أو صنع الأبواب الخشبية . وقد تميز طابع البناء بالبساطة والفضامة والفن الهندسي . كما امتاز بناء المعابد بصورة خاصة بتشييد البروج المدرجة (الزقورات) المؤلفة من خمسة .

او سبعة طوابق ، والتي تعتبر كسلام تصل الارض بالسماء وحاكم الارض
بمحاكم السماء ، وفي نفس الوقت تستخدم كمرصد لمراقبة كوكب السماء .
وكانت القبور في بلاد النهرين عبارة عن حفر بسيطة مرصوفة بالآجر .
كما انصفت النقوش والرسوم على الالواح المنحوتة بالبساطة والتشابه
والتكرار . إذ نلاحظ المشاهد الكثيرة تتوزع في مناطق متعددة على
سطح اللوحة بنمط واحد . وقد برز الموك والآلهة على اللوحة بمقاييس
كبيرة لإظهار تفوقهم على الشعب البسيط . وما يثير الدهشة تشابه تعابير
الوجوه الرصينة ، والابتسامات الجامدة ، وعدم الرغبة في الالتفافة أو
الحركة المندفعة . لكن لا بد من الإشارة إلى أنه في بعض الاحيات
جرت محاولات لتخطي القوانين الفنية السائدة ولتحرر من الأعراف
التقليدية . ففي عهد الدولة الاكادية التي ضمت شعباً متعددة ، وعند
اتساع العلاقات مع العالم الخارجي ، تظهر تبدلات عميقة في الاساليب
الفنية . ويشهد على ذلك النصب الرائع الذي يجلد انتصار ناورام سين .
فبدلاً من تقسيم المشهد إلى مناطق أفقية (كما كان في السابق) تظهر
محاولة لانشاء مشهد مركب واحد . إذ نلاحظ على أرضية منظر يمثل
جبلًا طبيعيًا جنوداً يصعدون بخطوات موزونة على حافات الصخور .
والملك يلوح برمح مسدد فيقتل جندياً معادياً ويهرب يائساً جندي آخر .
إن الحركات المتعددة في هذه اللوحة ، والتعبير عن ثقة المنتصر ، وذعر
المدحور ، - كل هذا يترك انطباعاً عميقاً في النفس .

الحضارة السومرية البابلية كان لها تأثير كبير على شعوب أوروبا والشرق
الاطلس . فالنظام الستيني في الرياضيات انعكس في تقسيم الزمن إلى
ساعات ودقائق وثواني وتقسيم الفضاء إلى درجات الطول والعرض ،
وقد أصبح هذا التقسيم عالمياً .

أما علماء الفلك المعاصرون فيستعملون أسماء الكواكب والبروج التي تعود إلى السومريين والاكاديين ومن بعدهم البابليين ، وأحياناً يستعملون أسماء العصر الكلاسيكي (الروماني والاعريقي) إذ أصبح الكوكب جوبتر يقابل مودوخ أما فينيرا تقابل الإلهة عشتار .

كذلك يستعمل الكتاب المعاصرون ألوان الشعر التي استعملت في بلاد النهرين القديمة . فربة الظلام ليلىت السومرية الاكادية انتقلت عن طريق التوراة والتلمود والاسفار الدينية إلى القرن التاسع عشر والعشرين فذكرها ي. ف. غوته و أ. فوانس . كما نصادف مواضعاً فنية بابلية في قصائد ي. بوفينا .

* * *

مصر في زمن ما قبل الاسرات

١ - الظروف الطبيعية : نشأت دولة مصر في الشمال الشرقي من أفريقيا . وتشكلت من وادي النيل والهضاب الممتدة إلى الشرق منه حتى البحر الاحمر وقسم من الهضاب الليبية في الغرب . وقد أطلق المصريون على بلادهم أمم « الارض السوداء » إشارة إلى خصوبة تربتها .

في العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) ، سكنت مصر قبائل متنقلة تعيش على الصيد ، وتسكن في المرتفعات التي تحيط بوادي النيل المستنقعي ، ونادراً ما كانت تهبط إلى ضفاف النهر العظيم .

في ذلك العصر كان معظم أوروبا مغطى بالجليد . وعلى ضفاف البحر الابيض المتوسط الشمالية تنتشر نباتات التوندرا . وهذا يدلنا أن مناخ شمال افريقيا لم يكن حاراً وجافاً كما هو عليه الآن . بل غالباً ما تساقطت فيه الامطار . كما انتشرت في داخل القارة الافريقية هضاب عديدة تغطيها الاعشاب الكثيفة والشجيرات ، وتعيش فيها الحيوانات المفترسة والطرائد والطيور المختلفة . ولكن عندما ذاب الجليد في أوروبا (منذ ١٢ - ١٥ ألف عاماً تقريباً) أخذ المناخ يتبدل في شمال افريقيا والهضاب الخضراء تتحول تدريجياً إلى مناطق صحراوية . فلم تعد الطرائد كافية لسد حاجات الصيادين البدائيين فانحدروا إلى

وادي النيل وشرعوا في الزراعة وتربية الحيوانات . ونحول الوادي المستنقعي إلى غوطة خضراء تضيق بها الصحراء من الجانبين . ومع الزمن تناقص هطول الأمطار ، وخاصة في الجنوب ، فلم تعد الحياة مستطاعة دون استخدام مياه الانهار . وليس عبثاً ما أطلقه اليونانيون على مصر بأنها - « هبة النيل » ، ذلك النهر العظيم الذي يفيض في مموز ليغمر الوادي بالمياه التي تنحسر فيما بعد تاركة وراءها طبقة خصبة من الغرين أعطت محاصيلًا وفيرة ، بعد أن بذلت الأجيال المتلاحقة جهوداً كبيرة في تجفيف المستنقعات ، وإقامة السدود ، وحفر الاقنية ، واستصلاح التربة وغير ذلك .

٢ - السكان .

إذا كان التركيب البشري في بلاد النهرين متعدد الاجناس ، فإن المصريين القدماء تميزوا بكونهم شعباً واحداً يتكلم لغة واحدة ، وإن كانت متعددة اللهجات . ويعود المصريون إلى المجموعة السامية الحامية الفرع الحامي .

من حيث المظهر الخارجي تميز المصريون بالقامات المتناسقة ، واللون الاصفر ، وعدم كثافة شعر الوجه ، وبالشعر الاسود ، والعيون السوداء . وقد اختلطت بالمصريين بعض الشعوب الغربية كالنوبيين الذين هم بالاصل أشقاء للمصريين ولكنهم كانوا قد امتزجوا مع سكان أواسط افريقيا واكتسبوا بعض ملامحهم . كما أتت مصر أعداد قليلة من سكان وسط أفريقيا . ومن الغرب أتاهم بعض الليبيين الذين هم بالاصل من المجموعة السامية الحامية . ويميزوا باللون الابيض والعيون الزرقاء . أما من الشمال الشرقي فقد أتت بعض الشعوب الآسيوية السامية الاصل .

ولكن كل هذه الشعوب انصهرت بسرعة مع سكان مصر الاصليين ، واستوعبت لغتهم ، وتطبعت بعاداتهم ، ولم تترك تأثيراً يذكر على الطابع الانثروبولوجي للمصريين . . .

أكبر مركز معروف للاستيطان البشري (حوالي ٢٥٠ كم^٢) في العصر الحجري الحديث كان على الطرف الغربي من دلتا النيل قرب ميريعة - بني سلامة الحالية. وقد عاش سكان ذلك المركز البشري على صيد السمك والحيوانات المائية في أول الأمر . ولكن الاستقرار الدائم قادم إلى الزراعة المعزقة وتربية الحيوانات وتطوير الادوات الحجرية ...

وكشفت التنقيبات في منطقة البداوي الحالية (في مصر العليا) عن وجود بعض الادوات النحاسية تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد . وامتازت حضارة تلك المنطقة بانتقال سكانها من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة الزراعة وتربية الحيوانات . وفي النصف الثاني من الألف الرابع ق . م يلاحظ تزايد وتطور الادوات النحاسية . ولكن معظم الادوات لاتزال من الحجر الذي تطور اتقان صنعه . وامتازت حضارة بداوي أيضاً بتطور ملابس في مجال الصناعة : كنسج المنسوجات الكتانية ، وصنع الاواني الخزفية ، وادوات الزينة ، وطلاء الخبز المصنوع من رمل الكوارتز بالزجاج الذي يظهر لأول مرة في التاريخ . كما عرف إنسان بداوي فن النحت على العاج وصنع التماثيل الصغيرة من الصلصال ، وعرف أيضاً وسائل النقل المائية . وبدلنا على ذلك وجود صور قوارب نهرية على الاواني الفخارية التي تعود إلى تلك الفترة .

٣ - تفسخ النظام العشائري :

إن تطور قوى الإنتاج في مصر أوجد الظروف الملائمة لتفسيخ علاقات المجتمع البدائي والانتقال إلى المرحلة الأولى من مجتمع العبودية . وقد زال نظام الامومة ليحل مكانه نظام سيادة الأب في الأسرة . ولكن رغم ذلك ظلت بعض ملامح نظام الامومة سائدة في حياة وتقاليد المجتمع في مصر إلى نشوء دولة العبودية . إذ نلاحظ أن الفرد يكنى باسم أمه وليس باسم أبيه ، ويرث أحياناً عن جده والد أمه . ولكننا يجب ألا نبالغ في ذلك . حيث أنه بالواقع أصبح الرجل سيد الأسرة ، ويحق له أن يحرق زوجته الخائنة بينما لا يحق للزوجة أن تفعل ذلك إن خانها زوجها .

وقد زال النظام العشائري القبلي قبل ظهور الكتابة في مصر . حيث نعلم عن الاجتماعات القبلية التي شارك فيها الرجال والنساء من الاساطير الدينية فقط ، والتي تتحدث عن الآلهة والآلهات الذين كانوا يجتمعون لحل الامور الهامة . هذه المشاهد الاسطورية تعكس دون شك الحياة والتقاليد السائدة في النظام العشائري القبلي .

٤ - نشوء النظام العبودي وظهور دول المدن : مع تفسخ العلاقات القبلية أخذت تتوضع في مصر الجماعات الفلاحية (القرى) القائمة على علاقات الجوار وليس على العلاقات العشائرية . كما أخذت تتفتت أملاك العشيرة إلى ملكيات زراعية خاصة موزعة بين الأفراد نتيجة تطور قوى الإنتاج ، وبظهور الملكيات الخاصة تنشأ ظروف استغلال الانسان للانسان . فأصبح أمرى الحروب يحولون إلى عبيد وتستغل جهودهم في الاعمال المختلفة . وقد أدى هذا التطور في العلاقات

الاجتماعية والاقتصادية إلى التحول من النظام القبلي إلى نشوء الدولة فيظهر في مصر عدد من الدول الصغيرة [٤٣ دولة ، باليونانية نوموس ، بالمصرية سيباط] التي تتألف من مدينة واحدة مع المناطق المجاورة لها ويحميها إله خاص ويرأسها أمير أو ملك (باليونانية نومارخ) .

إن ضرورة توحيد الجهود من أجل الدفاع المشترك ضد المخيرين ، أو لتنظيم وسائل الري وضبط فيضان النيل وغير ذلك - كل هذا اقتضى توحيد تلك الدول الصغيرة . وقد تم ذلك بطرق سلمية أحياناً ، أو عن طريق الغزو والفتح أحياناً أخرى . كما تمت عملية اتحاد دول المدن العديدة بصورة تدريجية . وفيما بعد نشأت عن هذا الاتحاد دولتان كبيرتان هما : دولة مصر العليا (جنوباً في وادي النيل) ، ودولة مصر السفلى (شمالاً في دلتا النيل) . ولكن لم يتوقف الأمر عند هذا . بل إن ملوك مصر العليا ، الذين شعروا بتفوق قوتهم ، راحوا يعملون لإخضاع مصر السفلى تحت سلطتهم بدافع الحصول على المراعي الواسعة في الدلتا والتي لم تكن كافية في الجنوب ، وكذلك من أجل الحصول على منفذ إلى البحر المتوسط وطريق بري إلى آسيا عبر سيناء . وتشير وثيقة تاريخية إلى إحدى محاولات مصر العليا ضم دلتا النيل تحت سلطتها . هذه الوثيقة عبارة عن لوحة من الإردواز تمثل انتصار ملك الجنوب فارمو على دولة الشمال . وتشير الكتابة التصويرية البدائية الموجودة عليها إلى أن الجنوبيين أخذوا من الشماليين ستة آلاف من الأسرى . ولكن على ما يبدو أن اتحاد شمال وجنوب مصر تحت سلطة فارمو لم يكن متيناً ، أو إنه لم يدم طويلاً .

الدولة القديمة

- اتحاد شمال وجنوب مصر في دولة واحدة على يد مينا :

يذكر المؤرخ المصري مانيتون (حوالي ٢٨٠ قبل الميلاد) أن أول الملوك المصريين الذي وحد مصر العليا ومصر السفلى هو الملك مينا . وكان ملكاً على الجنوب ، ثم أخضع إلى سلطته دولة الشمال حوالي ٣٠٠٠ ق . م ، وأسس أول سلالة حاكمة في مصر المتحدة ، واتخذ عاصمة له أبيدوس . وقد قامت بغض التمردات في الدلتا تهدف إلى الانفصال عن الجنوب ولكنها لم تثمر عن نتيجة . وأصبح ملوك الدولة المتحدة يستعملون التاج المزدوج أي التاج الأبيض والاحمر (التاج الأبيض كان يستعمل سابقاً في مصر العليا ، والتاج الاحمر - في مصر السفلى) ، وكذلك أقاموا قصرأ أبيض وقصرأ أحمر اللون ...

بعد أن استطاع ملوك الاسرة الاولى توطيد الحكم في الدولة المتحدة قامت بعض الفتن والمنازعات السياسية بين مصر العليا ومصر السفلى في عهد ملوك الاسرة الثانية . وقد أدى هذا إلى انفصال الشمال عن الجنوب ولكن أخيراً تمكن الملك خع سخموي ، آخر ملوك الاسرة الثانية ، من إعادة توحيد مصر من جديد . وقد دام حكم الاسرة الاولى والامرة الثانية حوالي ٢٠٠ سنة (من ٣٠٠٠ ق . إلى ٢٨٠٠ ق . م) .

إن توحيد مصر سياسياً ساعد على توسيع وتطوير مشاريع الري التي تم إنشاؤها وإدارتها تحت إشراف موظفي الدولة . وهذا ساعد بدوره على تطور وازدهار الزراعة ، فازدادت المساحات المزروعة بالحبوب والخضار والكروم والنخيل والتين ونبات الكتان الذي استعمل في صناعة الألبسة . كما تطورت أيضاً تربية الحيوانات الأهلية . وقد جرت في عهد الاسرتين الأولى والثانية تنقيبات في شبه جزيرة سيناء عن معدن النحاس الذي أخذ ينتشر استعماله في صناعة الفؤوس والسكاكين والأواني وغيرها . ولكن ظل الحشب والحجر يستعملان في صنع كثير من الأدوات المختلفة .

من سنة ٢٨٠٠ إلى ٢٢٥٠ تقريباً قبل الميلاد نَحَم في مصر الموحدة أربع سلالات هي : الأمرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . (قسم المؤرخ مانيتون تاريخ مصر القديم إلى ثلاثين أسرة حكمت مصر اعتباراً من سنة ٣٠٠٠ ق . م تقريباً إلى أن فتح اسكندر المكيديوني مصر عام ٣٣٢ ق . م) . في عهد تلك الأمرات الأربعة يتوطد الحكم في البلاد ، وتقرى مركزية الدولة ، ولم تعد مصر السفلى تحاول الانفصال عن الجنوب . وأصبحت مدينة ممفيس عاصمة للدولة اعتباراً من عهد الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة . وقد كانت سابقاً عبارة عن حصن دفاعي أقامه مينا على الحدود بين مصر العليا ومصر السفلى (إلى الجنوب الغربي من القاهرة) . كما تزداد سلطة الملك وتأخذ طابعاً استبدادياً . حتى أن كلمة ملك أصبحت مقدسة لايجز لأحد أن ينطق بها بصوت مسموع . ولكن في حالات الضرورة القسوى كانت تستعمل كلمة فرعون ، وتعني البيت العظيم ، ولكن يقصد بها ساكن ذلك البيت .

أما في الوثائق الرسمية فإن الفرعون يلقب بالإله البار ، أو إين رع (أي ابن الشمس) ، وإذا تقدم أحد من عامة الشعب إلى الفرعون عليه أن يقبل الأرض أمام قدميه . أما تقبيل قدمي الفرعون فلا يحق إلا لشخصيات كبيرة معينة . وعظمة الفرعون هذه قامت على الموارد الضخمة التي تصرف بها ، حيث أن جميع الأراضي كانت ، اسمياً ، ملكاً له . ولكن بالواقع كانت له بعض الاملاك الزراعية الخاصة به والتي تصرف عملياً بانتاجها ووزع منه على أقربائه ومقربيه ، كما تصرف الفرعون أيضاً بمناجم الأحجار والمعادن . وكانت الضرائب العينية التي تجمع من السكان تستخدم أيضاً لسد حاجات القصر والدولة . كما كان السكان ملزمين بالعمل في المشاريع العامة ، كبناء السدود ، وشق الاقنية ، وفي المشاريع التي تخص الامبراطور وحده ، كبناء القصور الملكية والاهرامات .

وقد أدار الفرعون البلاد بمساعدة جهاز من الموظفين بيروقراطي معقد، يرأسه موظف أعلى اصطلاح المؤرخون على تسمية بالوزير ومهمته الاشراف على دوائر الدولة والمعابد وجمع الجيوش ، كما كان القاضي الأعلى في البلاد . وإن استلام الوظائف الهامة كان يتطلب معرفة القراءة والكتابة التي لم تتوفر إلا لعدد معين من أبناء الطبقات الغنية .

اشتغل في أراضي الامبراطور والاشراف والكهنة الفلاحون الذين لاملكية لهم ، ولم يتميزوا عن العبيد إلا من الناحية الحقوقية ، أما من الناحية المادية فيشبهونهم تقريباً . وقد استثمرت أيضاً جهود العبيد من أسرى الحروب الخارجية مع بلاد النوبة وليبيا . ولكن عدد العبيد في هذه الفترة المبكرة كان قليلاً ، ونادراً ما تحول سكان البلاد الاصليون إلى عبيد . أما الفلاحون الصغار الذين يملكون قطعاً زراعية خاصة أصبح

عدمهم يتناقض تدريجياً ، وكان عليهم أن يقدموا حصة من انتاجهم كضريبة للدولة .

وهكذا عاش الفرعون والطبقات المسيطرة في المجتمع في رفاهية بالغة على حساب المنتوجات الفائضة التي انتجتها جهود العبيد وعامة الشعب الكادح .

ترك فراعنة الدولة القديمة آثاراً عمرانية تشهد على قوة سلطنتهم واستبدادهم . هذه الآثار هي إهرامات مصر التي لا تزال قائمة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة بشكلها الأولي الذي لم يتغير إلا قليلاً . ومما دفع فراعنة مصر وأشرفها الأغنياء على تسخير طاقات المجتمع في بناء هذه القبور الفخمة هو اعتقاد المصريين القدماء بأن حفظ جثة الفرعون بالتحنيط ووضعها في مسكن أبدي لا تطله يد الانسان يضمن الخلود لروحه . وأول الاهرامات التي بنيت في مصر هو الهرم المدرج الذي أمر ببنائه الفرعون زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في مطلع القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد . وفيما بعد اكتسبت هذه القبور الملكية شكلاً هندسياً هرمياً دقيقاً . وأكبر الاهرامات المصرية هو هرم الفرعون خوفو (من الأسرة الرابعة) في الجيزة قرب القاهرة (ارتفاعه ١٤٦ متر) . وقد استمر بناؤه (حسب قول المؤرخ اليوناني هيرودوت) ثلاثين عاماً ، واستخدم في بنائه ١٠٠،٠٠٠ إنساناً . ثم شيد هرم آخر قربه لفرعون خفوع (من الأسرة الرابعة أيضاً) وارتفاعه ١٤٣متر . كما بنيت إهرامات أخرى عديدة في عهد الأسرتين الثالثة والرابعة مما دفع المؤرخين أن يطلقوا على ذلك العصر « عصر بناء الإهرام » .

السياسة الخارجية في عهد فراعنة الدولة القديمة لم تكن تهدف إلى احتلال أراضي واسعة خارج مصر واستعمارها بصورة دائمة . ولكن المصريين

قاموا ببعض الغارات المؤقتة على البلاد المجاورة مثل ليبيا والنوبة ونيقيا وفلسطين بقصد الحصول على الغنائم . فمثلاً مؤسس السلالة الرابعة الفرعون سنفر وساق من بلاد النوبة ٧٠٠٠ أسيراً و ٢٠٠ ٠٠٠ رأساً من المواشي . كما تمت بعض الحملات على فينيقيا بقصد الحصول على خشب البناء من أشجار الصنوبر والسنديان ...

في أواخر عهد الدولة القديمة يلاحظ ضعف السلطة المركزية وظهور حركات انفصالية في بعض المناطق . فعلى ما يبدو أن الكثير من الأشراف ورجال الدين لم يكن مسروراً من سلطة الفرعون الاستبدادية ، وسوقه اليد العاملة إلى العاصمة ، واستنزاف موارد البلاد ، واستخدام كل ذلك في مشاريعه الخاصة كبناء المعابد والقصور والإهرامات وغير ذلك . أمام الاستياء الناشب اضطر الفراعنة إلى إعفاء بعض المعابد والمدن من الضرائب والواجبات الأخرى تجاه الدولة . ولكن رغم ذلك تزداد الحركات الانفصالية ، وفي القرن الثالث والعشرين تنقسم مصر إلى عدة دول صغيرة تخوض فيما بينها حروباً أهلية .

★ ★ ★

الدولة الوسطى

١ - الفترة الانتقالية :

ظلت مصر منقسمة سياسياً إلى دول صغيرة حوالي قرنين من الزمن ، من منتصف القرن الثالث والعشرين إلى منتصف القرن الحادي والعشرين . تقريباً مما أدى إلى انحطاط مشاريع الري وتأخر الزراعة ، حيث انغمرت الأقنية بالأوساخ وتحولت بعض الأراضي الجيدة إلى مستنقعات . ومن ناحية أخرى فقد توقفت التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة . كما أخذت قبائل البدو الآسيوية تهاجم حدود البلاد .

حل هذه الأمور كان لابد من إعادة وحدة مصر السياسية من جديد . ولكن عاصمة الدولة القديمة ممفيس أصابها تأخر وانحطاط ، والأمره التي تحكم فيها لم تكن في وضع يسمح لها أن تتأخر النضال من أجل اتحاد جديد . في هذه الأثناء تبرز إلى مكان الصدارة في مصر مدينتان هما مدينة هيراكليوبوليس في شمال مصر العليا ، ومدينة طيبة في جنوب البلاد . وعندما حكمت في هيراكليوبوليس الأمرات التاسعة والعاشرة فإن القسم الأكبر من مصر اعترف بسلطانها . وقد وصلتنا بعض المصادر التاريخية التي تعود إلى زمن الأمرة التاسعة ، ومنها نص مكتوب على البايروس المصري ، ومحفوظ الآن في متحف الإرميتاج في

مدينة لينينغراد . في هذا النص ينصح الملك أختوس (شتي الأول)
[اشهر ملوك الأمرة التاسعة] ابنه ووريثه أن يكون متسامحاً مع
الأمراء ولا يعاقبهم بالموت . ولكن عليه أن يقضي على تمردات الشعب
البسيط دون رحمة أو شفقة .

في نفس الوقت الذي تحكم فيه الأمرة العاشرة في مدينة هيراكليوبوليس
تظهر سلالة حاكمة قوية في مدينة طيبة هي الاسرة الحادية عشر ، التي
تخضع لسلطانها ثاني مقاطعات (نوموس) في جنوب البلاد ، وتتشكل
دولة مستقلة عاصمتها طيبة التي أخذت منذ ذلك الحين تلعب الدور الرئيسي
في البلاد .

٢ - اتحاد مصر الجديد :

يدور الصراع من أجل السيطرة على مصر بأكملها بين ملوك الأسرة
العاشرة في هيراكليوبوليس وملوك الأسرة الحادية عشرة في طيبة . وتجري
بين الطرفين عدة اصطدامات حربية تنتهي بانتصار طيبة التي تصبح عاصمة
للدولة الوسطى . ويتعد شمال وجنوب مصر في دولة واحدة من جديد
تحت سيادة ملوك الأمرة الحادية عشرة ، فتنتهي حالة الفوضى الداخلية
التي سادت في البلاد خلال فترة الانتقال السابقة ، ويوضع حد لغارات
الشعوب المجاورة على مصر كالتوبيين والآسيويين والليبيين . . .

وتمتد فترة حكم مايسمى بالدولة الوسطى اعتباراً من سنة ٢٠٥٠ إلى
١٧٠٠ ق . م حكمت البلاد خلالها الأمرة الحادية عشرة والثانية عشرة
والثالثة عشرة . . .

نتيجة اتحاد مصر الجديد ، واستقرار الأوضاع السياسية في البلاد

يحدث تطور وتقدم في الأوضاع الاقتصادية . فبالإضافة إلى الأدوات النحاسية تظهر الأدوات البرونزية ، وتحسن المصنوعات الزجاجية ، ويحدث تطور في أدوات الإنتاج كالمحاريث والمطاحن اليدوية وغير ذلك . أضف إلى هذا فان شبكة مشاريع الري التي طرأ عليها المخطط في فترة الفوضى والانقسام السيامي أعيد الآن تنظيمها وتوسيعها مما ساعد على زيادة مساحة الاراضي الزراعية وبالتالي زيادة الانتاج ...

وتتطور أيضاً التجارة الداخلية والخارجية . فالعلاقات البحرية بين مصر وجزيرة كويت ، التي كانت في السابق مؤقتة وقليلة ، أصبحت الآن دائمة ونشطة . ويأخذ المصريون عن الكريتيين صناعة الفخار المزخرف ...

كما حل الذهب مكان الجيوب كقياس للثمن (وحدة الوزن الذهبية تسمى دين وتزن ٩١ غرام) . وازدادت كمية الفضة التي كانت تادرة في السابق ، وذلك نتيجة لاستيرادها من البلاد الآسيوية . وقد أصبحت في أواخر عهد الدولة الوسطى أرخص من الذهب بمرتين ...

لقد أدى غرقوى الانتاج والتبادل التجاري إلى تطور وتبدل في الأوضاع الاجتماعية السائدة . فبالإضافة إلى طبقة الأشراف والنبلاء السابقة تنفوز من بين جماهير الشعب البسيط طبقة وسطى أطلق عليها المصريون تعبير «النجسون الأقوياء» . وقد تشكلت من الفلاحين والصناع الاحرار الذين تحسنت أوضاعهم المادية بسبب ازدهار محاصيلهم وزيادة انتاجهم الزراعي أو الصناعي . وأخذ فراغة الدولة الوسطى يعتمدون على هذه الطبقة الوسطى الناشئة أحياناً بدلاً من اعتمادهم بصورة رئيسية على طبقة الأشراف والنبلاء ، وراحوا يسهون أفرادها بعض وظائف الدولة ...

ومن ناحية أخرى يزداد عدد الفلاحين المفلسين ويتحول قسم منهم إلى ما يسمى (خيمونيسون) أي عبيد الملك . وقد يميزوا عن العبيد العاديين بأن عملهم كان منظماً أكثر ، وثلثوا من الحزينة وسائل الانتاج وحصلوا على أجره عينية ، وأحياناً يدخلون في عداد الجيش ، أو يقدم الملك البعض منهم كهدية للأمرء

بالإضافة إلى هذا النوع من العبيد يزداد أيضاً عدد العبيد العاديين عن طريق الشراء أو أسرى الحروب وتقع على عاتقهم أصعب الاعمال ، والنساء منهم يعملن خاصة بطحن الحبوب في مطاحن يدوية .

٣ - الأسرة الثانية عشرة :

حققت مصر ازدهاراً اقتصادياً كبيراً واستقراراً سياسياً إبان حكم الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٨٨٨ ق م) التي أسسها امنمحات . الأول . وقد اتخذ هذا الفرعون عدة إجراءات لتوطيد وحدة البلاد . فعمل أولاً على استئالة أمرء الأقاليم الذين لازالوا يتمتعون بالنفوذ ، وذلك دون الإخلال بهيئة الحكم وسلطة الحكومة المركزية إذ سمح لهم بشيء من الاستقلال على أن يقدموا ولاءهم ويقوموا بما عليهم من واجبات والتزامات تجاه الدولة ، كدفع الضرائب وتجهيز الجيوش عند الحاجة إليها . كما قام بتعيين وثثيت حدود أرض كل منهم التي طرأ عليها بعض التغيير خلال فترة الفوضى السابقة .

ولكي يشرف عن قرب على المنطقة الشالية ، فإنه ، بالإضافة إلى وجود العاصمة الرسمية طيبة ، أسس عاصمة جديدة جعلها مركزاً لإقامته ، وتقع في مكان متوسط بين الشمال والجنوب . وقد سماها إانت تاوي . أي القابضة على الوجهين البحري والقبلي . وهكذا استقرت الأوضاع الداخلية في عهده .

إن استتباب الأمور الداخلية في مصر ساعد فراعنة الأسرة الثانية عشرة على القيام بسياسة خارجية نشيطة . فقام امنمحات الاول بجملات على ليبيا وساق منها الكثير من العبيد والقطيع . كما قام سنوسرت الثالث بجملات إلى بلاد النوبة فضم الاراضي الواقعة بين الشلال الاول والشلال الثاني على نهر النيل ، وأقام عند وادي حلفا بعض الحصون الدفاعية لحماية الحدود الجنوبية . كذلك لاحق القبائل السامية التي هاجمت مصر حتى جنوب سورية ووطد نفوذه في فلسطين . ثم التفت إلى تحسين الاوضاع الاقتصادية فاهتم بالزراعة والتجارة وقام بمشروع شق قناة مائية من ضفة نهر النيل الشرقية إلى خليج السويس لتصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عبر نهر النيل ...

وقد خلفه ابنه امنمحات الثالث الذي حكم مصر حوالي خمسين عاماً واهتم بمشاريع الري فأمر باقامة سد كبير في منطقة الفيوم ساعد على ضبط مياه الفياضانات وزيادة المساحات الصالحة للزراعة .

ومن الأعمال العمرانية التي قام بها تشييد قصر عظيم قرب سد الفيوم جعله مقراً للحكومة ومعبدأ (يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة ، وفيه إثنا عشر جناحاً) . وقد أطلق المؤرخون اليونانيون الذين زاروا مصر مثل هيرودوت وديودور الصقلي وسترابون على ذلك القصر اسم قصر اللايبرنت أي قصر التيه حيث يتوه الزائر بين أروقته .

واهتم هذا الفرعون باستغلال مناجم ومحاجر شبه جزيرة سيناء . كما اهتم أيضاً بأمور التجارة فوضع وحدة نقدية من النحاس للاستعمال في تسديد أثمان المبيعات والمشتريات .

وهكذا ازدهرت البلاد في عهده حتى قيل فيه أنه كما القطرين

حالة خضراء . غير أن أمراء الأقاليم انتهزوا فرصة ضعفه وشيخوخته في أواخر حكمه الطويل ، وتمكنوا من استعادة نفوذهم خاصة بعد موته فضعفت الملكية والسلطة المركزية وأدى هذا الضعف إلى زول حكم الأميرة الثانية عشرة .

وتجدر الملاحظة إلى أن فراعنة الدولة الوسطى لم يبذروا كثيراً من موارد الدولة ، كفراعنة الدولة القديمة ، على بناء الأهرامات . إذ أن ما بقي من إهراماتهم إلى يومنا هذا فقد شكله الهندسي لأنها كانت قد بنيت من الطوب وليس من الحجر المتين .

٤ - الصراع الداخلي والثورات الشعبية :

كان عهد حكم الأمرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العهود المظلمة في مصر . فقد نشبت المنازعات الداخلية بين أمراء الأقاليم من جهة وبينهم وبين السلطة المركزية من جهة أخرى . كما كثرت المؤامرات والفساس والحروب الأهلية فاضطرب النظام وأختل الأمن . كذلك توقفت مشاريع الري فتدهورت الزراعة وضعف الانتاج وعم الفقر . كما راح يتقلب على العرش ملك تلو الآخر حتى لانكاد نعلم عنهم إلا أسماءهم .

وقد نشبت ثورة شعبية هزت البلاد . ويتحدث عنها نص أدبي تحت عنوان « نصائح إيبو صير » . وإيبو صير هو أمير مصري يظهر في كلامه التحيز ضد الجماهير الشعبية (النص مكتوب على ملف من ورق البردي ، ومحفوظ حالياً في هولندا ، ويعود إلى عهد الأميرة التاسعة عشرة من الدولة الحديثة ، ولكنه منقول عن أصل سابق مفقود) .

يتحدث الأمير إيبو صير قائلاً : « إن العبيد والفقراء قد ثاروا ضد

الأمراء والأغنياء ، وراحوا يقتلون أولادهم أو يفجئون رؤوسهم بالحجارة . ويتابع قائلاً : إن الذين لم يملكوا في السابق الثيران للفلاحة ، أو بيوتاً للسكن ، أو قارباً للنقل ، قد أصبحوا الآن يملكون قطعاً وقصوراً واسطولاً . ومن كان يملك هذه الممتلكات في السابق أخذ الآن ينظر إليها فقط من بعيد . ومن كان يرتدي الثياب الفاخرة أصبح يتجول بثياب رثة . والفتاة التي كانت سابقاً تنظر في الماء كي ترى شكلها أصبحت تملك مرآة الآن . وقد أصبح الذهب والفضة واللازورد والعقيق يزين رقاب النساء من العبيد ، بينما النساء الأميرات يتضورن جوعاً . كذلك نهبت صالة المحكمة ووثائقها ، وتبعثر الجهاز الإداري ، ومزقت قوائم الضرائب ، وقتل الموظفون ، وخطفت أوراقهم ، وهوجم القصر الملكي .

ولكن الأخبار الواردة في هذا النص الأدبي ليست منظمة ، ولا تشير إلى مكان وزمان تلك الثورة الشعبية ، ولا إلى أهم الفرعون الذي وقع في أيدي المتمردين . غير أن هذا النص يترك انطباعاً أن الدولة تعرضت لهزة اجتماعية عميقة . ولكن الثورة الشعبية كانت عفوية ، وغير منظمة ، وبالتالي لم تستطع أن تحقق انقلاباً اجتماعياً .

هـ - احتلال الهيكسوس مصر :

ساعدت حالة الفوضى في البلاد على نجاح هجوم الهيكسوس واحتلالهم مصر حوالي سنة ١٧٠٠ ق . م . كما ساعد على انتصارهم أيضاً تفوقهم في التكنولوجيا الحربي حيث استخدموا العربات المسلحة التي تجرها الخيول والتي لم تكن معروفة بعد في وادي النيل .

وقد جاء الهكسوس « ملك الرعاة أو البدو ، أو الأجانب ، من سورية وفلسطين وتشكلوا من قبائل مختلفة منها السامية والحثية والكاشية . وكانوا بالطبع أقل عدداً من المصريين لذلك تأثروا بلغتهم وحضارتهم . واتخذ ملك الهكسوس القاب الفراعنة المصريين وأسماء مصرية . ومن ناحية أخرى فقد تأثر المصريون بالمختلين الآسيويين وأخذوا عنهم ، خاصة ، العربات الحربية .

استقر الهكسوس بصورة رئيسية في القسم الشرقي من دلتا النيل ، وأسسوا عاصمة لهم في مدينة أفاريس حيث يستطيعون من هناك مراقبة أملاكهم الآسيوية ومصر في آن واحد . وقد امتد نفوذهم من مصر إلى سورية وبلاد النهرين وحتى بحر إيجه . ومن أشهر ملوكهم حيان وأبو فيس .



الدولة الحديثة

١ - طرد الهيكسوس :

استمر احتلال الهيكسوس لمصر أكثر من مئة عام ، وفرض ملوك الرعاة سيطرتهم على معظم البلاد ، وأجبروا جميع الأمراء المصريين على دفع الجزية لهم . وقد حكمت منهم في مصر ثلاثان هما : الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة . لكن العاصمة الجنوبية طيبة حافظت على شيء من الاستقلال ، وظل أمراؤها يلقبون أنفسهم بالفراعنة ، رغم أنهم كانوا يدفعون الجزية للهيكسوس ، ويعترفون بالسلطة العليا لهم ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليهم . ولما بدأت عوامل الضعف تدب في الجهاز الحكومي الذي أقامه الهيكسوس قامت في مصر ، في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حرب تحريرية ضد الهيكسوس قاد النضال فيها ملوك طيبة ، الذين استغلوا استياء جماهير الشعب من سطوة الحكم الاجنبي ، فأشعلوا حرباً دامية استمرت حوالي نصف قرن . وقد قاد تلك الحرب في أول الأمر الملك سقنزع مؤسس الأسرة السابعة عشرة في طيبة ، لكنه سقط قتيلاً في إحدى المعارك مع الهيكسوس ، وعثر المنقبون على موميائه وفي رأسه خمس طعنات . بعد موته تجددت الحرب بقيادة ابنه كاموس ، فحاول الهيكسوس تأليب أمراء النوبة ضده لابقاعه بين نارين . ولكن كاموس تابع القتال وحقق بعض

الانتصارات ، كما حرر بعض اجزاء مصر الوسطى . وقد توفي قبل أن يستطيع تحقيق هدفه في تحرير مصر بأجمعها ؛ فاستلم الحكم بعده أخوه أمحس (١٥٨٤ - ١٥٥٩ ق . م) ، الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة ، واستطاع بمساعدة الجيش واسطول نهري أن يدحر الهيكسوس نحو الشمال . ثم احتل عاصمتهم أفاريس ، فوقع قسم من سكانها في الأمر وأخذوا كعبيد . كما لاحق الفلول الهاربة حتى فلسطين وحاصروهم في شاروهين حتى انتصر عليهم .

لقد اكتسب المصريون في هروبهم الطويلة مع الهيكسوس خبرة في الأمور العسكرية ، وأدركوا ضرورة تطوير الجيش والأسلحة الحربية ، وضرورة الاتحاد وإقامة حكم مركزي قوي يستطيع تنظيم القوى لحماية البلاد من خطر خارجي في المستقبل ، وكذلك ضرورة التوسع الخارجي لضمان أمن مصر وتأمين موارد اقتصادية جديدة لها .

٢ - نشوء الدولة الحديثة :

إن الدولة التي نشأت في مصر بعد طرد الهيكسوس منها يطلق عليها اصطلاحياً اسم الدولة الحديثة . وقد استمرت أكثر من خمسة قرون (من ١٥٨٤ إلى ١٠٧١ ق . م) حكمت البلاد فيها ثلاث سلالات هي : الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرون .

تميزت فترة الدولة الحديثة بتحويلات كبيرة في جميع المجالات الاقتصادية ، وترتبط هذه التحويلات بتطور علاقات مصر مع البلدان المجاورة والبعيدة في افريقيا وآسيا وأوروبا (كريت ومكيدونيا) .

٣ - التطورات الاقتصادية والاجتماعية :

في المجال الصناعي يحدث تطور في صناعة البرونز ، فيزداد الطلب على النحاس الذي أتوا به من قبرص وسيناء ، وعلى الرصاص والقصدير من آسيا الصغرى وحوض بحر إيجه . كما يستعمل الحديد ولكن بكميات قليلة ، وبصورة رئيسية ، في أدوات الزينة للاغنياء . أما الفقراء فما زالوا يستعملون الأدوات الحجرية . ويحدث أيضاً تطور في صنع الأدوات المستخدمة في الصناعة والزراعة ...

أما في مجال الزراعة فتزداد المساحات المزروعة ، وتظهر أنواع جديدة من الزروع ، كشجرة التفاح مثلاً التي أخذت من آسيا ، كما تستورد أنواع جديدة من الاغنام ذات الاصواف الطويلة التي استخدمت في صناعة المنسجات ...

كذلك تتطور وسائل النقل ، فتظهر العربات التي تجرها الخيول . ويزداد التبادل التجاري الداخلي والخارجي . وأصبحت الفضة مقياساً رئيسياً للثمن ، وأتوا بها من آسيا كما أتوا بالذهب من بلاد النوبة ...

إن الأزدهار الاقتصادي أدى إلى نمو الملكيات الكبيرة وازدياد عدد العبيد من أسرى الحروب الخارجية . وقد استخدم قسم من العبيد كخادم وسعاة وحراس وجنود ، أما معظمهم فقد استخدم في المزارع والمصانع والمناجم وغيرها من الاعمال الشاقة . وقد أصبح الفراعنة والامراء والكهنة وقادة الجيش من كبار ملاكي العبيد . كما كانت هناك طبقة متوسطة يملك أفرادها عدداً قليلاً من العبيد . كذلك ساعدت الحروب الخارجية على توسع وتطور طبقة الامراء العسكريين . ومن

ناحية أخرى تسوء حالة الفلاحين الصغار ، فيضطروا للحصول على القطيع والبنار من خزينة الدولة . ويتحدث مصدر تاريخي عن إلقاء القبض على أحد الفلاحين ، وضربه بقضيب من قبل الموظف لأنه لم يستطيع تقديم الحبوب المفروضة عليه ، بينما يهرب جيرانه خوفاً من أن يجبروا على تقديم الضريبة المفروضة على ذلك الفلاح . وهكذا تزداد الفروق الطبقيّة في المجتمع المصري .

٤ - السياسة الخارجية في عهد الأسرة الثامنة عشرة :

ذكرنا أن مؤسس الأسرة الثامنة عشرة أحس الأول طرد الهكسوس من مصر ولاحقهم حتى فلسطين . ولكن ذلك كان بداية للتوسع الخارجي . وقد أرسل ابنه امنحوتب الأول ، من بعده ، حملة إلى سورية . أما خليفته تحوتس الأول فقد وصل بحملته إلى نهر الفرات وخذ انتصاره بلوحة تذكارية أقامها هناك . كما توسع جنوباً في بلاد النوبة أيضاً . ولكن بعد وفاته في سنة ١٥٢٥ ق . م تخمد إلى حين حركة التوسع الخارجي . فابنه تحوتس الثاني توفي بعد عدة أشهر من استلامه الحكم . فأصبحت زوجته (أخته من أبيه) حتشبسوت وصية على ابنه الصغير تحوتس الثالث ، وجمعت كل السلطات في يدها . وقد اعتمدت في حكمها على كهنة الإله آمون في طيبة ، الذين كانوا على خلاف مع الامراء العسكريين ، وفضلوا السياسة السلمية لأن الحروب الخارجية السابقة امتصت موارد البلاد ، وأثارت تدمير الشعب بشكل يهدد بالخطر الداخلي . بدلاً من الحملات الحربية جهزت حتشبسوت حملة تجارية بحرية إلى بلاد البونت (أرتيريا والصومال حالياً) جاءت بالذهب والبخور والمر والأبنوس والعاج والقرود . وبالإضافة إلى اهتمامها بالأمور التجارية ،

اهتمت أيضاً بالأعمال العمرانية فخلدت أعمالها على جدران معبد عظيم أمرت ببنائه في سفح تلال طيبة ويطلق عليه اسم الدير البحري . كما أطلقت على نفسها لقب الفرعون (وهذا لم يكن مألوفاً بالنسبة للنساء في مصر) ، وأمرت بوضع تماثيل لها على هيئة رجل بلحية اصطناعية . ولكن عدم اهتمام حتشبسوت بالشؤون الحربية أدى إلى تدهور الوضع العسكري في سورية ، واستغل الامراء السوريون هذا الوضع فأعلنوا قردم ضد السيطرة المصرية .

بعد وفاة حتشبسوت سنة ١٥٠٣ ق . م استقل في الحكم تحوتمس الثالث (ابن زوجها الذي كانت وصية عليه) ، ووجه اهتمامه إلى السياسة الخارجية والفتوحات ، فاتجه على رأس جيشه لإعادة سورية تحت النفوذ المصري . وقد تحالف أمراء سورية وفلسطين لصد الهجوم ، والتقى الطرفان عند مدينة مجدو (قرب بحيرة طبرية) ، فانتصر المصريون وانسحب السوريون إلى خلف جدران حصن مجدو ، لكن الجيش المصري تمكن من أخذ الحصن بعد حصار دام نصف سنة .

ثم جدد تحوتمس الثالث حملاته على سورية حتى أخضعها إلى سلطته . وبعد أن فتح أهم مدنها قادش (قرب بحيرة حمص) تابع فتوحه حتى وصل إلى نهر الفرات وهزم جيوش الميتانيين عند مدينة كركميش (جربلس الحالية) ، وخذل انتصاره على لوحة تذكارية أقامها على شاطئ الفرات .

إن انتصارات تحوتمس الثالث في آسيا تدل على تقدم التنظيم العسكري والتكنيك الحربي عند المصريين . كما ساعد على تلك الانتصارات التفتت السيامي في آسيا ، بينما كانت مصر دولة متحدة ذات حكم مركزي قوي في ذلك الحين .

ولم تقتصر فتوحات نخونمس الثالث على آسيا ، بل امتدت نحو جنوب مصر حيث أخضع المصريون معظم بلاد الكوشيين في النوبة .

إن درجة تبعية البلاد المفتوحة للسلطة المصرية كانت تختلف من مكان إلى آخر . ففي النوبة وضع الفرعون ولاة مصريين مع بعض القوات العسكرية . أما في سورية وفلسطين فقد ظل يحكم عشرات الأمراء المحليين ، ولكنهم أعلنوا تبعيتهم التامة للفرعون الذي أخذ بعض أبنائهم إلى مصر كرهائن حتى بضمن ولاءهم . وبالنسبة للبيثانيين والآشوريين والبابليين والحثيين ، فقد حافظوا على استقلالهم ، وأطلق ملوكهم على أنفسهم اخوة الفرعون . ولكن الفرعون كان يعتبر الهدايا التي يقدمونها له كجزية رغم أنهم ، في الواقع ، لم يكونوا خاضعين له عملياً .

ولم يكن الملوك الآسيويون على مساواة مع فراعنة مصر حيث أنهم كانوا يرسلون بناتهم كجوارح أو زوجات إلى الفراعنة ، بينما رفض الفراعنة بشدة تقديم بناتهم وأخواتهم إلى الملوك الأجانب . . .

بعد عصر الفتوحات السابقة جاءت فترة من الهدوء والسلام حيث توقفت الأعمال الحربية تقريباً خلال حكم امنحوتب الثالث (١٤٥٥ - ١٤٢٤ ق . م) ، ولكن نشطت العلاقات الدبلوماسية والتجارية وتدل على ذلك كثرة الرسائل المتبادلة بين الملوك الآسيويين والفرعون ، ومعظمها باللغة الأكادية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت لغة عالمية . . .

في نهاية حكم امنحوتب الثالث يضعف النفوذ المصري في آسيا . كما أخذ الصراع يدور بين الامراء السوريين أنفسهم غير آبهين لأوامر الفرعون ، وتحالف بعضهم مع ملك الحثيين الذي أخذ ينافس مصر على النفوذ في آسيا . . .

وفي عهد ابنه امنحوتب الرابع (١٤٢٤ - ١٤٠٠) تتوتر الأوضاع الداخلية في مصر فيقل اهتمام الفرعون بسورية ، ويضعف النفوذ المصري هناك وتنتقل السلطة والسيادة إلى أيدي الحثيين والحكام السوريين الموالين لهم .

٥ - الإصلاح الديني في عهد امنحوتب الرابع (اخناتون) :

كانت تسود في طيبة عبادة الإله آمون ، فكثرت معابده وأصبحت تملك الأراضي الواسعة والاموال الكثيرة التي يتصرف بها الكهنة والامراء المرتبطين بهم ، مما أدى إلى إزدياد نفوذهم ، وأخذوا يتدخلون في أمور الدولة الدنيوية ، وأصبحوا يشكلون خطراً على الحكم . لذلك صمم الفرعون أن يضعف نفوذهم بتجريدهم من القاعدة الاقتصادية التي يعتمدون عليها واعتمد في صراعه معهم على الطبقة الوسطى من الموظفين . لكن ذلك الصراع المادي والسياسي اكتسب طابعاً دينياً تمثل باجراء اصلاح ديني حيث أمر امنحوتب الرابع بإبطال عبادة آمون ومصادرة الاملاك التابعة لمعابده في طيبة وملاحقة كهنته فحضر هؤلاء ثروتهم وبالتالي سيطرتهم . كما أوجد عقيدة جديدة تتمثل بعبادة آتون - إله الشمس ، وأنشأ عاصمة جديدة في مصر الوسطى هي مدينة أخيناتون (في تل العمارنة حالياً) ومعناها « أفق آتون » . وقد أطلق عليها المصريون اسم « بيت الحياة » ، ونقلت إليها دواوين الحكومة من طيبة . صوروا الإله الجديد (آتون) على شكل قرص الشمس تخرج منه أشعة ينتهي كل منها بشبه كف إنسان يوزع النور والحرارة والخير على البشر ، وأصبح الفرعون نفسه الكاهن الأعلى للإله الجديد ، ونظم في مدحه أناشيد شعرية تتحدث عن معاناة البشر في الليل عندما ينحدر إله الشمس

وراء الافق . ولكن عندما تشرق الشمس في افق السماء وتضيء الكون .
بأجمعه يفرح بشروقها البشر والحيوانات .

إن عبادة المنحوتب الرابع لآتون وحده ، رغم أنه لم يلاحق جميع
العبادات في مصر ، تعتبر أول خطوة عملية نحو الوجدانية ، أي عبادة
الإله الواحد . ولكن لم تكن الظروف في مصر مواتية لهذا الانقلاب
الجدري ، فلم يلاق الإصلاح الديني صدى كبيراً في البلاد . ولم يستطيع
الفرعون تحطيم قوة الامراء والكهنة المعتمدين على استغلال التقاليد
القديمة المتأصلة على مدى القرون ، رغم أنه ناضل بثبات من أجل تحقيق
هدفه . وبعد موت الفرعون المنحوتب الرابع ، الذي لقب نفسه
اخناتون أي « الذي يعجب آتون » ، أخذ أقرباؤه وأصدقائه يبحثون
عن حل وسط مع كهنة آمون المحافظين وعندما استلم الحكم توت عنخ
آمون إضطر إلى إعادة الامور الدينية على ما كانت عليه سابقاً ، وأعاد
إلى معابد آمون في طيبة ممتلكاتها وامتيازاتها ، وترك عبادة آتون ، وغادر
مدينة أخيتاتون وعاد إلى طيبة . ولكنه توفي في التاسعة عشرة من
عمره فدفنه الكهنة في وادي الملوك وملاؤوا قبره بالكنوز الثمينة
التي تعتبر فريدة من نوعها في العالم (اكتشفت عام ١٩٢٢ ونقلت إلى
المتحف المصري) ، وذلك اعترافاً منهم بفضله في رد الإعتبار لهم وإلهمهم
آمون .

بعد موت توت عنخ آمون حاولت أرملة أنخسن آمون (إبنة
اخناتون) أن تحافظ على نفوذها ، وذلك عن طريق زواجها بأمير من
الحثيين لئلا تنه الصراع بين المصريين والحثيين على النفوذ في آسيا . ولكن
الامراء المصريين لم يرغبوا في أن يروا على عرش بلادهم ملكاً أجنبياً

فدبروا قتل العريس الحثي ، الذي قدم الى مصر ، قبل أن يتم أي شيء .
بما أدى الى اشعال نار الحرب بين مصر والحثيين . . .

وآخر فراغة الاسرة الثامنة عشرة كانت حاد محب الذي عمل على
إزالة بقايا عبادة آتون في مصر ، وأعاد إلى إله طيبة آمون سلطته ومجده .
كما اهتم أيضاً باصلاح الجهاز الإداري وإعادة الامن والنظام في البلاد .

٦ - مصر في عهد الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين :

في عهد اخناتون وخلفائه من الفراغة خرجت معظم المناطق في
سورية وفلسطين من تحت النفوذ المصري وأصبحت تحت نفوذ الحثيين .
ولما استلمت الحكم في مصر (حوالي ١٣٤٠ ق . م) الاسرة التاسعة عشرة
وطدت دعائم سلطتها في داخل البلاد ، ثم وجهت اهتمامها لإعادة السيطرة
المصرية على المناطق الآسيوية . وقد قام بهذه المهمة ملكان من أشهر فراغة
الاسرة التاسعة عشرة هما سيتي الاول وابنه رمسيس الثاني (١٣١٧ -
١٢٥١ ق . م) الذين خاضا من أجل ذلك حروباً طاحنة مع الحثيين .

ومن أشهر تلك الحملات الحربية هي الحملة التي قام بها رمسيس الثاني
عام ١٣١٢ ق . م . حيث جمع قوات مصرية كبيرة وبعض الجنود المرتقة
من نوبيين وفينيقيين ، وقسم جيشه إلى أربع فرق أطلق على كل واحدة
منها اسم أحد آلهة مصر (آمون ، رع ، بتاح ، ست) . وقد عبر
الجيش المصري سورية الجنوبية متجهاً نحو الشمال يتقدمه الملك رمسيس
الثاني على رأسه فرقة الإله آمون المؤلفة من ٥٠٠٠ محارب تقريباً ، بينما
عسكر ملك الحثيين متيلا بيجوشه (١٧ ألف محارب و ٣٥٠٠ مركبة
حربية تقريباً) عند مدينة قادش (قرية النبي مند حالياً وتقع قرب بحيرة
قطينة غربي مدينة حمص) . ولما اقتربت فرقة آمون منفردة من
مدينة قادش فاجأتها القوات الحثية وألحقت بها خسائراً فادحة . ولكن

الفرعون رمسيس صمد مع حرسه في المعركة حتى وصلت بقية قواته ، فتحول من الدفاع إلى الهجوم وتراجع الحثيون إلى ما وراء نهر العاصي . وعلى ما يبدو كانت قوات الطرفين متعادلة تقريبا حيث تراجع الجيش المصري أيضاً دون أن تستولي على مدينة قادش المحصنة أو تحاول حصارها وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين ودامت مدة طويلة . وأخيراً تم في عام ١٢٩٦ ق . م عقد معاهدة صلح وصداقة بين رمسيس الثاني وحاتوشيل الثالث ملك الحثيين الجديد (وصلتنا منها نسختان أحدهما باللغة المصرية والثانية باللغة الأكادية) . وتنص المعاهدة على تعهد الطرفين بعدم اعتداء أحدهما على الآخر في المستقبل ، وبالدفاع المشترك ضد الاعتداء الخارجي أو التمرد الداخلي ، وتسليم اللاجئين السياسيين . وتشهد آلهة المصريين والحثيين على توقيع المعاهدة وعلى تطبيق نصوصها . ولم تتعرض نصوص المعاهدة إلى ذكر حدود كل من المملكتين ، لكننا نعلم من مصادر أخرى أن فلسطين وجنوب سورية والقسم الأكبر من الساحل الفينيقي ظلوا تابعين لمصر ، بينما شمال سورية أصبح تحت سيادة الحثيين . ولتمتين أواصر الصداقة تزوج رمسيس الثاني من إبنة حاتوشيل الذي حضر بنفسه مراسم الزواج في مصر . ونقشت أخبار هذه الزيارة على مدخل معبد أمر بينائه رمسيس الثاني (في أبي سنبل التابعة لمديرية أسوان حالياً) . وقد اهتم هذا الفرعون بالعمران فأمر ببناء عدة معابد نقشت على جدران بعضها أخبار حروبه مع الحثيين .

في أواخر عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وفي عهد الأسرة العشرين (أشهر ملوكها رمسيس الثالث) تعرضت مصر للغزو الخارجي وترتب عليها أن تخوض حروباً دفاعية . فبعد موت رمسيس الثاني أخذ

اليونانيين ينحدرون من الصحراء الغربية إلى وادي النيل ويهاجمون مدينة
مقيس . كذلك أخذت شعوب البحر (شعوب هندية - أوربية من
بينها الآخيون اليونانيون) تهاجم على سفنها السواحل المصرية . ورغم أن
خلفاء رمسيس الثاني استطاعوا صد الغارات الخارجية بنجاح ، فإن قوة
مصر الخارجية أخذت تضعف تدريجياً ، حتى أن حكام الساحل الفينيقي
رفضوا تقديم خشب الأرز دون مقابل إلى بعثة مصرية جاءت لهذا الغرض
من قبل الفرعون ...

كذلك أخذت الأوضاع الداخلية بالاضطراب ، فتجزأت مصر إلى
ولايات وأعلن حكامها الانفصال عن العاصمة طيبة . وقد أدى هذا
الانقسام والاضطراب إلى سيطرة أمير من أصل سوري اسمه إيسوسو على
العرش ، معتمداً على العبيد والجنود المرتزقة من أصل آسيوي ، وقام
بصادرة ونهب أملاك المعابد ، فتضافرت الجهود للإطاحة به ، واستلم
العرش ست نخت مؤسس الأسرة العشرين . كما ساءت أيضاً الأوضاع
الاقتصادية فقام العمال في وادي الملوك بعدة إضرابات يطالبون بالغذاء
لعائلاتهم المتضرة جوعاً . ولكن من ناحية أخرى ازدادت ثروة الكهنة
وخاصة كهنة معابد آمون ، وتكدست في مخازنهم خيرات البلاد ، بينما
أخذ الفقراء يموتون من الجوع ، وأصبحت المعابد تملك تقريباً ١٥ ٪ من
الأراضي الزراعية الحصة المعفية من الضرائب . هذه الثروة المادية أدت
إلى نمو سلطة الكهنة وازدياد نفوذهم ودورهم في توجيه سياسة البلاد .

٧ - سيطرة الكهنة على الحكم :

لقد ازداد نفوذ الكهنة إلى درجة كبيرة . حتى أن حيريجور
رئيس كهنة معابد آمون في طيبة استطاع أن يقبض على زمام السلطة

الديوية بالإضافة إلى سلطته الدينية . وتلقب بالقاب الفراعنة وأسس.
سلالة حاكمة هي الأسرة الحادية والعشرون . ولكنه لم يستطع بسط
سلطته على جميع البلاد حيث ظل يحكم في الدلتا أمير يدعى سمنديس
جعل مركزه في مدينة ناليس . وفيما بعد اتحدت الامرتان
حيث تزوج أحد أحفاد حير يحور من إحدى حفيدات سمنديس .
وأعلن نفسه ملكاً على البلاد ، بينما ترك لبعض أفراد أسرته وظيفة رئيس
كهنة آمون . ولم تستطع هذه الأسرة انفاذ البلاد من الأوضاع السيئة
بل ازدادت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في التدهور .

٨ - سيطرة الليبيين على الحكم :

وأينا سابقاً كيف أن الليبيين قاموا بعدة غارات حربية على مصر
ولكنها لاقت الصد والفشل . غير أن الكثيرين من الليبيين أخذوا يهاجرون
إلى مصر بصورة سامة ويعملون هناك بالتجارة أو الزراعة ثم استقروا
في وسط البلاد وشمالها وتمصروا . وفيما بعد أخذ أحفادهم يتطوعون في
الجيش المصري كجنود مرتزقة حتى كثرت عددهم وازداد نفوذهم ،
وتوصلوا إلى المناصب العالية ، فنافسوا العسكريين المصريين ودفعوا
هم إلى المرتبة الثانية ، وشكلوا طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة
الكهنة ونفوذهم .

وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد استطاع أحد القادة العسكريين
من أصل ليبي ويدعى شيشونق أن يستولي على السلطة العليا في مصر ،
ويؤسس سلالة حاكمة هي الأسرة الثانية والعشرون ، واتخذ مركزاً
لحكمه مدينة ناليس في الدلتا . ولكن كهنة آمون في طيبة قاوموه .
لمحاولة الحد من نفوذهم فضغط عليهم حتى اضطروا بعضهم للفرار إلى
الصحراء الغربية أو بلاد النوبة .

وقد عمل شيشونق على إعادة النفوذ المصري في فلسطين حيث تلاثى تقريباً في عهد الامرة الحادية والعشرين . فاستغل النزاع القائم بين المملكتين اليهوديتين ودعم يربعام في ثورته ضد سليمان وابنه رجبعام . ثم قام بجملة إلى فلسطين هاجم فيها أورشليم وعاد بالغنائم من كنوز الملك سليمان (انظر التوراة ، سفر الملوك الأول) .

في عهد خلفاء شيشونق وعهد الامرئين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين ، اللتين من أصل لبيي أيضاً ، تضعف السلطة المركزية وتتفتت وحدة البلاد السياسية . فيستقل كل حاكم باقليمه ، وبدور الصراع بين حكام الأقاليم على السلطة والسيطرة ، فتعم الفوضى والاضطراب ، ويزداد الظلم والاستغلال من قبل الكهنة وطبقة العسكريين والموظفين ، ويضعف نفوذ مصر خارج البلاد . وقد أدى توقف الفتوحات الخارجية إلى نقص في عدد العبيد من أمرى الحروب ، لذلك بظهر اتجاه لاستعباد سكان البلاد الاصليين وأصبح الكثيرون من المدنيين الفقراء الذين لا يستطيعون تأدية ديونهم يتحولون إلى عبيد . وقد حاول الفرعون بوكوديس (من الأسرة الرابعة والعشرين) وضع حدٍ لذلك (على غرار حمورابي) ، فأصدر أمراً يمنع استعباد المدنيين ، بل يُكتفى بمصادرة أملاكهم فقط . ولكن لم يكتب لهذا الاصلاح النجاح حيث اقتصر حكم بوكوديس على مصر السفلى ولمدة قصيرة فقط . ولم تستطع القوانين التي أصدرها على إيقاف عملية استعباد الجماهير الكادحة .

٩ - غزو النوبيين مصر :

عندما سيطر شيشونق على الحكم في مصر اضطر بعض معارضيه إلى مغادرتها والتوجه إلى بلاد النوبة (كوش) حاملين معهم كنوزاً وأموالاً كثيرة . وقد أقام المهاجرون د معظمهم من كهنة آمون

والحكام المواليين لهم ، في مدينة فابانا ، ثم استطاعوا تأسيس امرة مالكة حكمت بلاد النوبة . وظلوا يدعون أنهم أصحاب الحق في عرش مصر ويقدمون آمون ومعابده في طيبة ، وأخذوا يتحينون الفرص لفرض سيطرتهم على مصر . فلما اشتد الصراع بين حكام الأقاليم المصرية قام ملك النوبة ببعنخي سنة ٧٤٠ ق م بجملة على مصر وأخضع لسلطته الحكام المتنافسين . وفي سنة ٧٢٠ ق م قام ابنه وخليفته شاباكو بجملة أخرى وفرض سيطرته التامة على مصر ، وأسس فيها سلالة نوبية حاكمة هي الأسرة الخامسة والعشرون . هؤلاء النوبيون لم يتميزوا كثيراً بتقاليدهم وديانتهم عن المصريين ، حتى أن لغتهم الرسمية في النوبة كانت اللغة المصرية . كما أنهم لم يعتبروا أنفسهم في مصر حكماً غرباء . ولكن المؤيدين لهم في طيبة كانوا أكثر من المؤيدين في مناطق الشمال .

١٠ - غزو الآشوريين مصر :

أخذ الآشوريون في بسط سلطتهم على سورية وفلسطين ، فراح ملوك مصر يعملون على تأليب الحكام السوريين ضد الآشوريين ، ويقدمون لهم المؤازرة والدعم للحفاظ على نفوذهم هناك من جهة ، ولإبعاد الخطر الآشوري عن مصر من جهة أخرى . لذلك قام الآشوريون في النصف الأول من القرن السابع بثلاث حملات على مصر (سنة ٦٧١ ، ٦٦٧ ، ٦٦٣) بقيادة آشور أخي الدين ثم آشور باني بعل فخضع حكام الأقاليم المصرية إلى سلطة الآشوريين وأُجبروا على دفع الجزية لهم . ولكن وافق ذلك مقاومة مستمرة من قبل الملوك النوبيين وبعض الحكام المصريين المواليين لهم ضد الاحتلال الآشوري . وقد أدى هذا الصراع إلى زعزعة قوة الطرفين ، فاستغل ذلك حاكم مدينة سايس واستطاع تحرير البلاد من الختلين الآشوريين والنوبيين معاً .

١١ - عصر النهضة المؤقتة أو العصر الصاوي :

كان بسامتيك حاكماً على مدينة صايس (صا الحجر) في ظل السيادة الآشورية على مصر . ولما بدأ الضعف يدب في جسم الامبراطورية الآشورية وانشغل الآشوريون باخماد الثورات المتعددة ، أخذ بسامتيك يعمل على تحرير مصر من سيطرتهم ، واستطاع طرد الحاميات الآشورية وملاحقتها حتى فلسطين . ثم فرض سلطته على مصر السفلى . وفيما بعد طرد النوبيين من طيبة وقضى على السلالة الحاكمة فيها ، ووحد مصر في دولة واحدة ، كما أسس سلالة حاكمة هي الاسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ - ٥٢٥ ق. م) .

اعتمد بسامتيك في نضاله لتوحيد البلاد ، وفي صراعه مع الآشوريين ، على الجنود الأجانب ، إذ تذكر المصادر أنه عقد تحالفاً مع مملكة ليديا الواقعة على الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى ، فأمدته ملك الليديين اليوناني بالجنود المرتقة من اليونانيين المدربين . وقد حاول ابن بسامتيك وخليفته نيخاو الثاني إعادة النفوذ المصري في غربي آسيا ، فتقدم بجيشه إلى فلسطين وأخضع المملكة اليهودية هناك إلى السيادة المصرية ، وتعهدت بدفع غرامة حربية وجزية سنوية إلى مصر . ثم تقدم نحو القرات للتدخل في الصراع الناشب بين الآشوريين من جهة والكلدانيين المتحالفين مع الميديين الفرس من جهة أخرى . وقد أراد دعم الآشوريين أعداء مصر التقليديين ، وذلك خوفاً من انتصار الكلدانيين وتعاضم قوتهم بما يهدد مصر نفسها في المستقبل ، بالإضافة إلى منافسة نفوذها في سورية وفلسطين . لذلك أراد نيخاو المحافظة على نوع من التوازن بين القوى المتنازعة في بلاد النهرين .

لكن نيخاو تأخر عن الوقت المناسب لتجدة الآشوريين حيث

احتل الكلدانيون فينوى عاصمة الآشوريين ، وانهبوا لاحتلال سورية فالتقوا بالجيش المصري عند مدينة كركميش سنة ٦٠٥ ق م ، وجرت معركة حاسمة بين الطرفين اندحر فيها جيش نيبخاو الثاني الذي أمرع في الإنسحاب إلى مصر خوفاً من توجه الكلدانيين اليه قبله . أما الكلدانيون فقد فرضوا سيطرتهم على سورية وفلسطين .

بعد موت نيبخاو استلم الحكم في مصر ابنه بسامتيك الثاني ، ولم يتروك أثراً هامة تذكر . ثم استلم الحكم بعده ابنه ابريس الذي حاول استعادة نفوذ مصر على فلسطين وسورية وقد كانتا تحت سيطرة الكلدانيين . فأرسل اسطولا أخضع مدن الساحل السوري ، وشجع الملك اليهودي صدقياً على الثورة ضد ملك بابل الكلداني . فأمرع لبوخذ نصر إلى سورية ، واستعاد مدن الساحل السوري ، ودمر أورشليم ، وأخذ آلاف الامرى من اليهود إلى بابل (انظر التوراة سفر التكوين الثاني وسفر ارميا) كما هرب الكثيرون من اليهود إلى مصر وأقاموا فيها .

بعد موت ابريس استلم الحكم قوبيه أمازيس (أو احمس الثاني) وحكم مدة طويلة من سنة ٥٦٩ إلى سنة ٥٢٥ ق.م . وقد أرسل حملة من الجنود المرتقة اليونانيين إلى فلسطين فصدتها الحاميات الكلدانية هناك . ولكن الكلدانيين لم يهاجموا مصر حيث كانوا منشغلين بالخطر الفارسي الذي أخذ يلوغ من الشرق . كما تحالف أمازيس مع اليديين واليونانيين المقيمين في ليبيا لصد الأخطار المحتملة على مصر . كذلك أرسل اسطولا في البحر المتوسط احتل قبرص ، وتم عقد تحالف مع جزيرة ساموس .

بعد موت أمازيس لم يحكم خلفته بسامتيك الثالث سوى بضعة أشهر حيث كان الفرس قد قضا على الدولة الكلدانية في بابل ، وانهبوا

نحو مصر بقيادة قهبيز فاستولوا عليها سنة ٥٢٥ ق م وانتهى حكم الامرة السادسة والعشرين .

لقد امتاز عهد الامرة السادسة والعشرين ، أو ما يسمى بالعهد الصاوي (نسبة إلى العاصمة سايس أو صا الحجر) بازدهار اقتصادي ، واستقرار سيامي توطدت فيه السلطة المركزية ، وبنشاط خارجي سيامي وتجاري . كما ساد في مصر ، في هذه الفترة ، عصر الحديد الذي تم استيراد خاماته من البلاد الآسيوية لتصنع في مصر ، ونشطت العلاقات التجارية مع المدن الفينيقية واليونانية . كذلك كثرت الجاليات التجارية من اليونانيين الذين أسسوا مراكزاً تجارية في مصر خاصة في ميناء فوكراتيس غربي الدلتا . وقد اهتم ملوك هذه الامرة بإنشاء الاساطيل البحرية ، وأرسلوا اسطولاً دار حول افريقيا . وحاولوا إعادة شق القناة التي تصل البحر المتوسط بالأحمر عن طريق نهر النيل ، والتي كانت قد شقت في عهد الدولة الحديثة ثم ردمت بسبب قلة العناية بها . ولكنهم توقفوا عن اتمام المشروع حيث سادت فكرة أن البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا فيؤدي شق القناة إلى غمر الدلتا بالمياه . غير أنه قد تم تنفيذ هذا المشروع فيما بعد ، في عهد الاحتلال الفارسي لمصر .

وقد كثر في العهد الصاوي عدد الجنود المرتزقة من اليونانيين في الجيش المصري ، وخصّصوا بامتيازات كثيرة ، مما أدى لاستياء الجنود المصريين والليبيين ونشوب عدة اصطدامات بين الطرفين .

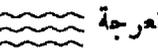
١٢ - عصر الاحتلال الفارسي في مصر :

بعد أن وطد قهبيز سيطرته على مصر عين عليها والياً فارسياً وقل عائداً إلى بلاده . وبعد وفاته استلم الحكم ابنه دارا ، وتبدلت سياسة الفرس في مصر من القسوة إلى اللين ، فألغيت مصادرة ايرادات المعابد ،

وتمّ العمل بموجب القوانين المصرية . ولكن مها يكن من أمر فيات
المصريين لم يستكينوا للاحتلال الفارسي . ولما وقعت الحرب بين الفرس
واليونانيين ، وانزمت الجيش الفارسي في معركة سهل المادراتون الشهيرة
سنة ٤٩٠ ق م ، اضطر الفرس لسحب بعض قواتهم من مصر ، فنشبت
الثورة فيها ضد الفرس سنة ٤٨٦ ق.م . ومات داريوس سنة ٤٨٥ قبل
أن يتمكن من القضاء عليها . ولكن ابنه كزوكسيس توجه إلى مصر
وقضى على الثورة فيها . وقد ساعده اليهود المقيمون هناك ضد المصريين .
ثم قامت ثورة أخرى في مصر سنة ٤٦٠ ق.م بقيادة أمير مصري يدعى
أمون - حو ، وساعده اليونانيون بأسطول أرسلته أثينا . واستطاع
أمون - حو طرد الفرس وتأسيس سلالة حاكمة هي الأسرة الثامنة
والعشرون . ثم استلمت الحكم بعدها الأسرة التاسعة والعشرون وأشهر
ملوكها نفريتس الذي كانت علاقته ودية مع اسبارطة اليونانية . ثم أسس
نخنبو الأسرة الثلاثين . وانشأ ابنه جد - حو جيشاً واسطولاً بمساعدة
الجنود المرتقة من اليونانيين ، واتجه لملاقاة الفرس في سورية . ولكن
ابنه وأخاه تأمرا عليه وعادا إلى مصر مع قسم كبير من الجيش ، فالتجأ
هو إلى الفرس الذين هاجموا مصر فيما بعد بقيادة ارتاكزوكسيس
فاحتلوها وقضوا على حكم نخنبو الثاني سنة ٣٤١ ق.م . ولكن
الثورات كانت تندلع هنا وهناك . ولما انتصر الاسكندر المكدوني على
الفرس في معركة ايسوس ، تقدم إلى مصر واستولى عليها ، وأظهر
احترامه لعادات البلاد وتقاليدها ، فاستقبله المصريون كمنقذ لهم من
حكم الفرس .

عند الاحتلال المكدوني تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ مصر تخرج عن
نطاق بحثنا هذا ...

ثقافة مصر القديمة

١ - الكتابة : نشأت الكتابة الهيروغليفية المصرية ، كبقية الكتابات القديمة ، من تطور الكتابة التصويرية . ففي أول الأمر كان الكاتب إذا أراد كتابة كلمة ما يرسم صورة تعبر عنها . وقد عبر الكتبة عن الماء مثلاً بثلاثة خطوط متعرجة  وعن الجبل برسم هضبتين بينهما منخفض  . ولكتابة عبارات تحتوي عدة معاني تجمع الرموز التصويرية المنفردة في رسمة تعبيرية مركبة ومعقدة . وكلما تعقدت اللغة تطلب الأمر تبسيط الكتابة . فمثلاً كتابة الأسماء والأشكال القواعدية لا يمكن التعبير عنها برسوم تصويرية . وهكذا فإن الصورة المعبرة عن كلمة أصبحت تدريجياً تعبر عن مقطع فقط في الكلمة . ومع الزمن تحولت الرموز التصويرية ، المعبرة عن كلمة أو مقطع ، إلى رموز أو حروف أبجدية . فالرمز التصويري الذي يشير إلى كلمة ماء والتي تلفظ شا تحول إلى حرف ش ، والرمز الذي يشير إلى كلمة هضبة والتي تلفظ كا تحول إلى حرف ك . وهكذا في عهد الدولة القديمة نشأت أبجدية تتألف من ٢٤ حرفاً . ولكن الكتبة لم يتركوا الكتابة التصويرية دفعة واحدة وإنما تم ذلك بصورة تدريجية .

كُتبت الهيروغليفية بخطوط أفقية تقرأ من اليمين إلى الشمال . وأحياناً كتبت على شكل مقاطع عمودية تقرأ من الأعلى إلى الأسفل . وكانت مواد الكتابة من الحجر والخشب والجلد والبوردي .

في عهد الدولة القديمة ، بسبب كثرة الوثائق الحكومية وجداول الدوائر ، ظهر ما يسمى بالخط السريع (باليونانية هيراتيكا) وهو نوع من الكتابة المختزلة . ثم تطورت تدريجياً فظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد كتابة اختزالية متطورة أطلق عليها اليونانيون (ديوتيكا) ، وهي تشبه طريقة الاختزال المعاصرة (ستينوغرافيا) .

إن تعقيد الكتابة الهيروغليفية وبطء تطورها يعرذات ، بدرجة معينة ، إلى كونها امتياز للكهنة الذين احتكروا المعرفة ولم يهتم انتشارها ، بل بالعكس أحاطوا الكتابة بهالة دينية سرية وادعوا أنها موهوبة لهم من إله الحكمة تحوت .

٢ - الآداب : نستطيع تقسيم الأدب المصري القديم إلى أربعة أقسام : الأدب الديني ، الأدب القصصي ، الأدب العاطفي أو الغنائي ، الأدب الفلسفي أو الحكم والنصائح .

٢ - الأدب الديني : تطورت الأساطير الدينية حسب تطور البيئة والمجتمع ، وكانت تعبر عن تطور مفهوم المصريين حول نشوء الكون وخلق العالم . ومن الأساطير التي حُفظت اسطورة حول الإله إيزيس والإله اوزيريس . وقد جاءت بشكل شبه تام في كتاب المؤرخ اليوناني بلوتارخ ، كما حفظت بعض فصولها مكتوبة على جدران الاهرامات . وموجز الاسطورة أن الإله سيت قتل أخاه أوزيريس واغتصب ملكه . ولكن الإله ايزيس زوجة اوزيريس تلد ابناً هو الإله حورس الذي قام بحرب ضد عمه سيت لاستعادة حقه في وراثته مقابليد السلطة عن أبيه . ثم ترفع قضية النزاع إلى محكمة رع حور ختي . وأخيراً ينتهي الأمر باعتراف الإله سيت أن حورس على حق ، فتوج ملكاً على مصر . وعم السرور في البلاد عندما رأوا حورس بن ايزيس قد أعيدت

إليه وظيفة والده اوزيريس ، وألبسته الآلهة التاج الأبيض على رأسه ،
وقالت له (أنت ملك مصر وجميع الأرض على مدى العصور) .
هذه الاسطورة تعكس المفهوم السائد أن السلطة الملكية بمنوحة من
قبل الإله وينحها وبمجها في مصر الاله حودس .

وهناك بعض التمثيلات المتعلقة بالأساطير الدينية ، منها تمثيلية
حودس وسيت التي كانت تمثل سنوياً في معبد أدفو . ويقوم الكهنة
بالادوار التمثيلية ، وأحياناً يمثل الملك نفسه دور حورس والملكة دور
ايزيس . وتتألف التمثيلية من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ؛ ويقسم كل
فصل إلى عدة مناظر .

ويضاف إلى الأدب الديني كثير من الأناشيد والتراويل الدينية التي
وضعت لتمجيد الآلهة . ونورد مقطعاً من النشيد الذي وضعه اخناتون
تمجيداً لإله الشمس آتون :

أنت تطلع بهاء في أفق السماء ، يا آتون الحي بامبدئ الحياة ،
عندما تبرز في الأفق الشرقي ، تغمر الأرض بجهاك .
أنت جميل ، عظيم منأليء في السموات العلى .
تسطع أشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .
أنت رع ، أسرتم وقيدتم مجبك .
أنت بعيد عن الارض ، لكنك على اتصال معها بأشعتك .
أنت عالٍ لكن آثارك واضحة في ضوء النهار ... الخ ...

وكانت الأناشيد الدينية تعكس تصور المصريين حول فضل الاله في
خلق العالم والحفاظة عليه بقوته الحية . ونذكر مثلاً على ذلك نشيداً
وضع في تمجيد الاله آمون « موجود على بردية محفوظة في المتحف

البريطاني نحت رقم ١٠٦٨٤ ، جاء فيه أن الإله خلق السماء والأرض
والماء والجبال ، وهو الذي يملأ قلب الناس بالسعادة .

ب - الأدب القصصي : لم تحفظ لنا المصادر أدباً قصصياً من عهد
الدولة القديمة رغم احتمال وجوده ، بينما يعتبر عهد الدولة الوسطى العصر
الذهبي للقصة في مصر القديمة ، وقد كُتبت فيه قصص رائعة ، كما كُتبت
قصص كثيرة في عهد الدولة الحديثة ، وحتى في عهود الضعف والاحتلال .
في عهد الدولة الوسطى ، كما ذكرنا سابقاً ، تطورت علاقات مصر
الخارجية السياسية والتجارية ، فظهر نوع من الأدب القصصي يصف
رحلات المصريين إلى خارج حدود مصر . ونذكر من هذه القصص قصة
الملاح الذي تعرض لعاصفة بحرية (موجودة على بردية محفوظة في متحف
الأرميتاج في لينيغراد نحت رقم ١١١٥) . وتحتوي القصة على عناصر
خيالية قديمة . ويتحدث بطلها وهو من الطبقة الوسطى (نجس) عن
رحلة بحرية قام بها إلى مناجم الملك فيتعرض لعاصفة شديدة تقذف
بسفينته إلى جزيرة الروح السرية ، ويجد هناك طبيعة جميلة وخيرات
وافرة . ولكن حاكم الجزيرة الطيب ، الذي كان على شكل حية
كبيرة ، يهديه روع الملاح التائه ، ويقدم له الهدايا من خيرات بلاد
البونت كالعطور والعاج وغير ذلك ، ثم يطلقه إلى بلاده .

أما (قصة سنوهي) فتتحدث عن أمير يهرب إلى سوريا حتى لا يتم
بؤامرة حيكت ضد الملك ، فيتعرض في طريقه للعطش والعذاب .
ومن كلباله (دايمي العطش ، فبحف حلقي ، فقلت إن هذا طعم الموت)
ثم يصل الأمير إلى سورية ويصف حياته فيها .

في القرن الحادي عشر ق.م . تفقد مصر نفوذها في آسيا الغربية ،
فتنعكس هذه الحقيقة في قصة أحد كهنة معابد آمون في طيبة واسمه

اون آمون ، الذي ارسل إلى سورية لشراء الأخشاب ، فتعرض هناك
للسجن والعذاب . وتتصف القصة بأسلوب واقعي ذي طابع
فني رفيع .

وهناك قصص أخرى عديدة كقصة الراعي ، وقصة الأمير المسحور ،
وقصة الآخرين ... وغيرها .

ج - الأدب العاطفي أو الغنائي : ويحتوي على كثير من الأناشيد
الدينية ، والاجتماعية ، وأناشيد النصر التي تمدح انتصار الملوك ، وعلى
الاغاني العاطفية ، والأناشيد ذات المعنى الإقتصادي وغير ذلك ، ومن هذه
الأناشيد نشيد النيل الذي كان ينشد أثناء الاحتفالات بالفيضان . وقد
جاء فيه : الحمد لك يا نيل ، يا من تخرج من الأرض وتأتي لتغذي مصر ،
وعندما تفيض يعم الفرع في البلاد . أنت تطفح فتسقي الحقول وتمد الناس
بالقوة . الخ ...

ومن أغاني النصر نشيد يعود إلى زمن الاسرة السادسة وقد جاء فيه :
« عاد هذا الجيش بسلام بعد أن محق أرض الساكنين على الرمل ، بعد
أن هدم حصونهم ، بعد أن قطع ثيهم وكرومهم ، بعد أن أشعل النار
في كل جيوشهم ، بعد أن ذبح عشرات الآلاف من الجند ، بعد أن
قبض على الكثير من الأمري الأحياء ، . وهناك قصيدة حول معركة
قادش يصف فيها شاعر القصر انتصار رمسيس الثاني على الحثيين قرب
مدينة قادش . وقصيدة مقدمة إلى الفرعون سنوسرت الثالث ، وغيرها
من القصائد الكثيرة .

وانتشرت أغاني عاطفية كثيرة نذكر منها أغنية الحب التالية :

يا حبيتي تعالي إلي في الحديقة .

ان حبيتي مثل كل زهرة تنفح عطرها .

فارعة العود بمشوقة القوام كمنخلةٍ بشبابها .
وفي كل خد من خديها وردة حمراء .

وهناك بعض الأناشيد ذات المضمون الاجتماعي ، وتخطب الفلاحين
والرعاة والحمالين وغيرهم من طبقة الكادحين ويغلب عليها طابع التكرار
والنغم الواحد . ونذكر منها أغنية الطحّان :

اطحن لنفسك ، اطحن لنفسك .

واخبز ، واطحن لنفسك .

اطحن الحبوب لنفسك لتأكل .

اطحن الحبوب لأسيادك .

ولا تخذ إلى الراحة .

فاليومُ يومٌ باردٌ .

د - الأدب الفلسفي أو الحكم والنصائح :

رغم سيطرة الدين على مناحي الحياة في مصر القديمة ، فقد ظهرت
بعض القوائد الشعرية التي تفصح عن عدم الاعتقاد في الحياة الآخرة ،
وتدعو إلى الاستمتاع بلذات الحياة الدنيا . ونورد منها القصيدة التالية :

إن الذين بنوا لأنفسهم قصوراً لم يبق شيء من بيوتهم فما الذي
حدث لهم ؟ ولم يأت أحد من هناك فيقص علينا ما أصبحوا عليه ويخبرنا
عن مصيرهم ، فنطمئن قلوبنا ونرتاح ، حتى نسرع أيضاً إلى المكان الذي
ذهبوا إليه . فتمتع واجعل قلبك ينسى اليوم الذي يضعونك فيه في
القبر لترتاح . ارم بكل الاحزان وراء ظهرك ، وفكر في السرور حتى
يأتي ذلك اليوم الذي تصل فيه إلى ميناء تلك الأرض التي تحب الهدوء
(الموت) . مر وراء رغبات قلبك مادمت حياً .

اسكب العطور فوق رأسك ، وألبس أفضل أنواع ملابس الكتان .
دع الغناء والموسيقى أمام ناظريك ، وأكثر مما لديك من ملذات .
لا تجعل قلبك ينبض ، ولا تحمّل نفسك المم حتى يأتي يوم الذنب عليك .
اقض يومك سعيداً ولا تشغل نفسك بشيء .

استمع إليّ . لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه ، ولن يعود
ثانية من يموت .

ويحتوي الأدب الفلسفي كثيراً من النصائح والحكم الأخرى ،
التي تعبر عن خلاصة تجارب الحياة في مصر بشتى ألوانها . ونورد منها .
بعض نصائح الوزير بتاح حوتب الذي عاش في عهد الامرة الحامسة .
وقد وجدت مكتوبة على برديات تعود إلى عهد الامرة الثانية عشرة ،
ولكن دخلتها ، دون شك ، بعض التعديلات : « لا يداخلك الغرور
بسبب علمك ، ولا تتعال لأنك رجل عالم . استشر الجاهل كما تستشير
العالم ، لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود الفن ،
ولا يوجد الفنان الذي يبلغ الكمال في إجادته . إن الحديث الممتع أشد
ندرة من الحجر الأخضر اللون ، ومع ذلك قد تجده لدى الاماء اللاتي
يجلسن إلى الرحى ، ... »

وهناك نصائح منثويي إلى ابنه . وقد ورد ما يشابهها في سفر
الامثال في التوراة ولربما أخذ عنها العبرانيون ومنها :

لا تتخذ الرجل السريع الغضب لك صاحباً .
وامنع لسانك من مقاطعة من هو أرفع منك .
وخذ الحيلة لنفسك خوفاً من أن تدمه .
ولا تجعله يرمي بكلامه فيوقعك في احبولة .

ولا تصرف في اعطاء الحرية لنفسك عند الاجابة .
ويجب ألا تناقش في إجابتك إلاّ مع من يملك قدرأ... الخ...
ونكتفي بهذه النماذج من الأدب الفلسفي حيث هناك ألوان عديدة
متنوعة بلغ الأدب المصري درجة عالية من الكمال الفني .
فليس الشعر وحده ، بل نماذج أخرى من الأدب وردت بأشكال موزونة
ذات لحن جيد . كما يميز الشعر بالوضوح والاقنصاب وكثرة التشابيه .
فقد شبهوا القلب القامي بقطعة من الحجر ، وتحدث أحد الفراغنة مشهاً
نفسه في حالة الغضب كحبة في الصحراء . كذلك اهتم المصريون بالاسلوب
الأدبي ، فأحد الكتبة ينتقد اسلوب رسالة استلمها من كاتب آخر ويكتب
اليه : أن كلمات رسالته متداخلة وغامضة وتخالو من الجمال والحرارة .
بينما يفتخر هو بقدرة الأدبية واسلوبه الإبداعي فيقول : أريد أن أجييك
برسالة كلماتها جديدة من أولها حتى آخرها ، وخرجت عن لساني فقط ،
دون اقتباس عن الآخرين .

وهكذا أوردنا نماذج متنوعة من الأدب المصري تعكس حياة
ومواهب الشعب المصري القديم .

٣ - الفنون :

تأثرت الفنون في مصر - كما تأثرت الآداب - بالعقائد الدينية ،
ومظاهر الحكم ، والعادات والتقاليد . وقد نشأت الفنون في عصور ما قبل
الامرات وتطورت عبر التاريخ خاضعة لتأثيرات واتجاهات مختلفة .
ويمكننا تقسيم تطور الفنون إلى عدة فترات :

أ - فترة المدرسة التقليدية ، وتمتد من بدء عهد الامرات حتى
عصر نل العمارنة في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد . وقد حافظت

الفنون خلالها على القواعد التقليدية (الكلاسيكية) بصورة رئيسية رغم تطورها باتجاه الواقعية .

ب - فترة المدرسة الواقعية المؤقتة في عهد اخناتون ، ومثلها فنون تل العهارة التي تبتعد عن قواعد الفن الكلاسيكي ، ويظهر ذلك في تماثيل اخناتون ونفوتيتي .

ج - فترة التمازج بين الفن التقليدي والفن الواقعي ، وتميزت فنونها بالجمع بين قواعد الفن الكلاسيكي وقواعد الفن الواقعي .

د - فترة بعث الفن التقليدي ، التي دامت مدة عهد الامرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين ، ومثل رد الفعل ضد العناصر الاجنبية التي أخذت تسيطر على مصر . ولكنها كانت فترة مؤقتة ، أخذت بعدها الفنون تتفاعل وتمازج مع الفنون الاجنبية .

هـ - فترة الفن الهلنستي ، وابتدأت بعد فتح الاسكندر المكدوني مصر ، حيث ازداد التمازج بين الفن المصري واليوناني ، ونشأت عنه قواعد فنية جديدة أطلق عليها اسم (الفن الهلنستي) .

ويقسم الفن المصري إلى عدة أنواع هي :

آ - فن الرسم والتصوير : لعبت العوامل الدينية دوراً كبيراً في نشوء وتطور فن الرسم والتصوير ، واعتقاد المصريين بإمكانية تحول الصور إلى حقائق واقعية بعد الموت ، بفضل بعض التعاويذ السحرية ، دفعهم إلى تزيين المقابر بالرسم والصور التي تمثل حياتهم وأعمالهم ومظاهر تدينهم في الحياة الدنيا .

وأهم القواعد التقليدية التي اتبعتها الفنانون في الرسم والتصوير هي ابراز الشخصية الرئيسية في الصورة (خاصة الملك) بينما تتضاءل إلى جانباها

بقية صور الافراد الآخرين ، كذلك اظهار الملامح والتقاطيع بشكل واضح حتى تتعرف الروح على صاحبها بعد الموت . وقد بالغوا في اظهار الجمال والهبة والوقار ، حتى أن الصورة لم تكن تمثل الواقع تماماً ؛ وإنما تجمع بين الواقعية والمفاهيم الدينية التقليدية . كما تجمع الصورة بين الرسم الجانبي والأمامي بأن واحد ، أي أن الفنان يرسم الصورة وكأنه ينظر إليها من زاويتين أو أكثر . وكان لا بد من اعطاء الصورة استقلالاً تاماً كي لا تحجب أي جزء من أجزائها صور أو مناظر أخرى . وقد اختلفت صور النساء عن صور الرجال في الملابس وبعض الأوضاع ، كنصوير السابقين والقدمين متلاصقين إشارة إلى الاحتشام والحياء . ولكن صور الراقصات تتميز بجزية أكثر في الحركات و صورهن بلباس شفاف وشبه عاريات . أما صور الأطفال فغالباً تظهر عارية ، وهذا تقليد للإشارة إلى صغر صاحب الصورة . ومن القواعد التقليدية في تصوير المناظر ترتيبها في صفوف متتالية تفصلها خطوط مستقيمة ، أي عدم انسجام المشاهد في الصورة .

وقد حاول بعض الفنانين التحرر من القواعد الفنية التقليدية . (الكلاسيكية) التي ذكرناها ، خاصة في بعض الصور الثانوية أو صور الطبقات الدنيا في المجتمع ، حيث كانوا أكثر جرأة في رسمها [كنصويرها في أوضاع جانبية ، أو رسم المنظور وحجب بعض أجزاء الجسم بأجزاء أخرى أو بأشخاص آخرين ، أو تصوير بعض هيوب الاجسام ، أو بعض الحركات ، أو تصوير المرح والحزن والرقص واللعب والقيام بشؤون الحياة العامة وغيرها من ميزات قواعد الفن الواقعي] .

ب - فن النقش : إن ما ذكرناه حول فن الرسم والتصوير من

حيث تأثير العقائد الدينية ومن حيث مييزات الاسلوب الفني ينطبق أيضاً على فن النقش . ويكون النقش بجفر الأشكال المرسومة على الحجر أو الخشب لتبرز الصورة ، ويسمى هذا النوع بالنقش البارز . أو تحفر الصور في الأرضية فيكون النقش من النوع الغائر .

ومن أجل النقوش التي تعود إلى عهد الدولة القديمة صور المناظر المحفورة على جدران مقصورة الأمير وع حوتب والتي تمثل مناظر الحياة اليومية ، من صيد الطيور والسماك والحيوانات ، وحرث الأرض ، وصناعة السفن . وقد انتشر النقش الغائر في عهد الدولة الوسطى بشكل واسع ، ولكن مع تأخر في الاسلوب الفني . وتمثل ذلك صور مقابر بني حسين التي كانت من عمل فناني الأقاليم الذين لم يكونوا من درجة فناني العاصمة منف . أما في عهد الدولة الحديثة فقد استعاد فن النقش مجده ، وأجل نقوش ذلك العهد نقوش الملكة حاتشبسوت في معبد الدير البحري . وأهم مواضعها قصة ولادة الملكة من الإله آمون - وع ونقوش البعثة التجارية التي أرسلتها الملكة إلى بلاد البونت . وفي عهد اخناتون أصبح فن النقش يتميز كغيره من بقية الفنون بطابع الاسلوب الواقعي حيث دخل الفنانون إلى قصر الملك وصوروه في مجالسه وحياته اليومية بصور طبيعية واقعية لا تكلف فيها ، وتظهر فيها الحركة والبساطة والمرونة والحرية والانطلاق من قيود القواعد الفنية التقليدية . عادت النقوش تظهر بأساليبها التقليدية منذ بدء عهد الأسرة التاسعة عشرة ، غير أنها اضطرت أن تأخذ من أسلوب الفن الواقعي الجرأة في تصوير الحركة والمشاعر والعواطف مع المحافظة على الهيبة والوقار التقليديين . ومن أشهر تلك النماذج نقوش معبد الومسيوم الذي بناه رمسيس الثاني وبعض مناظر معبدي الاقصر والكرنك .

ج - فن النحت : سار فن النحت على الطريق نفسها التي سار عليها كل من فني التصوير والنقش من حيث تطور الاسلوب الفني ، وتأثير العقائد الدينية . [كان المصريون يضعون التماثيل في القبور لاعتقادهم أن الروح تحل في التماثيل إذا هبطت إلى عالم الأرض . كما كانت توضع تماثيل الآلهة والملوك في أوضاع خاصة تقليدية في المعابد بقصد العبادة والتقديس] . والتماثيل بعضها ضخمة وبعضها متوسطة وبعضها صغيرة . كما نحت التماثيل في أوضاع مختلفة كالوقوف والجلوس والسجود والقرفصاء وغير ذلك . وبعض التماثيل بهيئة كاملة ، وبعضها نصفية ، وبعضها رأسية فقط . وكانت التماثيل منها بشرية ، مذكرة أو مؤنثة ، ومنها بشرية وحيوانية معاً [كتمثال أبي الهول] واستخدم في نحت التماثيل أنواع متعددة من الحجر والخشب والعاج والطين الفخاري .

ومن أهم التماثيل التي حفظت منذ عهد الدولة القديمة إلى عهدنا هذا تمثال الملك زوسر ، والتمثالان الجالسان للامير رع - حوتب وزوجته انفوت ، وتمثال الملك خفروج ، ومجموعة تماثيل للملك منكاووع . وجميع هذه التماثيل محفوظة في المتحف المصري . وهناك تمثال نصفي للأمير عنخ حاف محفوظ في متحف بوسطن ، وتمثال الكاتب المصري في متحف اللوفر في باريس ، وتماثيل أخرى عديدة . أما أهم تماثيل الدولة الوسطى فمنها تمثال الملك سنوسرت الاول ، و محفوظ في المتحف المصري ، وتمثال للملك سنوسرت الثالث ، وتمثال للملك امنمحات الثالث . ومن التماثيل التي تعود إلى عهد الدولة الحديثة تمثال الملكة حاتشيبسوت المصنوع من المرمر وال محفوظ في متحف نيويورك ، وتماثيل للملك تحوتس الثالث أحدها محفوظ في المتحف المصري ، وتماثيل أخرى للملك امنحوتب الثالث وزوجته تي . وهناك تمثال للإلهة سخمت يجسم امرأة ورأس لبوة

محفوظ في متحف نيويورك ، وتمثال لأسد رابض محفوظ في المتحف البريطاني . وأشهر التماثيل التي تعود إلى عصر قل العبارة تماثيل الملك اخناتون والملكة نفرتيتي [رأس تمثالها المشهور محفوظ في متحف برلين ويمتاز بدقة فنه] . ومن أهم التماثيل التي تعود إلى أواخر عهد الدولة الحديثة تمثال الملك حورحوب في هيئة الكاتب المصري ، وتمثال من المرمر للملك سيتي الأول . كما حفظت تماثيل كثيرة تعود إلى عهد الرعامسة . وحفظت من عهد الاحتلال الاجنبي (في أواخر العصور القديمة المصرية) بعض التماثيل التي تعبر عن الهموم وشدة التفكير في أمور الحياة ، ومن أهم نماذجها تمثال نصفي للملك هكسو ، ورأسان للملك نخت نيف .

د - فن البناء : كانت المباني في عصور ما قبل الامرات تستهدف بالدرجة الاولى الفائدة العملية للسكن واتقاء الحر والقر . لذلك استخدمت المواد البسيطة السهلة المنال ، كجذوع الاشجار ، وجريد النخل ، وسيقان البردى ، والطين والابن ، في بناء أبنية بدائية بسيطة بيضوية . ثم انتشر استعمال الحجر منذ بداية عهد الامرات . وأهم أنواع المباني هي المعابد والمقابر والقصور .

تعتبر المعابد في مصر بيوتاً للآلهة ، وكانت في بادئ أمرها أكوأخاً بسيطة ثم ازداد الاعتناء ببنائها تدريجياً ، وأخذوا يستخدمون الحجر في بناء جدرانها . وقد اندثرت أكثر معابد الدولة القديمة ولم يبق منها سوى بعض الأطلال ، ومنها أطلال أحد معابد الشمس في أبي صير . وكانت هناك بعض المعابد التي تلحق بالاهرامات كمعبد اليوبيل الملوكي ، والمعبد الجنائزي في سقارة مثلاً . وفي عهد الدولة الوسطى أضيفت عناصر كثيرة إلى أساليب فن بناء المعابد ، ومن ذلك أن المهندسين حاولوا لأول مرة أن يجمعوا بين الهرم والمعبد في بناء واحد . فوصلوا بين

هرم منتوحب الثاني ومعبد الوادي بطريق أقيمت على جانبه جدران
وثائيل لذلك .

ومن أشهر معابد الدولة الحديثة معبد الدير البحري الذي أمرت
ببنائه حاتشبسوت . ومعبد سيتي الأول في ابيدوس ، ومعبد الومسيوم ،
ومعبد رمسيس الثاني في أبي سنبل ببلاد النوبة ، ومعبد الكرنك
وأعظم ما فيه بهو الأعمدة ويحتوي على ١٣٤ عموداً موزعة على ستة عشر
حفاً ، ومساحة بهو ٥٠٠٠ م^٢ ، وارتفاع السقف عن الارض ٢٤ م .

كذلك اعتنى المصريون عناية كبرى بمقابرهم لأن العقيدة الدينية
تقضي بالبعث وبوجود حياة في الآخرة شبيهة بالحياة الدنيا . وكانت المقابر
بسيطة في بادئ أمرها ، ثم أخذت تضاف إليها أجزاء تبني من اللبن
فوق سطح الأرض على شكل مصاطب . وأول ما استعمل الحجر في بناء
مقبرة الملك زوسر في سقارة التي كانت على شكل هرم مدرج . ثم
أخذت الإهرامات المبنية بالحجر تزداد تدريجياً متطورة من الهرم
المدرج إلى الهرم الكامل قاعدته مربعة وجوانبه على شكل مثلث
تميل إلى الداخل حتى تلتقي في القمة .

وأم اهرامات الدولة القديمة هرم خوفو وخفرع ومنكاورع . أما
أم اهرامات الدولة الوسطى فمهما هرم منتوحب الثاني ، وامنمحات الأول
وسنوسرت الثاني ، وامنمحات الثالث .

وانتهى عهد بناء الاهرامات في مطلع عهد الدولة الحديثة . حيث قرر
تحوتمس الأول ترك تقليد المقبرة الهرمية وأمر أن يدفن في مكان مجهول
من الناس في باطن الأرض فأصبح وادي الملوك غربي طيبة مدفناً للملوك
الامرات الثامنة عشرة حتى العشرين .

وهكذا بنيت الاهرامات العديدة الضخمة بجهود الآلاف من العبيد
والعمال لتعبر عن عظمة السلطة الملكية التي تحفظها الآلهة .

٥ - الموسيقى والغناء والرقص : استخدم المصريون آلات موسيقية
متنوعة منها آلات وترية ، وآلات النفخ ، وآلات الإيقاع . وأهم
الآلات الوترية الجناك والكنارة والطنبور ، ومن آلات النفخ المزمار
المنفرد أو المزدوج .

وأهم آلات الإيقاع أنواع من الصنوج ، والمصفقات المعدنية والحشبية ،
والدفوف ، والطبول ، والصلاصل وغيرها . وكانت الملك فرقة موسيقية
خاصة في قصره . واستخدمت الموسيقى أثناء إقامة الطقوس والشعائر
الدينية وفي الجنائزات والأعياد والحفلات العامة والحروب .
ولم يتوكل لنا الموسيقيون تسجيلاً لبعض الاشارات الموسيقية
أو معلومات عن طريقة العزف ، ولكنهم تركوا كثيراً من الأغاني المدونة
منها الشعبية ، وتتعلق بعمل العامل والفلاح ، ومنها العاطفية وتتعلق
بالحب والغزل ، ومنها الدينية أو الجنائزية ، ومنها الحماسية كالأنشيد
الوطنية والحربية .

ولم يعرف المصريون التمثيل إلا كطقس ديني ، كتمثيلية حورس
وسبت ، وتمثيلية اوزيريس .

أما الرقص فكان وسيلة للهو والترفيه والتعبير عن العبادة والشكر
للاله . وقد تنوع الرقص حسب المناسبات ، فمنه الرقص الإيقاعي
مع التصفيق أو الصنوج ، ومنه الرقص الرياضي وحركاته صعبة ومعقدة .
وهناك رقص كهكاهة مظاهر الحياة العملية ، وراقص ديبني ،
ورقص حربي .

٤ - الديانة :

تساعدنا كثرة النصوص الدينية ، المحفوظة من مختلف عصور التاريخ المصري القديم ، على تتبع تطور الديانة المصرية منذ تفسخ العلاقات القبلية حتى ظهور المسيحية في مصر . وببطء تطور النظم الاجتماعية أدى إلى استمرار بعض تقاليد ديانة المجتمع البدائي حتى العصور المتأخرة ، كانتشار عبادة الحيوانات مثلاً في مختلف مراحل التاريخ المصري .

عبادة قوى الطبيعة : عبد المصريون القدماء قوى وظواهر الطبيعة لعجزهم عن تفسيرها ، أو خوفهم منها ، أو محاولتهم الاستفادة منها . ونشأت عبادة الحجر في الصحراء ثم انتقلت إلى المدن ، وعندما تطورت الزراعة في وادي النيل نشأت لدى المصريين تصورات عن الأرض المقدسة . فالفلاح الذي يعيش على الأرض ويتغذى بمنتجاتها ويدفن موته فيها ، رأى الأرض أساس الحياة والموت ، وأعتقد أن أقدم الآلهة هو إله الأرض جب . وعندما أخذ المصريون باستخدام مشاريع الري الاصطناعية وشعروا بأهمية المياه ، أخذوا يعتقدون أنها هي التي تمنح الغذاء والحياة للإنسان ، وإن الكون نشأ من الماء الأزلية التي أطلقوا عليها اسم (الإله نون) . واعتبروا نهر النيل العظيم ألوهية خيرة تتدفق لتمنح الحياة للبشر ؛ و المطر ماء ينصب من عيون إله الشمس (حور) أو من جسد وعيون الإلهة الباكية ايزيس ، كما اعتقدوا أن للمياه أرواحاً .

أدت حياة الجمع والصيد ، ثم حياة الرعي والزراعة ، إلى ظهور عبادة النباتات والحيوانات . ففي أسطورة « شجرة الحياة السماوية » تعبير عن أن الشجرة رمز لعالم النبات الضروري لجميع البشر . وفي عهد

الدولة القديمة ينشأ تصور عن زهرة اللوتس المقدسة والتي ترمز إلى الإله الاسطوري نوم . كذلك انتشرت منذ القدم عبادة الحيوانات كالأسد ، واللبوة ، والحية ، والثور ، والبقرة ، والحروف ، والصقر ، وغير ذلك .

الحياة الآخرة : اعتقد المصريون القدماء بوجود حياة أخرى بعد الموت الذي اعتبروه مرحلة انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة ، وكانوا يضعون مع الميت أدواته التي كان يستعملها في حياته كي يستخدمها في حياة الآخرة ولتساعده على استمرار حياته ، ومن ثم يساعد ويحفظ أقرباءه وذويه الذين بقوا على الأرض . وكانوا يعتقدون أن الانسان في حياته الآخرة يمر بعدة مراحل وعقبات حتى يصل إلى النعيم والخلود الدائم . واعتقادهم أن الانسان لا يتمتع بالحياة الآخرة إذا لم يبقى جسده سليماً بعد الموت وهذا ما دفعهم إلى الاهتمام بتحنيط جثث الموتى ودفنهم في مقابر منيعة . وقد أوجدوا منذ عهد الدولة القديمة وسائل مختلفة لحفظ الجثة إما بلفها بالكفتان ، أو معالجتها بمادة النطرون بعد نزع الأحشاء منها أو غير ذلك من طرق التحنيط . وعند الدفن يجري احتفال أمام القبر يصحبه العويل والبكاء والانشيد الدينية والذبيحة وإحراق البخور وتقديم القرابين والعطور . ويقوم الكهنة بفتح غم الميت ليستطيع الكلام وتناول الطعام في الحياة الآخرة ، ثم يوضع الميت في حجرة الدفن ويزود بالطعام والشراب . ويجب على أهل المتوفي تقديم القرابين باستمرار . ولما كان ذلك أمراً صعباً فقد أوجد المصريون حلاً للأمر بأن يكتبوا على جدران القبور ما يؤدي إلى تقديم القرابين في أوقاتها . كما كانوا يصورون على الجدران مختلف الاطعمة

والاشربة واللوازم ، ويعتقدون أن تلك الكتابات تتحول سحرياً إلى أشياء حقيقية يتمتع بها المترفي . واعتقد المصريون بأن الانسان سيحاكم بعد الموت أمام محكمة العدل عن أعماله في الحياة الدنيا . وقد جاء في (كتاب الموتى) وصف تفصيلي لهذه المحاكمة ، حيث يقف المتوفى أمام الإله ويعدد الخطايا التي لم يرتكبها أي ينفي ارتكابه الخطايا وعددها ٤٢ خطيئة فيقول : إنني لم ارتكب كذا وكذا من الخطايا . فهو لم يعترف في الحقيقة بشيء وإنما يعلن براءته .

في أول الأمر كانت حياة السماء الخالدة مقصورة على الملوك فقط . وقد جاء في « متون الاحرام » التي تعود إلى عهد الدولة القديمة : « إن الملك مأواه السماء أما آلاف المواطنين فأواهم الأرض » . وهذا الامتياز للملك أصبح يشاركه فيه ، فيما بعد ، أفراد الاسرة المالكة ورجال البلاط ثم جميع المواطنين ، ولا يسمح بدخول جنة الفراعنة السماوية إلا للصادقين المبرزين . فعمد الأفراد الى الاستعانة بالوصفات السحرية لتساعدهم على اجتياز العقبات عند المحاكمة في عالم الآخرة . وازداد الخوف من الموت وأخطاره ، وشجع الكهنة على هذا الخوف حتى يزداد طلب الناس للتعاوين السحرية التي تقيهم من الشر والأخطار فيكتبونها لهم لقاء أجر .

عبادة الشمس : عبد المصريون الشمس لكونها نار السماء الخفية ، ومصدر الحرارة والنور الضروريين لحياة الانسان . وفي العهود القديمة كان مركز عبادة الشمس في مدينة عيونو التي أطلق عليها اليونانيون اسم هليوبوليس أي مدينة الشمس . وعندما اتحدت مصر في دولة مركزية أصبح الدين الرسمي للدولة هو عبادة الشمس ، وأصبح امم إله الشمس وع يدخل في تركيب أسماء فراعنة الدولة القديمة مثل خفوع (خف -

رع) ومنكاو رع . وقد بنى فراغنة الامرة الخامسة معبداً للشمس لتجري فيه طقوس عبادتها .

في عهد الدولة الوسطى عندما أصبحت مدينة طيبة عاصمة للدولة أصبح لها المحلي آمون إلهاً رسمياً للدولة ، وامتزج به إله الشمس رع ، وأصبحت الأناسيد التي تمجد الإله الجديد آمون - رع ، تصوره أنه أول الآلهة ، وأعلها مرتبة ، وهو الذي خلق الكون بأكمله . وقد بلغت عبادة الشمس أقصى ازدهارها في عهد الفرعون اخناتون ، حيث أصبح إله قرص الشمس آتون الإله الرسمي والوحيد للدولة ، وتراجعت أمام عبادته عبادة الحيوانات وعبادة الآلهة الأخرى المتعددة . ولكن بعد موت اخناتون زال اصلاحه الديني ؛ واستطاع كهنة طيبة إعادة عبادة الإله آمون ، وعادت مصر إلى عبادة الآلهة المتعددة التقليدية . وظلت عبادة الشمس لها مكانتها الهامة في الديانة المصرية حتى العهود المتأخرة .

تاليه الفراعنة : في الدول القديمة الاستبدادية استخدمت الديانة لتثبيت سلطة الملوك وتقوية هبة الدولة ، فأشيعت تعاليم تقول أن الملك إله وإنه يستلم السلطة من الآلهة ، لذلك يجب عبادة الملك كإله أرضي . وعلى ضوء هذه التعاليم فإن أي احتجاج اجتماعي ، أو تمرد شعبي ضد سلطة الملك يعتبر جريمة ضد الدين وبالتالي لا بد من فشله .

وقد أطلق فراغنة مصر على أنفسهم ألقاباً دينية متعددة مثل إله الحيور أو الإله العظيم أو ابن الشمس .

كما صورت الفنون والآداب الفراعنة كمخلوقات خارقة تلهما الآلهة . وجاء في نصوص « متون الأهرام » ، (كتابات وجدت في أهرامات

الاسرة الحامسة والامرة السادسة) ان الفراعنة بعد الموت تستقبلهم الآلهة ليعيشوا بينها « إنك أيها الملك قد دخل أبواب السماء التي حرمت على المواطنين » . وعلى جدران المعابد كانت تصور مشاهد الحوادث الهامة من حياة الفراعنة المؤهلين ، كولادته من زواج سري تم بين والدته والإله الأعلى ، أو تغذيته من البقرة - الإلهة حتحور ، أو تويجه من قبل الآلهة . وقد وجدت في الدلتا صفائح عليها صور لأناس يصلون أمام الفرعون رمسيس الثاني وينادونه بالإله .

رغم أن الديانة لعبت دوراً كبيراً في حياة الشعب المصري ، لم تستطع أن تقضي تماماً على الأفكار الحرة عند بعض المصريين ، حيث أن التجربة الحياتية والتناقضات الاجتماعية استدعت الشك في خلود تلك النظم « والعدالة » التي يتحدث عنها الكهنة . ونلاحظ في « حديث اليأس مع روجه » عدم الاعتقاد بوجود الآلهة ، وقد جاء في النص هذه العبارة الصريحة : « لو عرفت أين يوجد الإله لقدمت له القران » .

٥ - المعارف العلمية :

نشأ لدى المصريين منذ القدم مفهوم المعرفة العلمية ، وأولوها الاهتمام والتقدير . فقد جاء في إحدى النصوص : « انني أنفذ كل ما تقول إذا سنكون من سيعرفون الكتابة ؛ تعمق في معرفة الكتابة وأدخلها إلى قلبك ، عندئذ سيصبح كل ما تقوله رائعاً ؛ مهما كانت وظيفة الكاتب لا بد أن يعود دائماً إلى الكتب » .

ونقلت الأجيال السابقة المعارف العلمية إلى الأجيال اللاحقة عن طريق مدارس القصر التي تعلم وتخرج منها الكتبة من أبناء الطبقة الارستقراطية . وقد ساد في تلك المدارس نظام صارم . فالطالب الكسول يتعرض لعقاب

جسدي . وعلى الطالب أن ينسخ في اليوم ما لا يقل عن ثلاث صفحات ليتعلم الكتابة الصحيحة والقواعد والاسلوب . وقد جاء في المصادر بعض الكتابات لكتابة مبتدئين ، وممارين تعليمية مكتوبة بشكل جيد وصحيح . ووجدت مدارس عليا للكتاب أطلق عليها اسم « بيت الحياة » عثر على أطلالها في مدينة اخيئاتون عاصمة اخناتون . وتعلم التلاميذ أيضاً فن الحديث والخطابة .

ساعد تطور الزراعة والتجارة وملاحظة الطبيعة على تراكم المعارف العلمية . واستخدمت العلوم في الحياة العملية فكانت الرياضيات من أهم العلوم التطبيقية . وقد استخدم المصريون النظام العشري في الحساب . ووجدت في الكتابة علامات خاصة تشير إلى الأرقام ١ ، ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠ ، ١٠٠٠٠٠٠٠ ، فعلامة المليون مثلاً كانت ترمم على شكل هيئة انسان يرفع يديه كدلالة على الدهشة من الكثرة .

وعرف المصريون الجمع والطرح والضرب والقسمة ، إلا أنهم استعملوها حسب طرق تختلف بعض الاختلاف عن اساليبنا الحالية . فالضرب عبارة عن جمع المضاريب المؤدية إلى النتيجة . والقسمة عبارة عن مضاعفة المقسوم عليه ثم جمع الأرقام التي تعطي رقم المقسوم ، ويكون حاصل القسمة نتيجة جمع الأرقام المقابلة للأرقام التي أعطى جمعها رقم المقسوم ومثالاً على ذلك :

القسمة		الضرب
$11 = 7 \div 77$		$192 = 16 \times 12$
$\times 7$	1 ×	16 1
$\times 14$	2 ×	32 2
28	4	× 64 4 ×
$\times 56$	8 ×	× 128 8 ×
<hr style="width: 50px; margin-left: 0;"/>	<hr style="width: 50px; margin-left: 0;"/>	<hr style="width: 50px; margin-left: 0;"/>
77 المقسوم	11 حاصل القسمة	192 حاصل الضرب 12

كذلك عرف المصريون الكسور البسيطة مثل $\frac{1}{2}$ ، $\frac{1}{3}$ ، $\frac{1}{4}$ ، $\frac{1}{5}$ ، $\frac{1}{6}$ ،
 $\frac{1}{7}$... الخ أما الكسور المركبة فلم يستعملوا منها إلا $\frac{2}{3}$ ، $\frac{3}{4}$ فقط .

وعرف المصريون أيضاً مبادئ الجبر فحلوا معادلات من الدرجة الأولى ، وأطلقوا على المجهول اسم كومة قمح . كما كان للهندسة أهمية كبرى من حيث التطبيق العملي ولا سيما هندسة الري وهندسة البناء . فعرف المصريون حساب مساحة المربع والمثلث والدائرة . وعرفوا أيضاً حجم الهرم الكامل والناقص . وحساب ثقل المواد ووزنها وضغطها . واستخدموا في قياس الأطوال الأصبع والشبر والقدم والخطوة . وكانت وحدة قياس الأطوال هي الزراع الملكي وطوله سبع قبضات كل قبضة أربعة أصابع أو (52.3 مم) . أما المقاييس الطولية فلها وحدة خاصة وهي مئة ذراع .

ويقال ان الرياضي اليوناني الشهير (طاليس) زار مصر وتلقن العلوم الرياضية عن كهناتها .

أدت مراقبة كواكب السماء إلى تراكم معلومات قيمة في علم

الفلك فاستطاع المصريون وضع مصور لنجوم السماء . وقد وجد في قبر
الامير سنموت (من زمن الامرة الثامنة عشرة) مصور فلكي يظهر
في وسطه مجموعة الدب الاكبر والدب الاصغر ونجم البليار . وفي القسم
الجنوبي من السماء يظهر نجم الاوريون ونجم الشعري المسمى سيويوس .
وظلت المصورات الفلكية القديمة تستخدم حتى في العهد اليوناني -
الروماني . وساعد تطور المعارف الفلكية المصريين على وضع تقويم شمسي
خاص ، فقسما السنة إلى اثني عشر شهراً ، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً ،
ثم أضافوا خمسة أيام إلى السنة لتصبح ٣٦٥ يوماً ، ما يتفق مع الحقائق
الفلكية . ولكن في الواقع نقصت سنة التقويم المصري مقدار ربع يوم
عن التقويم الفلكي الصحيح ، فنتج عن هذا الخطأ تقصير مدته ٣٦٥ يوماً
أي سنة كاملة خلال كل ١٤٦٠ عام . كذلك استطاع المصريون أن
يعرفوا أوقات الكسوف والخسوف . وقسموا كلاً من الليل والنهار
إلى اثني عشرة ساعة . واخترعوا (في عهد الامرة الحادية عشرة) الساعة
المائية بترك الماء يتسرب إلى داخل إناء أو إلى خارجه بنسبة معينة ،
مع ملاحظة تبدل مستوى الماء بالنسبة لاشارات مرسومة على السطح
الداخلي للإناء ، وكانت هذه الاشارة تبين مقدار الفترات الزمنية . وقد
نقل اليونانيون هذه الساعة عن المصريين ثم انتشرت فيما بعد في أوروبا .

وكان علم الطب في مصر القديمة متطوراً بالنسبة إلى تلك الازمنة .
فقد وجدت برديات كثيرة من عهد الدولة الوسطى والدولة القديمة تحتوي
على وصفات طبية لمعالجة أمراض عديدة . ومنها وصف لبعض العقاقير
والأدوية وطريقة المعالجة بها . ولكن الأطباء المصريين ، رغم استخدامهم
الأدوية في المعالجة ، لم يتخلصوا من السحر ، بل استخدموه أيضاً في
معالجة المرضى . فكان كثير من الكتب الطبية عبارة عن مجموعات لبعض

التعاويد والوصفات السحرية . واعتقد المصريون أن الامراض تنتج عن تأثير أرواح شريرة مؤذية ومن يحمل تلك التعاويد السحرية يطرد عنه أسباب المرض . وتحتوي التعريضة على رجاء الأشباح الشريرة بمغادرة الجسم المريض ، وأحياناً تحتوي على تهديد لها . ولكن تخنيط الموتى ، بشق جسد الانسان واخراج الاحشاء منه ، ساعد الاطباء المصريين على الاطلاع على اعضاء الجسم الداخلية ، كالقلب والمعدة والامعاء والرئة والكبد وغيرها . وتدل احدى البرديات على انهم عرفوا الدورة الدموية وعلاقة النبض بالقلب ، وذكروا أن القلب متصل بأوعية تفرع في جميع أجزاء الجسم . وقد وجد نظام أدبي في المعالجة . فالطبيب بعد اطلاعه على المرض يجب أن يعلن بصراحة إلى المريض عن مدى قدرته في معالجة المرض . وعليه أن يصرح بأحدى العبارات الثلاثة التالية : ١ - هذا المرض لا أستطيع معالجته . ٢ - هذا المرض محتمل إنني أستطيع معالجته . ٣ - هذا المرض أستطيع معالجته .

وكان كل طبيب يتخصص بعلاج مرض من الامراض . فبعضهم اخص بالجراحة ، وبعضهم بعلاج أمراض العيون ، وبعضهم بالامراض النسائية ، وغير ذلك من الاختصاصات المتعددة . وقد ألحقت ببعض المعابد مدارس خاصة بالطب . كما كان للقصر الملكي أطباء عديدون مختصون . ونتيجة فحص بعض الموميات تبين للعلماء أن المصريين تمكنوا من معالجة كسور العظام . ومن طرق معالجة الأمراض الراحة والغذاء والدواء واستعمال الضمادات والتعاويد السحرية وغير ذلك . وقد وجدت على جدران معبد كوم - أومبو صور لبعض الأدوات المستعملة في الجراحة ، كما وجدت على جدران احدى المقابر (من عهد الدولة القديمة) صور لبعض العمليات الجراحية في اليد والأنف والرجل وغيرها .

أما العقاقير فكانت تصنع غالباً من الاعشاب والنباتات وقد وضع المصريون وصفاً لخصائصها . وعند تعاطي الدواء كانوا يراعون السن ، ويجددون المقادير الواجب تناولها ، وطرق تحضيرها واستعمالها . فنشأت بذلك مبادئ علم الفرشمة (الصيدلة أو صنع الأدوية) .

وقد نقل اليونانيون كثيراً من المعلومات الطبية عن المصريين ، وانتقلت منهم إلى اللغة اللاتينية والعربية والسريانية والفارسية . ويذكر المؤرخون أن الطب الشعبي في أوروبا والشرق يرجع إلى أصل مصري . وأخيراً فإن المنجزات الحضارية في مصر انتشرت إلى العالم الخارجي ، ووصلنا معظمها بصورة رئيسية عن طريق اليونانيين . وقد كان هيرودوت مصيباً في قوله : « أن المصريين أساتذة علم الهندسة » . كما انتقل كثير من المواضيع الفنية المصرية إلى الشعوب الأخرى وإن ظهرت بشكل مختلف وأصبحت التماثيل المصرية (سفينكس) نماذج تقليدية في الفن الأوربي . وإننا نرى الآن مسلات أصلية من مصر القديمة ترتفع في ساحات روما وباريس واستنبول وغيرها كما نرى تماثيل من الغرانيت الأحمر تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد نقلت من مصر لتزين ضفاف نهر النيفا في مدينة لينينغراد في الاتحاد السوفيتي .

★ * ★

القسم الثاني

الخبيرون

١ - الظروف الطبيعية في آسيا الصغرى : كانت الظروف الطبيعية في آسيا الصغرى (الاناضول) تختلف عما في مصر وبلاد النهرين حيث قامت بمالك مركزية قوية . فلم تساعد ظروف شبه الجزيرة هذه المحاطة بالمياه من ثلاثة جهات (البحر الاسود ، مرمره ، إيجه ، المتوسط) والتي تنقطعها السلاسل الجبلية على عملية الاتحاد أو انضمام القبائل المتعددة في شعب واحد . كما إنه لم يكن هناك احواض أنهار واسعة ، فأكبر الانهار هالييس (الآن قيزيل ايرماق) الذي يصب في البحر الاسود لا يمكن أن يقارن بشكل من الاشكال مع نهر النيل أو نهر الفرات . كذلك لم تسمح كثرة الهضاب والسلاسل الجبلية باقامة شبكة موحدة للري . لذلك اهتم السكان بالدرجة الرئيسية بالرعي وتربية الخيول حيث تساعد على ذلك كثرة المراعي . وكانت جبال طباروس مغطاة بالغابات ، وكثرت فيها المعادن كالفضة والنحاس والرصاص والحديد حتى أنه اطلق عليها اسم الجبال الفضية .

٢ - السكان : يعود أصل الخبثيين الى العنصر الهندي - الاوروبي أي الآري . وقد أتوا الى آسيا الصغرى عن طريق اليونان والبوسفور . واللغة الخبثية ، رغم احتوائها على كلمات غريبة كثيرة ، تشكل جزءاً من مجموعات اللغات الاوروبية المعروفة بالكانتم . ولم يطلق على تلك القبائل الآرية اسم

الحثيين الا بعد استقرارها في بلاد الإناضول حول نهر هالميس اذ سيطرت على قوم مجاورين قدماء من الآسيويين يدعى حاتي أو حثي واغتصبت اسمهم أيضاً فأصبح اسم الحثيين يطلق على مجموعة السكان التي نشأت من اختلاط الحثيين القدامى سكان البلاد الاصليين مع القبائل الآرية الجديدة .

٣ - نشوء الدولة الحثية : بدأ النظام القبلي بالتفسخ عند الحثيين في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد . وقد ساعد على ذلك مجيء التجار الأكاديين ثم الآشوريين الذين أسسوا في حوض نهر هالميس ، ما بين القرن الثالث والعشرين والقرن العشرين ، مستعمرات تجارية وتحالفوا مع الامراء المحليين واستغلوا السكان الذين يعملون بالزراعة والرعي .

في مطلع الألف الثاني ق . م . تجرّى بعض المحاولات لتوحيد القسم الشرقي من آسيا الصغرى فتم ذلك على يد الملك آنيثا واتخذت عاصمة له مدينة نيزا ومنها اشتق اسم اللغة النيزية التي أصبحت اللغة الرسمية للدولة . وقد تم تشكيل الدولة الحثية بصورة تامة حوالي سنة ١٦٥٠ ق . م . في عهد الملك لابارنا . واصبحت عاصمتها اعتباراً من القرن السادس عشر مدينة حاتوشاه . وينقسم تاريخ الدولة الحثية الى فترتين رئيسيتين فترة الدولة القديمة ، وفترة الدولة الحديثة .

٤ - الدولة الحثية القديمة : وتمتد من القرن السابع عشر حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد . ومن أشهر ملوكها مورسيل الأول الذي قام بحملات توسعية بقصد السلب وجمع الغنائم . فاحتل مدينة حلب ذات الموقع التجاري الهام في شمال سورية . ثم انحدر بجيشه نحو الفرات واحتل مدينة بابل ولكنه غادرها مع جيشه بعد مدة قصيرة حاملاً معه الغنائم الوفيرة . ولم يكف يستقر في عاصمته حاتوشاه حتى قام الامراء بانقلاب ضده وقتلوه .

لم يكن الملك الحثي يملك سلطة أوتوقراطية قوية كفراعنة مصر ، بل كان عليه أن يشرك مجلس الامراء وأحياناً الجنود في تقرير الامور الهامة . وقد أصدر الملك تيليبين قراراً يتضمن وضع نظام ثابت لوراثة العرش ينص على انتقال العرش بعد موت الملك الى ابنه الاكبر . ولكنه اذا مات في حياة والده فتكون الوصاية بالعرش الى الابن الذي يليه . واذا لم يترك الملك أولاداً ذكوراً فينتقل العرش بعد موته الى صهره الاكبر . كذلك قطع الملك على نفسه عهداً بأنه ان يُعدم أحداً أو يصادر أملاك المعدومين بإرادته وحده دون موافقة مجلس الامراء والمحاربين . ومن هنا نرى ان طابع الحكم عند الحثيين لم يكن استبدادياً مطلقاً كما كان في مصر وبلاد النهرين . بعد موت الملك تيليبين تعرضت الدولة الحثية لضعف دام مدة قرن تقريباً حدثت خلالها اغارة الحوريين على حلب والكاشيين على بلاد النهرين والهيكسوس على مصر .

٥ - الدولة الحثية الحديثة ، دامت هذه الدولة من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر . وبلغت السلطة المركزية فيها اكثر قوة مما كانت عليه في عهد الدولة القديمة ولكن لم يكن لها قاعدة اقتصادية كافية مما دفعها الى ممارسة سياسة توسعية وشن حروب احتلالية وقد بلغت هذه الدولة اقصى قوتها وازدهارها في عهد الملك شوبيلوليوما معاصر الفرعون المصري اخناتون حيث استغل ضعف جيرانه فهاجم الميتانيين ونصب صهره على عرش المملكة الميتانية (زوج ابنته الأمير ميتاني وعقد تحالفاً دائماً معه) ثم احتل حلب وتقدم في سورية نحو الجنوب حتى وصل الى مدينة قطننة (حالياً قرية المشرفة شرقي حمص) فدمرها وهزم جيوش مدينة قادش وامتدت سيطرته حتى مدينة اوغاريت وهكذا سيطر على قسم كبير من الأراضي السورية الواقعة تحت النفوذ المصري . حتى أن ملكة مصر أرسلت اليه تطلب الزواج بأحد ابنائه . ولكن لم يكد العريس

الحيي يصل الى مصر حتى وجد ان القائد العسكري حار محب قد تزوج من الملكة وأعلن نفسه ملكاً على مصر فكان مصير العريس الحيي القتل ، واصبح الحادث السبب المباشر (فقط) لاشمال حرب بين الحثيين والمصريين دامت مدة طويلة . ومن أشهر معاركها المعركة التي جرت قرب مدينة قبادش (غربي مدينة حمص) وقاد فيها الجيوش المصرية رمسيس الثاني ثم سجلت أخبارها على جدران معبد الكرنك . وأخيراً اضطر الطرفان إلى عقد معاهدة سلام وصدافة بسبب ظهور الخطر الآشوري من الشرق . وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً بشيء من التفصيل .

أخذ الآشوريين يوجهون الضربة تلو الأخرى للمملكة الحثية . بينما أخذت تهاجمها من الغرب شعوب البحر من فريجيين وآخيين وغيرهم الذين دمروا حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م عاصمة الحثيين حاتوشاه فلم تقم بعد ذلك دولة لهم . بل ظلت بعض الإمارات الحثية المجزأة فترة من الزمن الى أن قضى عليها أخيراً الآشوريون وذاب الحثيون بين الشعوب الأخرى كالفريجيين والآراميين وغيرهم ثم تلاشى ذكركم .

٦ - حضارة الحثيين : إن قلة المصادر التاريخية المكتشفة عن الحثيين لا تساعد على رسم صورة واضحة للحضارة الحثية . ولكننا نستطيع القول بأن الحضارة الحثية تأثرت الى حد بعيد بالحضارة المصرية والحضارة البابلية .

كان نظام الملكية انتخابياً في عهد الدولة القديمة ويحق للملك ان يمين خلفاً له على أن يوافق على ذلك مجلس النبلاء (البانكو) الذي يساعد الملك في الحكم . وكان الملك القائد الأعلى للجيش والكاهن الأكبر والقاضي الأعلى ولم يؤاتيه في حياته وإنما يصبغ إلهاً بعد وفاته . ولم يعرف عن الحثيين ان

اعتلت عرشهم امرأة . وكان الملك يخول إدارة الأقاليم الى أمراء من أسرته
أو مقربيه الذين يمثلون الملك ويتراسون جميع السلطات في أقاليمهم .

وتتألف الطبقة العليا في المجتمع من الملك وأمراء الأقاليم وحكام المناطق
ورجال البلاط وكبار العسكريين والكهان . وتلك هذه الطبقة الملكية
الكبيرة وأوسعها ملكية الملك والمعابد .

أما الطبقة الوسطى فتتألف من الصناع والتجار والمحاربين وصغار الملاكين
من الفلاحين الأحرار .

رأدنى طبقات المجتمع تشكلت من العمال الأجورين الذين يشتغلون في
الصناعة والزراعة ولا ملكية لهم ، ومن العبيد الذين كان معظمهم من أسرى الحروب
ويقومون بأصعب الأعمال .

كان الحثيون يكتبون لغتهم بواسطة رموز مسماة مقتبسة عن الأكاديين
ويلاحظ فيها بعض الكلمات والتعابير البابلية .

وفي مجال الأدب والديانة تأثر الحثيون بالمصريين والبابليين . وقد نقل
كتابهم كثيراً من القصائد البابلية أو أدخلوا عليها بعض التعديلات كقصيدة
جلجاميش مثلاً . ولكنهم وضعوا بعض القصائد الخاصة بهم ومنها قصيدة عن
إله الخصب تيليبين الذي فقد فيجأة ولكن الآلهة تبحث عنه وتعيده . ويرمز
فقدان الآلهة الى موت الطبيعة رجاء الحياة عليها . أما عودته فترمز الى عودة
الحياة على الأرض . وتأتي في رأس الآلهة الحثية الآلهة عريمنا وزوجها العاصفة
تيشوب وهما عدة أولاد من الآلهة بنات وذكور .

وأم الأعياد عند الحثيين عيد رأس السنة ويقع في الشتاء ، وعيد النبات
في الربيع ، وعيد فلاح الأرض ، وعيد الحصاد ، وغيرها من الأعياد الاستثنائية
التي يقررها الملك وفي الأعياد تقدم القرابين وتقام الاحتفالات وتجري زيارات

للمعابد . واعتقد الحثيون أن اقدارهم منوطة بالآلهة وهي التي تنظم سير
الحوادث وتعاقب الانسان اذا لم يؤد واجباته تجاهها وقد تؤجل العقاب ولكنها
لا تفعله .

بالاضافة الى النصوص الدينية فقد وجد بين الوثائق التي اكتشفت مؤخراً
في مدينة حاتوشاه القديمة بعض النصوص التاريخية وهي عبارة عن حوليات
تتحدث عن أهم الاحداث التي جرت في عهد بعض الملوك سنة بعد سنة . وهناك
بعض الرسائل المتبادلة بين الملوك الحثيين وامرائهم أو مع ملوك آشور وابل-ل
ومصر . كما وجدت بعض الكتب التي تتحدث عن تدريب الحثول وصنع المعادن
ومصير اسرى الحروب .

وفي مجال الفن تأثر الحثيون ، الى حد ما ، بالبابليين والمصريين . ورغم
ذلك فقد امتازت الفنون الحثية ببعض الصفات الخاصة الاصلية كاستعمال الاعمدة
المصفوفة أفقياً في الاسوار ، وتزيين مداخل القصور وابواب المدن بمائيل ورسوم
تمثل مخلوقات حقيقية وخيالية صور للآلهة والحيوانات المقدسة في الصخور .
واقتبسوا عن المصريين تمثال ابي الهول والقرص المجنح رمز الإله آتون . ولكن
السفينكس الحثي تميز عن المصري بان رأسه كان رأس امرأة وجسمه جسم أسد
بينما رأس ابي الهول يمثل رأس رجل على جسم أسد وقد لعب الحثيون دوراً
كبيراً في نقل بعض المواضيع الفنية والادبية والدينية من بلاد الشرق الى العالم
الاغريقي .

سورية الكبرى

فينيقية — فلسطين — سورية الداخلية

في العصور القديمة أطلق على المنطقة الممتدة ما بين مصر وبلاد النهرين اسم سورية وفلسطين . وشملت سورية القسم الشمالي من هذه المنطقة مع الهضاب السورية المجاورة التي تحولت تدريجياً الى ما يسمى الآن بالصحراء السورية . أما فلسطين فقد شملت القسم الممتد من منابع نهر الاردن حتى صحراء سيناء وأطراف دلتا النيل . وقد اطلق اليونانيون على منطقة الساحل السوري ، الممتدة تقريبا من حيفا حتى مصب نهر العاصي ، اسم فينيقية . أما الشعوب الشرقية القديمة فقد اطلقت غالباً على كل المنطقة التي تشمل سوريا الداخلية وفلسطين وفينيقية اسم بلاد او ارض كنعان (في التوراة والوثائق المصرية) او بلاد آمورو (أي بلاد الغرب حسب ما جاء في الكتابات المسمارية في بلاد النهرين) .

١ — الظروف الطبيعية : تعتبر سورية وفلسطين وفينيقية من البلاد الجبلية تقريباً وتخلو من الانهار الكبرى اذا استثنينا مجرى الفرات الاوسط في شرقي سورية . وفي البحر المتوسط تصب بعض الانهار الصغيرة ليست ذات اهمية كبرى وأكبرها نهر العاصي . كذلك نهر الاردن الذي يعبر فلسطين من الشمال الى الجنوب ليصب في البحر الميت لا يُعتبر ذو أهمية ويضعف منسوبه

كثيراً في الصيف . أما البحر الميت فهو بحيرة مالحة قليلة الفائدة لأنها غير صالحة لحياة الأسماك . وتقطع السلاسل الجبلية قسماً كبيراً من سورية وفلسطين ولكن بعض السهول الممتدة فيما بينها أو إلى جوارها تعتبر صالحة للزراعة خاصة زراعة الأشجار المثمرة كالكرمة والتين والزيتون والحمضيات ، وكذلك زراعة الحبوب كالقمح والشعير ، وزراعة الخضراوات . وقد انتشرت قديماً على الجبال غابات كثيفة من الأشجار التي تلاشت تقريباً في الوقت الحاضر .

وهكذا لم تساعد الظروف الطبيعية في سورية على إقامة شبكة كبيرة موحدة للري كما كان الأمر في مصر وبلاد النهرين . فإذا لم تهطل الأمطار في سورية ساد الجفاف وعم الجوع والفقر خاصة في البادية السورية وجنوب فلسطين وصحراء سيناء . لذلك اعتمدت حياة سكان هذه المناطق خاصة على الرعي وتربية الحيوانات كالغنم والماعز وفيما بعد الجمال .

٢ - السكان : بما أن سورية تقع على الطرق التي كانت تمتد من وادي النيل إلى حوض دجلة والفرات ، ومن هضاب وصحاري شبه الجزيرة العربية إلى موانئ البحر المتوسط والسلاسل الجبلية في آسيا الصغرى فمن الطبيعي أن تلتقي بها طرق القوافل وبالتالي تتلاقى شعوب وقبائل متعددة . لذلك ليس غريباً أن يكون التركيب البشري في سورية عبارة عن خليط مبرقش .

في الألف الثالث قبل الميلاد تشكل العنصر الأساسي للسكان في سورية من القبائل السامية الغربية التي أطلق عليها عامة اسم الكنعانيين . وأصبحت المنطقة الممتدة من مصر إلى حوض نهر العاصي تسمى باسمهم أي بلاد كنعان . ولكن لم يكن الكنعانيون هم السكان الأوائل في سورية وفلسطين بل تتحدث التوراة بشكل أسطوري عن وجود شعوب في هذه المنطقة أقدم من الكنعانيين

وقصورهم على شكل عمالقة أحيانا أو أشباح أو همامة يتكلمون بلغة غير مفهومة
وأحيانا تطلق عليهم سكان الكهوف . وتدل الموجودات الأركيولوجية من عظام
وصور بشرية تعود إلى العصر الحجري الحديث على أن هؤلاء السكان القدماء لا يشبهون
السكان الساميين . إن القبائل السامية جاءت من الجزيرة العربية إلى سورية وفلسطين
ومن هناك انحدرت إلى وادي الرافدين . وبالمقابل فقد انحدرت إلى سورية من الشمال
قبائل غير سامية كالخوريين ، وفيما بعد الحثيين الذين وصلوا في عهد غارات الهكسوس
حتى مدينة هبرون جنوب فلسطين . وفي القرنين الثالث عشر والثاني
عشر قبل الميلاد اندفعت إلى سورية شعوب البحر فكان منهم الفلسطينيون
الذين استقروا في المنطقة الساحلية من فلسطين التي سميت باسمهم .

٣ - عصور ما قبل التاريخ : تدل التنقيبات الحديثة التي قام بها علماء
الآثار الأجانب في سورية وفلسطين على أن هذه المنطقة كانت قد مرت في
عصور ما قبل التاريخ بعدة مراحل من التطور الاقتصادي رافقها تطور وتبدل
في الأدوات والمنتجات والمصنوعات . ففي شمال فلسطين اكتشفت مواقع
حضارية تعود إلى العصر الحجري القديم وعظام « إنسان نياندرتال » الذي كان
قصير القامة ذا جمجمة صغيرة وجهة محدبة . وفي جنوب فلسطين تستمر
التنقيبات والدراسات حول المواقع الحضارية التي تعود إلى العصر الحجري
المتوسط (الميزوليتيك) . وقد امتاز هذا العصر بصقل الأحجار لصنع الأدوات
والأسلحة وبتدجين الحيوانات وسكنى الكواخ بدلا من الكهوف وبدء ممارسة
الزراعة .

وقد اكتشف في جميع أنحاء سوريا وفلسطين وفينيقية مواقع حضارية
تعود إلى العصر الحجري الحديث الممتد من الألف السابع حتى الألف الرابع
قبل الميلاد ويمتاز هذا العصر بتقدم الزراعة والصناعة وتربية الحيوانات . كما

اكتشفت ايضاً في هذه المناطق مواقع حضارية كثيرة تعود الى العصر الحجري النحاسي الذي يمتاز بتطور اكثر في مختلف مجالات الحياة ، وبدء ظهور المدن المحاطة بالأسوار ، وظهور الفن التصويري . ومن أهم هذه المواقع الحضارية رأس شعرة (أو غاريت) ، وتل الجديدة ، وتل حلف ، وتل براك ، وغيرها . وتوجد نماذج متعدد من آثار هذه المواقع الحضارية في المتحف الوطني بمدينة حلب . . .

٤ - دول المدن : من الميزات الخاصة لسورية عدم تشكل الدول الكبرى وانما قام عدد كبير من دول المدن المستقلة بعضها عن بعض . ويحكم كل مدينة ملك من كبار الأشراف الاغنياء اصحاب العبيد والاراضي الواسعة . ولكن هؤلاء الملوك لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم سلطة استبدادية مطلقة كما حقق فرعون مصر وملوك سومر وأكاد ، بل كان يقيد سلطة الملوك السوريين مجلس شيوخ يتألف عادة من الأشراف وكبار الاغنياء . كما لم يكن هؤلاء الملوك منذمجين بالالهة كما كان الامر في مصر وانما كان بعضهم يحترم أحياناً كالهة بعد الموت أو يعتبر أحياناً كهناً ايضاً . وربما دخلت فكرة تأليه الملوك الى سورية عن طريق الاتصال الحضاري مع مصر ولكن هذه الفكرة ظلت ضعيفة الأثر وان كان يطلق على بعض الملوك بار حدد أو ابن حدد أي ابن الاله .

كانت كل دولة من دول المدن تتألف من مدينة مع المناطق المجاورة لها وتسمى الدولة باسم تلك المدينة التي هي العاصمة . (كدولة أو مملكة ماربي ومملكة اوغاريت ومملكة صور ومملكة صيدا على سبيل المثال) . وفي بعض الاحيان كأوقات الخطر الخارجي مثلاً كان يتم تحالف أو اتحاد بين عدد من دول المدن مع محافظة كل مدينة على الحكم الذاتي . ولكن مهما يكن من أمر لم

تقم في سورية- هذه البلاد التي تنهطعها الجبال وتخلو من شبكة ري كبيرة
موحدة - دول كبرى كما كان الأمر في مصر وبلاد النهرين .

فينيقية

في النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ازدهرت مدينة اوغاريت
(رأس شمرة) التي تقع على ساحل البحر المتوسط شمال اللاذقية في نهاية سهل
خصب غير كبير . لذلك ليس من قبيل الصدفة أن نرى وثائق أرشيف اوغاريت
تتحدث كثيراً عن الزراعة .

ان التقدم الزراعي في اوغاريت قاد الى تطورات اجتماعية كبيرة
فتفسخت تدريجياً المجموعات الفلاحية . أي أنه عندما أصبحت الارض تباع
وتشتري أخذت قطع الارض تتمركز في أيدي بعض الاشخاص كملكية
خاصة وأصبح هؤلاء من كبار الملاكين الاغنياء على حساب فقدان الآخرين
لأملاكهم وافتقارهم . ان عملية نشوء الفروق الاجتماعية وظهور طبقة غنية
ساعدت على تطوير وازدهار التجارة الخارجية .

لقد ازدهرت اوغاريت كمرکز تجاري هام فاقامت علاقات تجارية
دائمة مع قبرص وكريت . وعن طريق اوغاريت كانت ممتوجات آسيا الصغرى
وحوض بحر ايجة كالمواد والمصنوعات المعدنية خاصة تصل الى ماري وابل
لتتبادل مع ممتوجات بلاد النهرين . لذلك ليس غريباً أن نرى تأثير الحضارة
البابلية على الحضارة الفينيقية . وليس من قبيل الصدفة أن تنشأ في اوغاريت
أبجدية مسمارية تعتمد بالاساس على المسمارية البابلية ولكن مع تغيير وتبسيط
كبيرين حيث من مئآت الرموز المسمارية البابلية تم اختيار (٢٩) حرفاً .

أما مدينة جبيل (باليونانية بيبلوس) التي تقع على خليج صغير عند مصب نهر ابراهيم (ادونيس) على بعد ٤٥ كم شمالي بيروت) فقد تأثرت بالحضارة المصرية بصورة اكثر حتى انها خضعت أحيانا للنفوذ السياسي المصري خلال الالف الثاني قبل الميلاد . وقد اكتشفت في جبيل كتابات هيروغليفية وآثار من انتاج الفنانين المصريين . وتجدر الملاحظة الى اننا لانعلم عن قيام أي اتحاد سياسي بين جبيل واوغاريت ولم تحاول كلتا المدينتان توسيع نفوذهما وأملاكها الى داخل البلاد أي باتجاه الشرق . .

في القسم الداخلي من سورية تزدهر في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد مدينة حلب ولكنها في منتصف الألف الثاني تصاب بضعف وتقع تحت سيطرة الحثيين . فأصبحت مدينة قادش هي المركز الرئيسي في سورية . وبعد طرد الهيكسوس من مصر استطاعت قادش ان توحد جهود امراء سورية وفلسطين المبعثرة لصد تقدم جيوش فراعنة الاسرة الثامنة عشرة داخل سورية ولكن تلك الجهود باءت بالفشل كما كنا قد ذكرنا سابقا . وهكذا نرى ان جميع المحاولات لتوحيد سورية في دولة واحدة لم تأت بشمر . أضف الى ذلك فإنه في القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقع كل من اوغاريت وحلب وقادش تحت سلطة الحثيين حتى ان اوغاريت قد دمرت حوالي سنة ١٤٠٠ ق . م .

في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد تحتل مكان الصدارة مدن فينيقية الجنوبية - جبيل ، صيدا ، صور - . هذه المدن استغلت الصراع الدائر بين المصريين والحثيين لتدعيم استقلالها . كما انها ورثت عن اوغاريت (التي تدمرت) الطرق التجارية المؤدية الى عالم بحر ايجه . ففي أول الأمر ازهرت مدينة صيدا اذ أنه ليس دون سبب أن نرى هو ميروس يسمي الفينيقيين في قصائده بالصيداويين . ولكن حوالي عام ١٢٠٠ ق . م . تتدهور الاوضاع في صيدا

بسبب هجوم من قبل شعوب البحر فينتقل مكان الصدارة بين المدن الفينيقية إلى مدينة صور . وقد جاء في إحدى الأساطير ان الارض سُكنت بعد خلق العالم من قبل أنصاف الآلهة ثم من قبل الجبابرة وإن أحدهم أزوس الصيد هو الذي بنى مدينة صور . ومن أشهر ملوك صور في القرن العاشر قبل الميلاد أبي بهل وابنه حيرام الذي وسّع المدينة وجدد بناء معبد الإلهة ملقارت وأقام علاقات طيبة مع سليمان ملك العبرانيين وارسل له أخشاب الأرز والعمال المهرة ليساعده في بناء قصره وهيكله .

ان السهل الفينيقي الضيق ، الذي تقوم من ورائه سلسلة جبلية تكاد تفصله عن داخل سورية ، لم يكن كافياً لسد حاجة السكان من الانتاج الزراعي وخاصة الحبوب فاستوردوها من البلدان المجاورة . وقد كان ضيق المنطقة وفقرها ، وتكاثف السكان وكثرة المدن ، وموقع الساحل الفينيقي الاستراتيجي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكثرة الاخشاب الصالحة لبناء السفن ... - كل هذا كان من العوامل التي دفعت الفينيقيين أن يتوجهوا بأنظارهم نحو البحر ويمارسوا التجارة البحرية بصورة رئيسية فكانوا من أول الرواد والمستعمرين في العالم القديم الذين انشأوا امبراطورية بحرية تجارية تصل الشرايين البحرية ما بين مستعمراتها التجارية . وقد اتجه الفينيقيون أول الامر الى قبرص وأتوا منها بالمنتجات الزراعية والنحاس . ثم اتجهوا نحو مصر وأسسوا فيها المستودعات والمحطات التجارية . وتحولوا شمالاً نحو رودس وكريت وعالم البحر الأسود وايحة وعادوا من هناك بالاسماك المملحة والذهب والفضة والرصاص والقصدير . ثم انطلقوا الى نقاط أبعد في البحر المتوسط فوصلوا الى صقلية ومالطة وعبروا مضيق الزقاق (مضيق جبل طارق) الى بحر الظلمات حتى وصلوا بروتونية في فرنسا وانطلقوا منها الى سواحل

انكثرتا الجنوبية الغنية بالقصدير فسموا تلك البلاد بريطانيا (بلاد القصدير) ،
وهكذا ترك الفينيقيون آثاراً لهم في مختلف الاصقاع واكتسبوا خبرة
وشهرة كبرى في امور الملاحة . وقد ذكرنا سابقاً كيف أن الملاحين الفينيقين
طافوا حول افريقيا بتكليف من أحد فراعنة مصر (نيمخار) كما صنع الفينيقيون
أساطيل تجارية الملوك الاشوريين والملك سليمان واقتبس اليونانيون صناعة
السفن عنهم . وهكذا كان الفينيقيون وسطاء في نشر الحضارات على شواطئ
البحر الابيض المتوسط فكانت سفنهم تحمل مع البضائع الافكار والآلهة
والصنائع وتصل الحضارات المتقطعة بعضها مع بعض فاتصلت اليونان ببابل
ومصر بآسيا الصغرى واليمن باليونان .

في الالف الاول قبل الميلاد انتشرت المستعمرات التجارية الفينيقية ببقاع
متعددة في حوض البحر المتوسط . وقد أسس الفينيقيون عدة مدن في صقلية
وسردينيا ومالطة وجزر البليار وعلى سواحل فرنسا واسبانيا وشمال افريقيا .
غير أن أهم مستعمرة تجارية لهم كانت مدينة قرطاجة (قرب تونس الحالية
وكان اسمها الفينيقي قارط هادشت أي المدينة الجديدة) التي اصبحت مركزاً
لدولة تبرز البلاد الام (فينيقية) . وقد استطاعت أن تظم تحت سيطرتها القسم
الاكبر من الحوض الغربي للبحر المتوسط وظلت تتصارع مع الامبراطورية
الرومانية زمناً طويلاً وحصلت بينها الحروب المعروفة في التاريخ باسم « الحروب
البونية » التي غزا فيها القائد القرطاجي هانيبال ايطاليا واقترب من روما وقيل
أنه غرزرجمه في سورها . ولكن استطاع الرومانيون في نهاية هذه الحروب
الاستيلاء على قرطاجة عام ١٤٦ ق . م فهدموها وخربوها .

وتجدر الملاحظة إلى أنه رغم ادعاء الملوك الفينيقين بالسلطة على مستعمراتهم

فقد كانت سيطرتهم بالواقع اسمية فقط على نلسك المستعمرات باستثناء بعض الحالات النادرة . أما بصورة عامة فقد كانت مستعمرات المدن الفينيقية مستقلة عن المدينة الأم و اقتصر الأمر على إقامة علاقات طيبة معها وتقديم بعض الضرائب او الهدايا لمعبد الاله ملكارت في صور .

في مجال الصناعة اشتهر الفينيقيون خاصة بصنع الصباغ الارجواني الاحمر حتى ان اليونانيين اطلقوا عليهم اسم الشعب الاحمر (اطلق المصريون القدماء على الفينيقين اسم فينيخو فخلط اليونانيون بالخطأ بين هذا الاسم وكلمة فينقس التي تعني باليونانية اللون الاحمر ومن هنا جاءت تسميتهم للفينيقين بالشعب الاحمر) . وقد استخرجوا هذا الصباغ من الحار وأحاطوا سر صنعه بأسطورة هي ان الاله صور ملكارت كان ينتزه مع حبيبته قرب الشاطئ ومعه كلبه ، فرأت الحبيبة لسان الكلب مصطبغاً باللون الأرجواني فطلبت من الاله ثوباً بذلك اللون فأوجد سر صنعه وعلمه للفينيقين ولصور فقط .

وجرت البلاد المختلفة تقليد صور فلم تفلح . وقد استخدم الصباغ الارجواني في صبغ الاقمشة الصوفية والكتانية فاكتسبت شهرة كبيرة حيث يعطها ذلك توجاهات جميلة ولا يتغير لونها عند الغسل . كذلك اشتهر الفينيقيون بصناعة الزجاج . ولاقت مصنوعاتهم الزجاجية رواجاً كبيراً في مختلف البلدان حتى كتب المؤرخون الكلاسيكيون (اليونانيون والرومانيون) أن اكتشاف صنع الزجاج كان على يد الفينيقين . ولكنهم بالواقع يدينون بذلك الى معلمهم المصريين والبابليين . غير ان صناعة الزجاج في فينيقية بلغت اكثر دقة وإتقاناً مما كان عليه في وادي النيل وبلاد النهرين . ولم تصنع الاواني الزجاجية للحاجات الضرورية فقط وانما للزينة ايضاً لذلك زُيّنت باللوان والرسوم المحفورة أو النافرة . كما كان الفينيقيون احياناً يقلدون الحجارة الكريمة

ويصنعون منها الكؤوس والعقود والمرايا . وقد دلت التنقيبات الاثرية أيضاً على انتشار صناعة الاواني الخزفية المزخرفة في مختلف المدن الفينيقية . كما برع الفينيقيون بتزيين الجدران بقطع الزجاج الملونة اي مايسمى بالفسيفساء التي اكتشفت نماذج منها في قبر احيرام قرب صور وقد رسمت على جدرانه الاسماك والطيور والاثمار . كذلك ساعد وجود الاخشاب الكثيرة على صناعة السفن في موانئ صيدا وصور وجبيل . وكان المجدفون عادة من العميد .

لقد وقعت المدن الفينيقية تحت سيطرة الآشوريين اعتباراً من سنة ٨٦٨ وحتى سنة ٦٠٥ ق . م . ثم وقعت تحت سيطرة الكلدانيين (البابليين الجدد) حتى سنة ٥٣٨ ق . م . حين دخلت تحت النفوذ الفارسي . وخلال الفترات السابقة كانت فينيقية تخضع احياناً وفي اوقات متقطعة إلى النفوذ المصري . وقد ظل النفوذ الفارسي في فينيقية قائماً بين مدينتي جزر حتى دخلتها جيوش الاسكندر المكدوني بعد انتصارها على الفرس في معركة ايسوس سنة ٣٣٣ ق . م . وظلت فينيقية تنتقل بولائها بين البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر في مصر وسورية حتى جاء القائد الروماني بومبي إلى الشرق سنة ٦٤ ق . م فدخلت تحت حكم الرومان وفيما بعد البيزنطيين حتى الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع ميلادي حيث دخلت تحت ظل الخلافة العربية .

عبد الفينيقيون كغيرهم من الساميين قوى ومظاهر الطبيعة . وآلهة الفينيقيين أرضية تسكن في السهول و الجبال والانهار والاشجار . ثم اصبغ لبعضها صفات سماوية أو مجرية إلى جانب صفتها الأرضية . وهي أيضاً آلهة محلية ، فلكل مدينة إله خاص ، ويطلق على كل إله اسم بعل أي سيد أو مالك المدينة . فالإله ملكارت مثلاً يعني ملك المدينة (في صور) . وهكذا لم يكن للآلهة

الفينيقية أسماء معينة بل كان الإله يسمى سيد المدينة أو ملكها ويأخذ اسمه عنها (أي عن اسم المدينة) . وعبد الفينيقيون أيضا الآلهة المؤنثة والإلهة تسمى بلعث . وبلعث جبيل هي عشتارت وتقابل عشتار البابلية .

وقد مارس الفينيقيون الطقوس الدينية داخل المعابد أو خارجها . وتصنع للألهة تماثيل توضع في زوايا المعابد . كما كان الفينيقيون يقدمون الضحايا البشرية للآلهة . وتضم المعابد إلى جانب الكهان والساكنات عدداً من العاهرات المقدسات . كما كانت المرأة تضحى بعذريتها في معبد عشتارت إذا أرادت أن تكسب رضا الآلهة . ومن أشهر الاساطير الدينية الأوغاريتية ملحمة تتحدث أن إله الموت (موت) يقتل إله النبات (عليان بعل) ، ولكن صديقه الآلهة (عناة) تنتقم له ، فيبعث حياً إله الصغير عليان بعل على غرار أوزيريس في مصر وتقومز في بلاد النهرين . وهناك أيضا بعض القصائد الدينية حول مآثر الأبطال كصراع سيد الأرض مع سيد البحر التي ترمز إلى هجوم البحر على البر ثم تراجعه عنه .

إن أهم ما أعطاه الفينيقيون للحضارة الإنسانية هو اختراع الحروف الأبجدية . وقد اكتشفت أبجدية في أوغاريت تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتتألف من ثلاثين حرفاً . ثم اكتشفت أبجدية أخرى في جبيل أحدث من أبجدية أوغاريت بقرن تقريباً . وتتألف من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً كتبت من اليمين إلى اليسار . وقد نقل اليونانيون هذه الأبجدية في القرن التاسع قبل الميلاد وأدخلوا عليها بعض التعديلات فكتبوها من الشمال إلى اليمين ، كما ظلت بعض الأحرف اليونانية تحمل الاسم الفينيقي السابق مثل (ألفا) وكانت بالفينيقية (الف) وتعني ثور ، وحرف (بيتا) وكانت بالفينيقية (بيت) وتعني المنزل . ثم انتقلت تلك الأبجدية من اليونانيين إلى الرومانيين وسائر شعوب العالم الغربي . كذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقيين وأخذها عنهم

الانباط والتدمريون والعرب والهنود والأرمن وغيرهم من شعوب الشرق . وإن
الكتابات الفينيقية التي وصلتنا قليلة حيث كانوا يكتبون على ورق البردي القابل
للتلف . ولولا الرقم التي اكتشفت في اوغاريت لما امكنا الاطلاع على بعض
الاساطير الفينيقية . وقد اقتبس العبرانيون في كتاباتهم الدينية (خاصة في سفر
التكوين وقصص الانبياء واسفار الامثال والمزامير ونشيد الانشاد) الكثير عن
الفينيقين وتؤكد الكتابات الاوغاريتية ذلك .

وقد ازدهر الفن التصويري عند الفينيقين الى درجة جيدة حيث اقتبسوا
بعض المواضيع والاساليب عن الفنانين المصريين والبابليين والحثيين وفيما بعد
عن اليونانيين وانشأوا من ذلك الاساس فناً جديداً بمواضيعه وأساليبه .

فلسطين

كانت فلسطين على علاقة وثيقة مع جارتها فينيقية في النواحي الثقافية
والاقتصادية تزودها بالمنتجات الزراعية وتستورد منها الصناعات والفنية .
منذ العصر الحجري النحاسي كان العنصر البشري الرئيسي في فلسطين
من مجموعة الساميين الغربيين الفرع الأموري من الكنعانيين . ولكن حوالي
منتصف الالف الثاني قبل الميلاد تأتي الى فلسطين القبائل العبرية (حبيرو) من
الشرق والجنوب الشرقي ، وكانت تعيش حياة قبلية تقوم على الرعي والتنقل ؛
وقد قابلها سكان فلسطين الاصليين بالعداء . وتتحدث بعض نائق (أرشيف تل
العمرنة) في مصر التي تعود الى عهد اخناتون عن خطر القبائل العبرية الذي
يهدد المناطق الاسيوية الواقعة تحت نفوذ مصر الفرعونية .

[وذكرت التوراة أن جد العبرانيين ابراهيم هاجر من مدينة اور السومرية الى مدينة حران الواقعة على نهر البليخ ثم مر " بحلب متوجهاً الى أرض كنعان . ولم يكن مع ابراهيم حين هجرته من اور الا أسرة او قبيلة صغيرة لا يتجاوز عدد افرادها بضع عشرات . وقد ذكر كثير من المؤرخين أن العبرانيين هم من الاقوام السامية بدليل لغتهم السامية . ولكن الدراسات الحديثة في علم الانسان تشير الى أن الدليل الراسي لليهود الحاليين الذين حافظوا على نقائهم العنصري يقترب من الشعوب المستديرة الرأس مع أن الساميين من الشعوب المستطيلة الرأس . كذلك فان انف اليهود الكبير لمعقوف كمنقار النسر يشبه الأنف الارمني والسومري الذي يشاهد في التماثيل المستخرجة من مدينة اور التي نزحوا عنها . في قديم الزمن ويذكر الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين : (يمثل العرق لأرمنيوي الحوريين والارمن اليهود) كما يقول في مكان آخر : « وتزاوج السكان الجدد - أي العبرانيين - مع جميع هؤلاء - أي مع الكنعانيين والاراميين والحثيين والحوريين - وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف باصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحثية وغير ذلك من العناصر غير السامية » وفي الحقيقة فانهم لا يختلفون عن السومريين الا في أن لغتهم سامية ، فاذا عرفنا ان هجرتهم وقعت في عهد حمورابي ، لم نجد غريباً أن تكون لغتهم سامية لان لغة الاكاديين والاموريين البابليين كانت منتشرة في ذلك العهد وحتى قبل ذلك العهد انتشاراً تاماً في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين لسهولة قواعدها واشتقاقاتها بالنسبة للغة السومرية التي انقرضت تقريباً في عهد حمورابي . وانه وان امتزج الشعب السومري بالساميين في ذلك العهد فانه ظل يشكل العنصر المسيطر في مدنه القديمة الكبرى كاور ولاجاش وارروك وغيرها . على ان اللغة السامية للكنعانيين كانت مسيطرة في

سورية الجنوبية ايضاً حيث استقر العبرانيون . فكان اذن لايد لهذا الشعب ان يتخذها لغته مع الزمن ، وهذا هو السبب في التقارب الشديد الذي لاحظته العلماء بين لغة الكنعانيين الفينيقيين وبين لغة العبرانيين [. (الققرة مأخوذة تاريخ الشرق الادني القديم للاستاذ عبد العزيز عثمان) .

في القرن الثالث عشر قبل الميلاد انقسم اليهود الى مجموعتين من القبائل هما الاسرائيليون واليهود . ويرى بعض المؤرخين ان كلمة اسرائيل تعود الى يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الذي لقب باسرائيل . بينما يرى مؤرخون آخرون ان كلمة اسرائيل هي كلمة عبرية معناها (شعب الله) . اما كلمة يهود فتعود الى يهودا احد ابناء يعقوب . وحسب ما جاء في التوراة كانت القبائل الاسرائيلية واليهودية ، في اول الامر ، تتجول بقطعانها في صحراء سيناء وتدخّل احيانا الى مصر . وقد تعاونت هذه القبائل مع الهيكسوس الذين غزوا مصر مما دفع الفرعون رمسيس الثاني على طردهم من البلاد فهاجروا مجدداً الى فلسطين بقيادة أحد زعمائهم السياسيين والدينيين وهو موسى .

ان القوانين والاحكام التي جاءت في الكتب الخمسة لأولى من التوراة قيل عنها انها من وضع موسى الذي قدمها الى شعبه باسم الاله يوه . ولكن في الواقع يمكننا الطعن في صحة ائادتها الى موسى لان تلك الاحكام لا يمكن أن تنشأ في وسط مجتمع قبلي متنقل يعيش على الرعي حيث نراها تتحدث عن المدن وحيياة المدينة وعن ازدهار التجارة والتعامل بالرأبي وعن استعباد اسرى الحروب وواجبات الاسرى واخيراً عن السلطة الملكية التي نشأت عند العبرانيين في مطلع الالف الاول فقط قبل الميلاد . لذلك فإن النقد العلمي يدفعنا للقول أن تلك الاحكام وضعت تدريجياً ما بين القرن التاسع والقرن السادس . ولكن كي يمطوها سمعة وقيمة كبيرتين أعادوها الى زمن غابر هو عهد موسى .

بعد عودة العبرانيين من مصر قَضَروا فترة من الزمن في صحراء سيناء . ثم اتجهوا نحو فلسطين واستولوا في القرن الثاني عشر على معظم البلاد عدا بعض المدن المحصنة خاصة مدينة اورشليم والمنطقة الساحلية التي استقرت فيها جماعة من شعوب البحر هم الفلسطينيون الذين جاؤوا من قبرص وكريت وجزر بحر ايجه ، وأسسوا بعض المدن مثل يافا وعسقلان واشدود وغزة . وكانت توجد في كل مدينة من هذه المدن حكومة محلية ، وتشكل هذه المدن تحالفاً فيما بينها . ونستدل من التوراة ودراسة الحفريات الاركيولوجية ان الفلسطينيين تميزوا بكونهم شعباً محاربا شجاعا وقد تمثل تفوقهم العسكري باستعمالهم الاسلحة الحديدية والعربات الحربية قبل العبرانيين . واطلقت على المنطقة الساحلية التي استقر فيها الفلسطينيون اسم أرض فلسطين ثم عمت التسمية سورية الجنوبية ساحلها وداخلها . ولكننا مع الاسف لانعلم الا القليل عن حضارة الفلسطينيين حيث لم تكتشف حتى الان وثائق باللغة الفلسطينية وهي مجهولة بالنسبة لنا ، ولكنها بالطبع تختلف عن اللغات السامية لان الفلسطينيين جاءوا من جزر المتوسط وايجه .

بعد احتلال العبرانيين فلسطين استقر الاسرائيليون في القسم الشمالي من البلاد حيث تسود الحياة الزراعية ، بينما استقر اليهود في جنوب البلاد وعملوا بصورة رئيسية في الرعي وتربية الحيوانات . أما سكان البلاد الاصليين من الكنعانيين فقد تعرض بعضهم للقتل واختلط البعض الآخر مع المحتلين العبرانيين .

حتى نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد عاش الاسرائيليون واليهود في مرحلة النظام القبلي العشائري . وقد كان لكل سبط رئيس أو قاض يقوده في أوقات الحرب وفي أوقات السلم يحكم بين افراده كقاض . وتجري المحاكمات

عادة تحت شجرة عالية أو عند مدخل المدينة . وكانت قوانينهم هي الأعراف والتقاليد التي تتناقلها الأجيال . ويتحدث سفر القضاة في التوراة عن أعمال القضاة ويذكر أن أول القضاة كان يشوع بن نون وأشهرهم جدعون ويفتاح وشمشون وصموئيل . وقصة شمشون الاسطورية معروفة في التوراة وتحدث عن قوة شمشون الحارقة وكيف انه قتل اسداً وألفاً من أعدائه الفلسطينيين وحمل أعمدة بوابة غزة على كتفيه وأخيراً هدم أعمدة معبد الاله داجان في غزة قائلاً « علي وعلى أعدائي يارب » . ان هذه الاسطورة الخرافية ترمز الى الصراع بين العبرانيين والفلسطينيين . وان مقتل شمشون نفسه يرمز الى تفوق الفلسطينيين الذين استطاعوا بعد موت شمشون أن يتغلبوا على العبرانيين ويفرضوا عليهم الجزية حسبما جاء في التوراة نفسها . ودام الأمر كذلك ما يقرب من عشرين عاماً الى أن أنقذهم صموئيل الذي دعا قومه الى نبذ عبادة الاوثان والعودة الى عبادة الاله الواحد . وهذا يعني دعوتهم للاتحاد في وجه أعدائهم . لذلك نراه ينتصرون على الفلسطينيين فتعترف جميع الاسباط بزعامته صموئيل . ولما شاخ طلب منه العبرانيون أن ينصب عليهم ملكاً فاختار شاول من سبط بنيامين الذي أصبح أول ملك . وبحكمه يبدأ عهد جديد في تاريخ العبرانيين .

نشوء الدولة : ان شعور القبائل الاسرائيلية واليهودية بخطر الفلسطينيين عجل في عملية اتحاد هذه القبائل . وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد تم تنصيب القائد شاول ملكاً على الدولة الاسرائيلية اليهودية . ولكن التقاليد القبلية لم تتلاش فوراً ، بل أن أول ملك ظل يشبه في كثير من الامور رئيس اتحاد القبائل . فلحل الامور الهامة يرجع الى استشارة مجلس المحاربين .

عند ما قُتِلَ شاول في إحدى المعارك مع الفلسطينيين أصبح صهرة داود ملكاً على العبرانيين ويمكننا أن نعتبره المؤسس الحقيقي للدولة الاسرائيلية اليهودية . وقد قلد داود فراغزة مصر في مظاهر وأبهة الحكم ففرض على من يريد أن يقابله تقبيل الأرض أمام قدميه . ولأول مرة أُجري احصاء للسكان من أجل فرض الضرائب ، ولكن استياء الرعية من هذه الإجراءات الجديدة أدى الى قيام التمردات العديدة التي أُخمدت بواسطة جنود من المرتزقة الغرباء ؟

قام داود بعدة حروب ناجحة وحقق انتصارات عديدة على الفلسطينيين وأمن الحدود الغربية لدولته من هجراتهم . كما حقق بعض التوسعات على الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية فضم الى دولته بعض الدويلات الصغيرة المجاورة كدويلة الآدوميين في الجنوب ودويلة مؤاب وعمرون وصوبية الآرامية . اما مدينة أورشليم الكنعانية التي صمدت في وجهه العبرانيين وحافظت على استقلالها الذاتي حوالي قرنين من الزمن بسبب متانة حصونها تعرضت أخيراً للسقوط نتيجة هجوم مفاجيء قام به داود ثم جعلها عاصمة لدولته .

في عهد سليمان بن داود يزداد جهاز الدولة اتساعاً وقوة ، وتطور التجارة الخارجية مع مصر وفينيقية وسورية الداخلية واليمن ، كما تنشط الحركة العمرانية ويؤتى بالعمال والصناع والفنانين المهرة من فينيقية لساهموا في بناء معبد الاله يهوه والقصر الملكي . ويقتني سليمان الكثير من الجوارى على غرار الملوك الشرقيين . وكانت زوجته الرئيسية ابنة احد الفراغنة المصريين . لكن نفقاته على البذخ والترف والعمران كانت تغطى على حساب زيادة الضرائب مما أدى لاستياء كثير من السكان وتمردهم ضد سياسته المالية .

أن الروايات التي تتحدث عن سليمان متضاربة . فمن ناحية تصفه كقاضي حكيم وكاتب للحكم والامثال والانشيد ، وهذا مشكوك فيه . ومن ناحية اخرى تتحدث عن ظلمه وابتزازه الضرائب الباهظة التي عانى منها خاصة سكان المناطق الشمالية بينما أعفى منها سبط يهوذا الذي ينتمي الملك اليه . ولما توفي الملك سليمان حوالي سنة ٩٣٠ ق .م خلفه ابنه رحبعام الذي تابع سياسة والده في فرضه الضرائب الباهظة على سكان الشمال فتمردوا ضده واعلنوا انفصالهم ونادوا بربيعام من سبط افرايم ملكاً عليهم ، فأيده فرعون مصر الذي يهيمه انقسام المملكة العبرية حتى تسهل سيطرته عليها . وبمساعدة ايضاً على انقسام الدولة اختلاف طراز الحياة بين الشمال والجنوب . فبينما يعيش سكان الشمال على الزراعة بصورة رئيسية نرى أن سكان الجنوب الذين يسيطرون على الحكم يعيشون حياة شبه قبلية تقوم على الرعي وتربية الحيوانات . وهكذا انقسمت الدولة العبرية الى مملكتين : المملكة الاسرائيلية في الشمال برئاسة ربيعام ، والمملكة اليهودية في الجنوب برئاسة رحبعام بن سليمان . وقد استمر التناقض والصراع بين الدولتين . وفي كليهما تتزايد الفروق الطبقيية فيعجز الفلاحون المفلسون أرضهم ويرحلون الى الصحراء ليعملوا في الرعي أو يكبلوا بالديون فيتحولون الى عبيد . بينما تظهر بالمقابل طبقة غنية . واحتجاجاً على التناقض والتفاوت الاجتماعي يظهر اشخاص مصلحون أطلق عليهم اسم انبياء واخذوا يخاطبون الجماهير في الشوارع والساحات العامة وينبشون بانهيار الدولتين الاسرائيلية واليهودية كهقاب من الله على مايجري من ظلم وفقدان العدالة الاجتماعية . فالنبي عاموس الذي كان راعياً يهبر عن استيائه من بيع الفقراء مقابل الفضة . والنبي اشعيا يدين الاغنياء الذين يجمعون بيتاً على بيت وحقلا الى

حقق . والنبي ميخا يدافع عن الفقير المظلوم ويبشر بالعدالة الاجتماعية . كما
ينادي النبي حزقيال بالمثل الاخلاقية . لكن تعاليم هؤلاء الانبياء كانت ذات
طابع ديني ، ولم تندعُ الفقراء والمستعبدين الى التمرد والثورة ، وانما اقتصر
على ادانة أعمال وتصرفات الاغنياء ، والتهديد بغضب الرب . وبشرت بأن
الاله يهوه سيرسل الملك الصالح وهو المسيح الذي سيقم العدالة والحق على
الأرض . وهكذا بُنيت الآمال على تدخل القوى الساروية لاعادة الحق الى نصابه .
ان تلك الادانات أثارت ، الى حد ما ، مخاوف الملوك والامراء والمرشدين من
القضاة والمرابين وملاكى العبيد ، لذلك نرى اجراء بعض الاصلاحات لتخفيف
حدة التناقض الاجتماعي . فيصدر الملك يوشيا حوالي سنة ٦٢٢ ق . م بعض
القوانين التي تبطل العبودية الدائمة بالاستعباد لمدة ست سنوات . والسيد الذي
يحرر عبده عليه أن يزوده بالغذاء لمدة قصيرة حتى لا يموت من الجوع . ولكن
هذه الامتيازات والتساهلات تنطبق على العبيد من سكان البلاد الاصليين بينما
لا تنطبق على العبيد الغرباء .

في سنة ٧٢٢ ق . م تعرضت الدولة الاسرائيلية للاحتلال من قبل
الاشوريين الذين هدموا عاصمتها السامرة ، وأخذوا سكانها في الأسر ، ونقلوا الى
مكانهم أناساً من البلاد الخاضعة لهم أطلق عليهم فيما بعد اسم السامريين . وفي
سنة ٥٨٦ ق . م تعرضت الدولة اليهودية (دولة يهوذا) للغزو من قبل الكلدانيين
(البابليين الجدد) . فهدم الملك الكلداني نبوخذ نصر مدينة القدس والهيكل
الذي بناه سليمان وأخذ أعمدته ، كما أخذ معه ستين ألفاً من الأسرى اليهود الى
بابل ، وظلوا هناك الى أن سمح لهم الملك الفارسي كير الذي احتل بابل بالعودة

الى فلسطين سنة ٥٣٩ ق م فأعادوا بناء القدس . ولكن لم يؤسسوا مملكة خاصة بهم ، بل شكلوا جماعة دينية يرأسها الكهنة تحت اشراف الوالي الفارسي .

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد جمع الكهنة اليهود قوانين العهود المأذمية ونسبوها الى موسى فتشكل منها الكتب الخمسة التي تحتوي على الأساطير والتنبؤات والأسفار والقوانين المدنية والجزائية التي تعتبر العبد كالممتلكات المنقولة يمكن مبادلته مقابل الحمير والبغال أو الفضة . ولكن تلك القوانين لا تسمح بقتل العبيد وإنما تسمح بضربه فقط . فاذا لم يمت العبد فوراً تحت الضرب بل مات في اليوم الثاني فإن ذلك لا يعتبر جريمة قتل ولا يستحق العقاب .

الديانة : وهكذا فإن الديانة اليهودية تعترف ، كبقية الديانات القديمة الاخرى ، بشرعية النظام العبودي . ومن ميزات الديانة اليهودية في شكلها الاخير الاعتقاد بالوحدانية الالهية ، وتحريم صنع تماثيل للكهة أو تقديس مثل تلك التماثيل . ولكن هذه الميزات لم تظهر منذ البداية حيث كانت توجد في هيكل سليمان تماثيل لحيوانات مقدسة كالثيران المجنحة مثلاً ، وظل تقديس العجل الذهبي والحية الفضية سائداً حتى القرن الثامن قبل الميلاد عندما أزيل نتيجة إصلاح ديني . كذلك سادت سابقاً عبادة الآلهة المتعددة واما عبادة الإله الواحد فقد ظهرت بعد إصلاح ديني قام به يوشيا في القرن السابع قبل الميلاد .

الاداب : ان الآداب العبرية المعروفة ذات طابع ديني . وقد أضاف الكهنة إلى الكتب الخمسة نصوصاً كثيرة كحاديث الانبياء وحوليات تاريخية ومجموعة من النصائح والحكم والاخبار والانشيد والاعاني وغير ذلك . وكثير من هذا الانتاج الادبي له قيمة فنية عالية «كنشيد الانشاد» الذي ينسب

الى الملك سليمان ، ولكنه في الواقع عبارة عن نموذج من الشعر الشعبي فيه وصف رائع للطبيعة . كما يرد فيه وصف مجازي لماناة فتاة تحرس الكرم ، ومعاونة صديقها الشاب الذي يحبها . أما سفر أيوب فله طابع آخر ويعتبر رسالة فلسفية ترد بشكل حوار يعبر عن التألم والصبر وطلب العون والرحمة والغفران ، ويتحدث عن عدم وجود العدالة في الحياة البشرية حيث أن الاثمرار يعيشون في رغد ونعم بينما الاتقياء يعانون من الآلام والعذاب دون سبب . وأخيراً يتدخل الإله يهوه ويعلن لأيوب أن شكواه ليست معقولة لأن الانسان صغير ووضع لا يعرف سر الحياة والطبيعة ولا يحق له مناقشة أمور الله وإرادته . وعندما يسمع أيوب كلمات التهديد هذه يستكين ويطلب الغفران والرحمة فيعيد له الله صحته وثروته ويرزقه أولاداً من جديد .

وقد اضيفت الى الأسفار الخمسة الاولى مجموعة من الاضافات تعرف باسم « المشنة » ، كما اضيفت بعض التفاسير التي تدعى باسم « التلمود » . وهكذا فان بعض الكتب التي أضافها حكماء العبرانيين الى التوراة كانت تعبّر عن خلاصة ملاحظاتهم وخبراتهم في الحياة . أي ان مصدرها إنسانياً وليس إلهياً .

الفنون : اقتبس العبرانيون الكثير من مظاهر حضارات الشعوب المجاورة في مصر وسورية وبلاد النهرين . فقصر سليمان وهيكله بُنينا على يد المعماريين الفينيقيين ، وفيها تقليد للفن المعماري البابلي والمعري . ولكن لا بد من القول أن الفنون التصويرية التي وصلتنا عن العبرانيين قليلة جداً حيث ان التعامل الدينية اليهودية منعت في العمود الاخيرة صنم التماثيل والصور خوفاً من عبادتها وتقديسها فأدى ذلك الى عرقلة تطور هذه الفنون .

الممالك الآرامية في سورية الداخلية

الآراميون من الشعوب السامية هاجروا في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد من شمال الجزيرة العربية وتوزعوا في المنطقة التي تمتد من بلاد الشام الى أعالي بلاد النهرين حتى الخليج العربي ومنطقة شرقي دجلة . وقد حاول البابليون والآشوريون صد القبائل الآرامية ومنعها من الاستقرار في بلاد النهرين وسورية فلم يفلحوا . بل ان الآراميين استطاعوا ايضا التوغل في اتجاه الشمال والشمال الغربي . كما استطاعوا تأسيس ممالك أودويلات صغيرة في مناطق مختلفة ، وأم هذه الممالك مملكة بيت عدن في أعالي بلاد النهرين ، وكانت عاصمتها مدينة برسيب وهي قرية تل أحمر حالياً وتقع على نهر الفرات . ومملكة بيت بجخياني أو آرام النهرين ، وكانت عاصمتها مدينة غوزانا وهي قرية تل حلف حالياً (بالقرب من رأس العين) . وقد نقل علماء الآثار الالمانيون بعض آثارها الى المانيا ، وقسم منها يوجد في المتحف الوطني بحلب . أما مملكة فدان - آرام فكانت عاصمتها مدينة حران على نهر البليخ . وفي المنطقة الممتدة بين حلب وكرميش قامت مملكة بيت آغوشي ومركزها في قرية تل رفعت حالياً . وفي سفح جبال الامانوس قامت مملكة شمال اي مملكة الشمال وعاصمتها مدينة زنجولي ، وقد خضعت حيناً للملك الآشوري سلمنصر الثالث مع المحافظة على شيء من الاستقلال الذاتي . وحوالي سنة ١٠٠٠ ق م تأسست مملكة حماة الآرامية . وقد ترك أحد ملوكها كتابة تنص على اتحاد ملوك الآراميين ضده

وعلى رأسهم ملك دمشق ابن حدد الثالث ، ولكن الإله يعمل انقذه منهم ونصره عليهم . وفي سهل البقاع بالقرب من زحلة أسس الاراميون مملكة صوبية التي قامت بينها وبين العبرانيين حروب عديدة على ماجاء في التوراة . غير أن أهم الممالك الارامية في سورية كانت مملكة دمشق ومن اشهر ملوكها رصين الذي استطاع توحيد جهود عدة ممالك آرامية للوقوف في وجه توسع العبرانيين في زمن سليمان بن داود . كما استطاع الملك بار حدد أي ابن حدد أن يضغط في مطلع القرن التاسع على المملكة الاسرائيلية والمملكة اليهودية ويتلقى منها الجزية والهدايا . وقد استمر الصراع بين الاراميين والعبرانيين مدة طويلة . كما دار في نفس الوقت صراع طويل بين الاشوريين وبين الممالك الارامية في سوريا . وقد حاول الاشوريون باستمرار اخضاع المدن الارامية لنفوذهم واضطروها مراراً الى دفع الجزية لهم . ولكن عندما تأنس بنفسها القوة تنقلب على السلطة الاشورية وتعلن استقلالها . وفي نهاية المطاف دالت الممالك الارامية على يد الملك الاشوري تيجلات بيلاسر الذي احتل مملكة دمشق سنة ٧٣٢ ق . م . كما احتل بقية الممالك الارامية ، وفرض الاشوريون سلطتهم على جميع سورية وفلسطين حتى الحدود المصرية .

قامت بمالك المدن الارامية على نفس الاسس التي قامت عليها ممالك المدن الفينيقية حيث كانت كل مملكة آرامية تتألف من مدينة هي العاصمة مع المناطق المجاورة ولها ملكها واسرتها الحاكمة . ولم تعرف الممالك الارامية الوحدة السياسية الدائمة ، بل تتحد بعض الممالك مع بعضها عند وقوع خطر خارجي وتوحد جهودها العسكرية للدفاع المشترك ضد الاشوريين أو العبرانيين مثلاً ، بينما تبقى كل مملكة مستقلة بامورها الداخلية .

وجدير بالملاحظة أنه في اغاب الاحيان كانت مملكة دمشق تتأثر

تحالف الممالك الارامية . وهذا دليل على قوتها واحتلالها مكان الصدارة بين الممالك الاخرى .

في مجال الدين كانت سورية منطقة التقاء وتماذج لكثير من العقائد السائدة في البلدان المجاورة . لذلك فقد استمدت الديانة الارامية أصولها من المعتقدات الكنعانية وتأثرت فيما بعد بـؤثرات ميتانية وحثية وفينيقية وغيرها . وقد عبد الاراميون الإله حدد (خاصة في دمشق) وهو إله الصواعق والبرق والرعد والمطر والحصب ، وسموه أيضاً ريمون ، واصبح يدعى في العهد الروماني جوبيتر الدمشقي . وأقيمت له المعابد وصنعت التماثيل وان كنيسه حنانيا بدمشق كانت بالاساس معبداً للإله حدد . كذلك عبد الاراميون قرينة حدد الإله أثار غاتيس التي انتقلت عبادتها فيما بعد الى اليونانيين والرومانيين وتعادل عندهم أفروديت وفينوس ويسمون بها الإله السورية . وقد اطلق عليها في بعض المناطق اسم عشتروت أو عشتار . كما عبد الاراميون بعض الالهة الاخرى مثل إيل وشمس وبعل وغيرهم ، وان معظم هذه الالهة مستوردة من الشعوب المجاورة .

إذا لم يلعب الاراميون دوراً كبيراً في مجال السياسة أو الفن أو الدين فإنهم في مجال اللغة والثقافة والتجارة كان لهم دور عظيم . وقد أخذ الاراميون فكرة تقسيم اللفظ الى حروف عن الفينيقيين واقتبسوا معها الحروف الهجائية الفينيقية . ولكن الكتابة الارامية تطورت وتغيرت تغييراً ظاهراً عن الفينيقية وانتقلت الى الانباط والتدمريين والعرب والارمن والفرس والهنود . وهكذا انتشرت اللغة الارامية في العالم القديم انتشاراً واسعاً . ويعود ذلك لما تمتاز به من سهولة بالنسبة لباقي اللغات السامية ، وللنشاط التجاري الواسع لدى الاراميين . وقد كان تجارهم ينقلون لغتهم في سفنهم وقوافلهم مع البضائع أينما حلوا أو نزلوا

حتى أصبحت طوال الألف الأول قبل الميلاد لغة عالمية تكتب بها المراسلات الرسمية والصكوك التجارية ، وتضاءلت أمامها اللغتان الفينيقية والعبرية . وأخذ ملوك آشور يستخدمون الكتاب الأرامي في دواوينهم وأعمالهم . ومن فروع اللغة الأرامية اللغة السريانية التي ظلت مدة طويلة لغة العلم والفلسفة وترجم عنها إلى العربية كثير من الكتب اليونانية في العصر العباسي الأول . وقد اكتشفت بعض الكتابات الأرامية وتوجد نماذج منها في متحف دمشق ، ولكن ما اكتشف منها لم يكن كافياً للتعرف على قواعدها وكيفية النطق بألفاظها وتصريف أسماؤها وأفعالها .

واشتهر الأراميون أيضاً بالتجارة حيث ساعدتهم موقع مدنهم الجغرافية لأن يلعبوا دور الوسيط التجاري بين مختلف المراكز الحضارية القديمة . وقد احتكر الأراميون تجارة سورية الداخلية واستطاعوا أن يسدوا الطرق التجارية في وجه القوافل الآشورية . ولكن الآشوريين استطاعوا منذ نهاية القرن العاشر أن يحدوا من سلطان الأراميين على التجارة وأن يعكروا ازدهار النشاط التجاري بفقراتهم المستمرة على سورية .



الاشوريون

١ - الظروف الطبيعية : إن القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين كان يدعى قديماً بلاد سوبارو أو شوراتو نسبة لاقوام قديمة جداً سكنت هذه المنطقة . وقد سكن الآشوريون في منطقة حوض دجلة الاوسط ورافديه الزاب الكبير والزاب الصغير . وتحدها جبال زاغروس وكرديستان من الشرق والشمال حيث تشكل هذه الجبال حداً طبيعياً فاصلاً لبلاد النهرين ، وكل الامبراطوريات القديمة الكبرى في عهد الاثانيين والبابليين والآشوريين والكلدانيين لم تتجاوز تلك الجبال شرقاً لمناعتها وعدم وجود مايفري ورامها . أما من الجنوب والغرب فالحدود مفتوحة ولا توجد حواجز طبيعية فاصلة بين هذه المنطقة وبقية بلاد الهلال الخصيب . وتعتبر هذه المنطقة منطقة جبليية خصبة كانت تسقط فيها الامطار الغزيرة الكافية وتنمو فيها مختلف انواع الاشجار كالاشجار المثمرة المتنوعة وأشجار الغابات كالصنوبر والبلوط والهور التي تستخرج منها الاخشاب ، كما توجد فيها شتى انواع الزراعات وتكثر فيها المراعي الطبيعية وتعيش فيها قطعان الماشية من الاغنام والماعز والابقار

وكانت تعيش في المرتفعات المجاورة الحيوانات المتوحشة من ثيران وحمير وحش ونعام وذئب وأسود وغير ذلك كما كانت هذه المنطقة (بمكس المنطقة الجنوبية) غنية بالحجارة الكلسية واللباستر والرخام .

في العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) عاش الناس في مرتفعات هذه المنطقة على الصيد وجمع الثمار . وقد عثر في المنطقة على بقاياهاكل عظيمة للإنسان القديم (نياندرتالا) كما وجدت أدوات متقنة اصنع من الحجر .

وفي العصر الحجري الحديث قامت في هذه المنطقة الحضارات الأولى في بلاد النهرين كحضارة تل جارمو (غربي مدينة السلمانية) التي تعود إلى ٥٠٠٠ ق.م وهذا أقدم مركز يدل على بدء حياة الاستقرار الزراعي حيث وجدت فيه بيوت من الطين وأدوات من الحبوب وبعض الفؤوس والمناجل الصوانية . وحضارة تل حلف على الخابور . وحضارة تل حسونة جنوبي الموصل حيث عثر المنقبون على أدوات صيد وادوات فخارية وادوات زراعية كالقوس والمخاريط وأدوات حربية كالسهام والحراب .

ولكن التمرکز البشري اعتباراً من الألف الثالث قبل الميلاد (في عصر الجلفاف) انتقل إلى القسم الجنوبي من بلاد النهرين بعد أن انحسرت مياه الخليج العربي وتشكلت السهول الرسوبية التي قامت فيها حضارات العبيد وأوروك وجمده نصر في العصر الحجري النحاسي . ومن ثم بدأت الدول تتكون فظهرت دولة سومر وأكاد وفيما بعد دولة بابل .

٢ - السكان : أقدم الناس الذين سكنوا شمال بلاد النهرين هم السوباريون أو الشوبارتيون وسميت هذه المنطقة بلاد سوبار أو شوبارتو . ويعتقد بعض المؤرخين أن السوباريين ينتمون إلى نفس الأصل الذي ينتمي

اليه السومريون ويمتون اليهم بالقرابة ، أو على الأقل كان السومريون يعيشون في الشمال مع السوباريين قبل ارتحناهم الى الجنوب واستقرارهم فيه .

وبعد هجره الاكاديين الى بلاد النهرين بقليل (وحوالي ٣٠٠٠ ق م) قامت القبائل الآشورية السامية الاصل بالهجرة الى المناطق الواقعة الى الشمال الشرقي من المناطق التي حل فيها الاكاديون . وقد جاءت هذه القبائل ايضاً من الجزيرة العربية وبادية الشام وسميت بالاشوريين نسبة الى الإله اشور ، كما سميت بلادهم ببلاد اشور وعاصمتهم مدينة اشور .

اختلط الآشوريون بالسوباريين وسيطرت لغتهم السامية القريبة من الاكادية في منطقتهم وبدأوا ينتقلون من الحياة القبلية الى الحياة الحضارية ويعملون في الرعي والزراعة والصناعة والتجارة . وقد أسست قبيلة منهم مستعمرة تجارية في كبادوكية . وكانت صلة وصل تجارية بين بلاد النهرين والافاضل بسبب كثرة المعادن هناك ، والتي تقل وتمس الحاجة اليها في بلاد النهرين . وكان رأينا أن الحضارة قد بدأت في هذا القسم الشمالي الا انها انتقلت فيما بعد الى الجنوب ، وغدا الشمال مرتعاً للقبائل البدوية والقرى الفلاحية الصغيرة التي تعرضت للغزو من مختلف الشعوب كالسومريين والاكاديين والبابليين . وكانت الشعوب الجبلية المجاورة لهم في الشرق كالغوتيين والكاشيين تشن عليهم الغارات المدمرة كلما سنحت لها الفرصة . كما حاولت الشعوب المقيمة الى الغرب من بلادهم السيطرة عليهم كالحثيين الذين وصلوا الى بابل في الجنوب والميتانيين الذين وصلوا حتى مدينة آشور . ومن امتزاج القبائل الآشورية السامية الاصل مع قبائل سامية اخرى جاءت الى بلادهم ومع القبائل الجبلية الشرقية والشامية والغربية الآسية

والآرية الأصل تشكل الشعب الآشوري الذي تكلم اللغة الآشورية السامية التي استوعبت كلمات من مختلف اللغات الأخرى وخاصة السوبارية والسومرية والأكدية وغيرها . وتميز هذا الشعب الجديد بقوة الحربية وشدة بأسه ، وجمع بين حضارة السهول الجنوبية وخشونة المرتفعات الجبلية الشرقية والشامية .

عاش الآشوريون في البداية معيشة قبلية عشائرية حيث يرأس كل عشيرة رئيس يرعى شؤونها . وكان للنساء دورهن في المجتمع ، فيشتركن في الزراعة المعزقة ويحضرن اجتماعات مجالس العشائر . ولكن العلاقات العشائرية بدأت تنفسخ بعد استقرارهم . ويزول نظام الامومة لتحل محله سيادة الأب في الاسرة ، ويصبح الرجل السيد المطلق في الاسرة فهو الذي يزوج بناته ويتحكم بزوجه كما يشاء ويلقها بـدون تعويض او لجوء الى المحاكم ، كما يحق له ان يتخذ الى جانب زوجته محظية او اكثر ، ولكنها لا تكون مساوية للزوجة بل تبقى دونها في المنزلة والاعتبار وتعامل كخادمة . ونتيجة للتطور الاجتماعي الاقتصادي تنفتت املاك العشيرة وتقوم الملكيات الخاصة ، ويقوم نظام الاستعباد فيحول اسرى الحروب الى عبيد يرعون الماشية . يعملون في الزراعة وشق الاقنية وبناء المساكن وغير ذلك من الاشغال الصعبة .

وتدريجياً نشأت تحالفات القبائل التي هي أبكر أشكال الدولة . وكانت أقوى القبائل تؤلف نواة الاتحاد ومنها يبرز الملك الذي كان في الغالب قائداً الحربي ، وكذلك كهنة المعابد الرئيسية ، ثم تشكلت دول المدن ، وان بقيت بعض قبائل الرحل التي لم تدخل في نطاق تلك الدول .

مر الآشوريون بمرحلة مضطربة تقارب الألف عام قبل أن يؤسسوا دولتهم الموحدة الخاصة بهم . وفي البداية نشأت دول متعددة في

المدن المختلفة بحكمها أمراء محليون على غرار دول المدن السومرية والأكادية . وقد خضعت دول المدن الآشورية للسيطرة السومرية ثم الأكادية وأصبح أمراؤها أتباعاً للإمبراطورية السومرية الأكادية . وبعد سقوط سلالة أور الثالثة (حوالي العام ٢٠١٥ ق.م) ، بدأ الآشوريون يحاولون الاستقلال في مملكة خاصة بهم .

٣ - الدولة القديمة : أسس هذه الدولة الملك بوزور آشور الأول في نهاية القرن العشرين قبل الميلاد حوالي سنة (١٩٠٠ ق م) ، وأسس أول أسرة آشورية استطاعت أن تحكم مستقلة . وقد كان حاكماً على مدينة آشور ثم استطاع أن يوسع حدود دويلته ويضم إليها بعض المدن المجاورة . وحاول خليفته ألوشوما أن يوسع منطقة نفوذه نحو الجنوب والشرق والغرب فنجح في ذلك واصطدم مع الملك البابلي سومو آبو ولكن المعركة لم تكن فاصلة ولو أن الملك الآشوري فخر بأنه حرر سكان أكاد وبعض المدن السومرية كأور ونيبور .

وقد ادعى ألوشوما وخلفاؤه من بعده بأنهم حملة لواء الحضارة السومرية - الأكادية العريقة وحاولوا حماية بلاد النهرين من العيلاميين والساميين الغربيين . وكانت أسماء الملوك الآشوريين أكادية محضة ، وكلما احتلوا مدينة جديدة يزعمون أنهم حرروها . ومن المحتمل أنهم خططوا لإنشاء إمبراطورية عالمية ينطلقون بها من آشور فيرون الإمبراطورية السومرية - الأكادية .

ومن أشهر ملوك هذه الدولة سارجون الآشوري الأول الذي فكر في إعادة أيجاد سميح الفاتح الأكادي العظيم وحاول ذلك . ومع أنه وسع حدود مملكته إلا أنه لم يكن بمقدر الشعب الآشوري الذي كان في ذلك الوقت قليل العدد نسبياً تحقيقاً إمبراطورية كبرى . وقد توسعت التجارة

الآشورية وكانت العلاقات رقيقة بين آشور وآسيا الصغرى حيث أقام الآشوريون مراكز تجارية في كبادوكية ومستعمره تجارية في كول تبه في قلب الأناضول . ولا بد أن الدولة الآشورية القديمة كانت من القوة بحيث كانت تستطيع حماية الطرق المؤدية الى هناك .

ويعتبر الملك شمسي حداد الأول الذي عاصر حمورابي من الملوك العظام في هذه الفترة . وقد وسع حدوده الى غربي الفرات وسيطر على ماري وسمى لإعادة الوحدة الى بلاد النهرين . وبنى بعض المعابد ونظم الحياة الاقتصادية . لكن حمورابي أخضع بلاد آشور لحكمه وأتبعها بابل بعد وفاة شمسي حداد الأول فانتهى بذلك حكم الأسرة الأولى من الملوك الآشوريين .

وخضع الآشوريون للحكم البابلي طوال عهد الدولة البابلية . وكان ملوكهم يحكمون كولاة للبابليين الى ان سقطت بابل في العام (١٥٩٥ ق م) على أيدي الحثيين ، فاستقل ملكهم شمسي حداد الثاني وأسس الأسرة الثانية ووسع حدود بلاده حتى وصلت الى البحر الابيض المتوسط (حسب بعض الوثائق) ، كما أخضع لحكمه بلاد أرمينيا ، وأصبحت آشور من أهم مدن الشرق .

واشتهر من بعده بوزور آشور الرابع فحارب الكاشيين الذين حكموا بابل ثم عقد معهم صلحاً لتعيين الحدود بين أملاك الدولتين لصالح الآشوريين .

وحكم من بعده ملوك ضفاف فغزاهم الميتانيون الذين احتلوا آشور والمناطق الواقعة الى جنوبها حتى الاراضي السهلية البابلية التي كانت خاضعة

للكاشيين . وهكذا خضع الآشوريون في الوقت ما بين (١٤٥٠ - ١٣٧٥ ق . م) الميتانيين .

رغم ازدهار التجارة والحياة الاقتصادية عامة في عهد الاسرة الاولى نجد ان الامور قد تجمدت في عهد الاسرة الثانية ، وساد نظام الاقطاع تحت الحكم الميتاني ، وبدأ عدد العميد يزداد نتيجة الغزوات والحروب ، وساءت الاحوال الاجتماعية والاقتصادية . ولكن بالمقابل ازداد عدد السكان في آشور وتطعموا عرقباً بالميتانيين الذين كان تأثيرهم كبيراً ، كما اقتبسوا من الكاشيين تربية الخيل التي أصبحت تستخدم على نطاق واسع ، وبرع الآشوريون في استخدامها في الحروب لجر المركبات الحربية . وتعلموا صناعة الحديد فأكثروا من استعماله وصنعوا منه أسلحتهم .

٤ - الدولة الوسطى : ضعف الميتانيون وانقسموا الى دولتين وانشغل حليفهم فرعون مصر امنحوتب الرابع (اخناتون) باصلاحاته الدينية فقام أربابا حدد الاول بالثورة ضد الميتانيين وحرر بلادهم من حكمهم ، واسس الاسرة الثالثة التي حكمت حتى نهاية الدولة الوسطى ، ولقب نفسه بوالي انليل بعد أن كان يدعى بالأمير السكاهن لآشور تحت النفوذ الميتاني . ولقب والي انليل هو لقب الملوك السومريين والاكاديين ، وكان شمسي حدد الاول قد أطلقه على نفسه ايضاً للدلالة على انه ملك كبير ومستقل .

استلم الحكم من بعده ابنه آشور اوباليط فعقد اتفاقاً مع الحثيين وهاجموا الميتانيين وقضوا على دولتهم حوالي العام (١٣٧٠ ق . م) . فاستقل الآشوريون نهائياً وبدأت بلادهم تتقدم وتوسع حدودها حتى

رسلت الى كركميش على الفرات ، كما تدخل اشور اوباليط في بابل ، فزوج ابنته من ملك الكاشيين وحكم حفيداه في بابل التي خضعت لنفرد الآشوريين .

كانت المهمة السياسية والعسكرية لخلفاء اشور اوباليط تتركز دائماً على غزو وضم البلاد التي كانت خاضعة للميتانيين . ومن أجل هذا كانوا يصطدمون مع الحثيين الذين يريدون طردهم من كركميش وشاطئ الفرات . واضطر الآشوريون كثيراً الى التراجع ولكن قوتهم البطولية لم تشل إطلاقاً بسبل كانوا يعادون الكرة كل مرة . وانتصر حدد نيراري الاول على الكاشيين في بابل وأخضعهم لنفوذه كما انتصر سالمنصر الاول على تحالف الحثيين مع الاراميين .

وفي عهد توكولتي نينورتا أعظم ملوك القرن الثالث عشر قبل الميلاد وصلت الدولة الآشورية الى أوج ازدهارها . فقهر بابل ونقل شمال الاله مردوخ الى آشور ، وهزم الحثيين واحتل الأراضي الواقعة الى الشمال من بلاده حتى بحيرة وان ، واجبر سايقارب من ثلاثين الف حثي من منطقة كركميش على الانتقال الى أراضي آشور ووطنهم هناك ، كما حارب العميين وهزمهم وأوقف تقدمهم ، وسمى نفسه (ملك الجميع وملك الجهات الاربع وملك سومر وأكاد) .

رغم انتصاره الساحق على أعدائه في ساحات المعارك لم يستطع الوقوف في وجه الضغيان الحضاري البابلي في بلاد آشور . فقد حاول خلق فن آشوري خاص وحضارة آشورية مستقلة عن التقاليد الميتانية والبابلية ولكنه لم يستطع

منع التغلغل الحضاري البابلي خاصة في مجالات اللغة والادب والديانة . ومع ذلك قام بوضع اشور إله الامبراطورية الاشورية في المكانة التي كان يحتلها انليل رأس الالهة السومرية ومردوخ الاله الأكبر للبابليين ، وقد مهد هذا لاتحاد الالهة البابلية والاشورية فيما بعد . واخيراً قتل الاشوريون هذا الملك العظيم وانشقوا على أنفسهم حول الطريقة الواجب اتباعها لتحقيق فكرة الامبراطورية الاشورية العالمية . وقد رأوا تفوق جيرانهم الحضاري عليهم ف شعروا بوجوب اكتساب الحضارة البابلية وحكم الشعوب المغلوبة بطرق سياسية وعسكرية عوضاً عن الاعتماد على قوة الجيش فقط في الفتح والحكم .

بعد موت توكولتي نينورتا ضعف الآشوريون فتيجه انشقاقهم الداخلي وضغط الميلايين عليهم بعد قضائهم على الكاشيين في بابل عام (١١٧٠ ق . م) . كذلك استلم الحكم في بابل ملك بابلي قوي هو نبوخذ نصر الاول وهاجم آشور وحكمها مباشرة فترة من الزمن ، الا أن الاشوريين هزموه واستقلوا عنه .

واستلم الحكم الملك تيفلات بلانزر الاول الذي ورث عن أبيه جيشاً ياباً ومدرباً ، فبدأ مباشرة باعادة امبراطورية توكولتي نينورتا الى وجود ، وحقق فكرة الامبراطورية الآشورية العالمية التي ظلت تتجدد المسرة . الإخرى من عهد آشور او باليط في القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى عهد ير بانيبال في القرن السابع ، وفي كل مرة أكثر قوة وحامسا وصلابة . حارب ن بلانزر الاول في الجبال الارمنية ضد الموشكيين والخوريين وأخضعهم ، ووصل الى البحر الاسود وتقدم حتى ملاتيا في الاناضول وأجبر

أهلها على دفع الجزية . ثم احتل بلاد بابل و غزا سورية ووصل الى البحر الأعلى و دفع أمراء بلاد الشام الجزية له . كما خاض المعارك الكثيرة ضد الاراميين ولاحقهم حتى تدمر ، واجتاز الفرات (٢٨ مرة) لمطاردتهم . وقضى (حسب الوثائق الاشورية) على ٢٤ دولة خلال خمس سنوات . وقد بنى المعبد المدعو بمعبد آفو - حدد لاله السماء آفو و لاله الصاعقة حدد ، وعني بتنظيم أمور دولته فكان الملك المنفذ لأوامر الاله آشور وكاهنه ، وهو ملك الكل يرأس جهازاً ادارياً يحكم آشور والبلاد الخاضعة . وحول الوطن الأم تمتد الدول التابعة بالحكم المباشر او بمعاودة أو قسم أو رهائن . ولم تكن الدولة الاشورية تعرف التسامح والرافة فالاجنبي عليه ان يختار إما الخضوع واما الدمار .

استعاد الاشوريون النفوذ التجاري في بلاد الاناضول منذ قضائهم على الدولة الميتانية ، وأخذوا يستوردون منها المواد الخام وخاصة المعادن الضرورية لصنع الاسلحة . كما ازدهرت التجارة بعد استيلائهم على شمال بلاد الشام . وقد اهتموا في هذا العهد بالتجارة النهرية فبنيت بعض الارصفة الحجرية ذات السور على دجلة ليجري فيها تفرغ البضائع المنقولة الى مدينة آشور . وشهدت بلاد آشور تطوراً سريعاً في الفن التصويري ، وخاصة في الرسم المسطح والون على الجدران والافاريز الحجرية والحفر على الاختام الاسطوانية ، بحيث انها كانت أكثر عبقرية من بابل العريقة في هذه النواحي . ولا ريب أنها أخذت الكثير من العالم الحوري-الميتاني . وقد ارداد نفوذ طبقة اشراف الارض المحاربين التي كانت تقدم محاربي العربات والخيالة الذين يقودهم الملك نفسه . وفي نفس الوقت ازداد عدد العبيد وتنظرت أعمال الزراعة وصناعة الاسلحة وتربية المواشي .

٤ - الدولة الحديثة : بعد موت تيغلات بلادر الأول -مرّ قرنان من الزمن تقريباً حتى قيض للاشوريين قائد مثله . وقد حكم بعده ملوك فبعاف فتوقفت الفتوحات وتراجعت الدولة الاشورية ودب الانحلال فيها . وشكل العبرانيون مملكتهم المتحدة من اسرائيل ويهودا ، وعاود الاراميون الهجوم على ممتلكات الدولة الاشورية فهزموا الاشوريين وتوغلوا في بلاد النهرين خاصة في الجنوب ، كما اجتاز الكلدانيون نهر دجلة شرقاً . وهكذا انتهت الدولة الاشورية العالمية واحتفظت فقط ببلادها الاصلية ، ولم تمدّ تحكّم الا في المدن الاشورية المنتشرة في المنطقة الضيقة بين دجلة والزاب .

ونتيجة لذلك تهمل الاراضي الزراعية ويسيطر الجوع على الاراضي السهلية الخصبة التي احتلها الاراميون البدو في الشمال والجنوب ، وتجف الاقنية وتتحوّل الحقول الى مستنقعات وتتأخر حالة البلاد الاقتصادية .

رغم كل ذلك نجّد بلاد آشور تلتفتض فيما بعد مرة ثانية وقعيد مجدها ، وساعدها على ذلك عدم اتحاد الاراميين في دولة واحدة وتأسيسهم الممالك المتعددة . وهكذا قام آشور دان الثاني مؤسس الاسرة الرابعة في نهاية القرن العاشر قبل الميلاد باعادة تنظيم البلاد ، وحافظ على حدودها بشدة . ثم انتقل الى الهجوم ليعيد غزو بلاد النهرين التي تغدت آرامية تماماً . ونجح في كثير من المارك فلقب نفسه بملك العالم . وتابع ابنه حدد نيراري الثاني خطة أبيه ، ونجح في السيطرة على المناطق التي كانت تابعة للاشوريين سابقاً في الجهة الشمالية الحاذية لنهر دجلة . وأعاد فتح بلاد الميتانيين التي اصبحت تدعي جاننيكلبات كما احتل نصيبين بعد حصار طويل لها وجعلها مقاطعة آشورية ونشر فيها لغة الامبراطورية . وقد خاض حروباً ضد مملكة

بابل في الجنوب وأخضع بعض مناطقها ، وقاد الحملات ضد الآراميين في الخابور والفرات في سورية وانتصر عليهم . وأراد ان يخضع كل البلاد المجاورة ويسيطر على الطرق التجارية والعسكرية بين آشور والاناضول وسورية حتى البحر الأبيض المتوسط ، لذلك أنشأ جيشاً دائماً قوياً ووضع خطة بدأ هو بتنفيذها وسار عليها خلفاؤه من بعده .

وفي عهد حفيده آشور ناصر بال الثاني توطدت سيطرة الاشوريين من جديد . وقد ترك مدينة آشور وجعل مدينة كالح عاصمة له ثم عمل على توسيعها وبناء القصور والمعابد فيها كي يجعلها تضاهي بابل . كما قام بتوسيع حدود امبراطوريته ، فقتضى على الممالك الارامية بين دجلة والفرات وسحق فيها كل مقاومة بقسوة ووحشية فلم يبق فيها عصيان فيما بعد . ثم اجتاز الفرات الى بلاد الشام فأخضع حلب والساحل السوري حتى صور . وقدم له جميع الملوك الجزية . وهكذا أعاد الامبراطورية الاشورية الى مكانتها السابقة ، واستطاع بقسوته وصلابته ربط أواصرها اكثر من أي وقت مضى . وقد أصبحت الامبراطورية وحدة واحدة مؤلفة من مقاطعات يحكمها حكام معينون من قبل الملك . وكل مقاطعة تقسم الى مناطق تدار من قبل أمير صغير . وأسس فرقة من الرماة الماهرين ، واخترع الاشوريون في عهده آلات لذلك الحصون فلم تعد المدن تستطيع الصمود أمامهم .

وتابع ابنه سامنصر الثالث طريقه فغزا دولة بيت عدن الارامية على الخابور وسبى سكانها وأسكن مكانهم آشوريين ، وجعلها مركزاً لانطلاق جيوشه التي غزت كيليكيا فدان له أمراؤها ، وسيطر على مناجم الفضة في طوروس ، وغابات جبال الامانوس . كما ضم شمال بلاد الشام نهائياً الى

امبراطوريته . ولكنه لم ينجح في محاولاته ضم جنوب سورية حيث اصطدم بحلف أقامه الملوك السوريون بزعامة ملك دمشق ، ورغم ادعائه الانتصار لم يسيطر على البلاد . وقد عاود الكرة مرة ثانية فوصل الى دمشق ولكنه لم يستطع دخولها فأحرق أشجار الغوطة ونهب قراها وانتقل الى حوران وسفك فيها الدماء . ثم عاد الى بلاده ليبدأ بالتدخل في بلاد بابل فأخضعها لنفسه . وكان يعتمد في قيادة جيوشه على قائده العظيم الثورتان ديان - آشور الذي أخلص له . ولكن الفوضى سادت في نهاية حكمه وقامت حركات العصيان في مختلف المناطق ، وانفصل أكثر الولاة الكبار عن الملك المعجوز . وقام صراع على الحكم بين اثنين من اولاده فأدى كل ذلك الى ضعف الامبراطورية الاشورية وكادت أن تنفكك وتنهيار .

استمر الصراع بعد موته سنتين حتى تمكن ابنه شمس حدد الخامس من الوصول الى الحكم ، وحاول اعادة السيطرة الاشورية الى ما كانت عليه فهزم جيشاً عيلامياً كلدانياً بابلياً آرامياً ، وحارب الميديين الذين يدخلون التاريخ لأول مرة . وهكذا استطاع بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم أن يعيد سيطرته على أكثر المقاطعات التي انفصلت عن الامبراطورية . ولما مات خلف ابناً قاصراً فتولت امرأته البابلية سامورامات الوصاية عليه . وحكمت أربع سنوات حتى بلغ ابنها أشده وتولى سلطانه . (وهي التي أصبحت ملهمة لاسطورة سمير اميس التي حبكها اليونانيون حولها) .

حاول ابنها حدد نيراري الثالث ان يعيد مجد الدولة ويتابع سياسة التوسع فحارب مراراً ضد الميديين وهاجم ملك ملاطية ، كما احتل غوزاناعلى

الخابور وحارب البابليين وملك دمشق واجبره على دفع الجزية . وقد اعاد السيطرة الاشورية على الساحل السوري وفلسطين ايضا .

بعد موته حكم البلاد ملوك ضعاف اتصف عنهم بالركود وتخلفهم الاورارتيون في الغرب والشرق وبدأو يتوسعون على حساب الاشوريين . اما في الداخل فقد نشبت الثورات وحركات العصيان في مناطق مختلفة . واقتضى الامر خمس سنوات حتى تمكن الجيش من اخمادها ، الا ان الجيش نفسه الذي كان معظمه يعسكر في كالح العاصمة العسكرية ثار على الحكم في العام (٧٤٥ ق. م) ونصب على العرش احد القواد باسم تيفغات بلالزر الثالث الذي استطاع ان يضع حداً لانهايار وتدهور الامبراطورية ويدفع بها الى الامام ويحقق لها اجماداً جديدة .

٥ - الاشوريون في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد : وهكذا فقد وصل تيفغات بلالزر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) الى العرش بالقوة وأسس أسرة حاكمة هي الاسرة الخامسة . وقد قام باصلاحات داخلية ، ومارس سياسة خارجية نشيطة حتى استطاع أن يعيد بناء الامبراطورية التي عرفت باسم الامبراطورية الاشورية الحديثة .

كان تيفغات بلالزر الثالث يمثل الجناح العسكري الذي يعارض جناح الكهنة . ولذلك نراه قد انى امتياز مدينتي آشور وحران اللتين كانتا تتمتعان بمكانة خاصة عند الاشوريين وفرض عليها دفع الضرائب كبقية المدن وكانت هاتان المدينتان معقلا ومركزاً للكهنة الذين تمتعوا بـثروات وامتيازات كبيرة . ويعتبر عمله هذا محاولة لضعضة الكهنة واضعافهم ، ويمكن الاستنتاج

أنه كان يريد القيام باصلاحات اجتماعية لحماية الفلاحين والطبقة الوسطى من تحكم الكهنة والنبلاء . ولكن هؤلاء استطاعوا أن يقومو بشورة مضادة أعادت إعفاء مدينتي آشور وحران من دفع الضرائب .

وقد تبقوا العرش والبلاد في حالة من الانقسام والضعف والفوضى : وكان عليه ان يجابه مشاكل خطيرة : ايجاد حل للعلاقات مع بلاد بابل التي سيطر الاراميون عليها ، الوقوف في وجه الخطر الاورارتي الذي يهدد الامبراطورية الاشورية من الشمال ، اعادة السيطرة الاشورية على بلاد النهرين وبلاد الشام . وقد استطاع التصدي لهذه المشاكل المعقدة وحلها بنجاح مما جعله أعظم ملك في التاريخ الاشوري . ففي السنة الاولى من حكمه قصاد حملة ضد الاراميين والكلدانيين في بلاد بابل وانصرف لحل مشاكله الاخرى ولم يمد الى بابل ثانية الا في اواخر حكمه (حكم -حوالي ١٨ سنة) . وكانت بابل قد دبت فيها الفوضى ، وحكمها ملوك ضعفاء ، بينما كان شيوخ القبائل الكلدانية (وهم من الاراميين ايضاً) هم الحكام الفعليون في بلاد بابل اي بلاد السومريين والاكاديين القديمة . وقد قام تيفلات بلادزر الثالث بالحرب ضدهم فشتتهم ، والقى العرش البابلي ودمج العرشين البابلي والاشوري بشخصه واعلن نفسه ملكاً على بابل باسم (بول) اي ملك الجميع ، كما كان بنفس الوقت امبراطوراً للاشوريين ، واقام العلاقات بين الدولتين البابلية والاشورية على قدم المساواة كدولتين متحدتين . وبين حملته الاولى والثانية على بلاد بابل كان قد استطاع فرض سيطرة الاشوريين على الشرق الادنى وتأسيس امبراطورية مترامية الاطراف .

وبعد حملته الاولى على بابل هاجم حلفاء مملكة اورارتو في شمال بلاد

الشام متحاشيا الاصطدام بساردور الثاني ملك اورارتو في اراضيه بأرمينية .
وحدثت معركة فاصلة بينه وبين الاورارتمين وحلفائهم في شمال بلاد الشام على
الشاطيء الغربي للفرات عام ٧٤٣ ق م) ، وانتصر تيفغلات انتصاراً ساحقاً ،
وفرّ ساردور الى بلاده فلاحقه تيفغلات بالازر حتى عاصمته وحاصرها . ورغم
انها لم تستسلم له الا ان مملكة اورارتو اضطرت بعد ذلك ان تلزم حدودها
ولا تتعرض للاشوريين .

بعد ذلك اتجه الى بلاد الشام فجابهه تحالف معقود بين الدول السورية وقاومه
امراء البلاد بتشجيع من المصريين وخاصة مدينة ارباد التي جرد عليها اربع حملات .
ولكن بعد ثلاث سنوات من الكفاح العنيف وجدت جميع امارات بلاد الشام
نفسها خاضعة لحكم تيفغلات بالازر حيث تابع فتوحه الى دمشق وأخضعها . ثم
تقدم الى الساحل السوري واخضع الفينيقيين . وتقدم الى فلسطين فدانت له
مملكتا اسرائيل ويهوذا ودفعتا له الجزية . كما وصل حتى الحدود المصرية ، ثم
عاد عن طريق شرقي الاردن فاخضع سكانها وقاتل القبائل العربية وهزمها
ثم عهد اليها بمراقبة حدوده مع مصر .

وهكذا أسس امبراطورية واسعة قضم شعوباً كثيرة متنوعة وقام
بنفي الشعوب وتهجيرهم الى مناطق بعيدة عن مواطنهم الاصلية واستبدالهم
بشعوب من بلاد اخرى وذلك لتحطيم الاراصر القومية وإضعاف الشعوب
المختلفة وزرع الحقد والكراهية بينها حتى لا تقوى وتشور ضده . وقد أصلح
جهاز الادارة وحاول بقدر الامكان عزل الامراء المحليين وتعيين ولاية من
قبله على مختلف الاقاليم ، فخلف امبراطورية موحدة قوية .

وخلفه ابنه سامئصرا الخامس الذي أرسل الجيوش لقتال المتمردين في بلاد الشام وفلسطين اذ عقد الامراء فيها تحالفاً جديداً أيدته المصريون ، وامتنع بعضهم عن دفع الجزية ، وحاول بعضهم الآخر الانفصال عن الامبراطورية الآشورية . ولكن لم يقيض له اخضاعهم حيث قام ضده قائد عسكري فقتله واستسلم الحكم ، وذلك عندما كادت جيوشه في بلاد الشام ان تشرف على انهاء مهمتها .

سمى الملك الجديد نفسه باسم سارجون الثاني (شاروكين الثاني) اي الملك الحقيقي أو الصادق ، وأس اسرة السادسة . وقد واجه نفس المشاكل التي واجهها تيفغلات بلازر الثالث وانحصرت مهمته على المحافظة على ما بناه تيفغلات بلازر قبله . وفي الواقع لم تكن اعماله سوى تكرار لاعمال تيفغلات بلازر الثالث ، فكان يخرج من معركة ليدخل في أخرى الى ان سقط صريعاً في إحدى حروبه الكثيرة .

تعرض سارجون بعد استسلامه الحكم مباشرة لهزيمة فكراء على يد ملك الفطر البحري الكلداني المدعو مردوخ إبال ادينا (بعل الدين) الذي تحالف مع العيلاميين . واضطر سارجون الى التراجع عن بابل التي دخلها مردوخ بعل الدين وأعلن نفسه ملكاً عليها وانفصل عن الاشوريين .

ثم خاض معارك ناجحة ضد الممالك الارامية في سورية التي تحالفت ضده بتأييد من فرعون مصر ، فاستولى على حماه وتقدم نحو الجنوب حتى غزة وهزم جيشاً مصرياً هناك ، فقدم المصريون الهدايا الى سارجون الذي اعتبرها بمثابة جزية . ثم عاد الى فلسطين فحاصر الاسرائيليين في عاصمتهم السامرة ودخلها وسبى سكانها وأسكن عوضاً عنهم أسرى من بلاد ثانية .

بعد ذلك توجه لمحاربة ارارتو وتمكن من ايقافها عند حدها . ثم هاجم
كركيش ونفى أهلها ووطن فيها الاشوريين . كذلك هاجم الميديين ودمحرم
وأنشأ قلعة على حدودهم عرفت باسم كارشاروكين . كما قاتل في كيليكييا
وملاتيا وأخضعهما . واضطر الى مجابهة تحالف قام ضده واشترك فيه ملوك
ساحل فلسطين ، فتمكن من تدميرهم واحتلال اشود المركز الرئيسي
للتحالف .

ثم كرس قواه لقتال الكلدانيين في بابل فأرسل حملة الى شرق دجلة
عزلت الميلايين عنهم وعبر الفرات واستطاع دخول مدينة بابل عام ٧٠٩ ق.م
والحرقا بدمواته . ثم هاجم دورياكين مقر مردوخ بعل الدين وتمكن من تدميرها
وأطلق على نفسه لقب (ملك سومر وأكاد) ونقل سكان جنوب بلاد النهرين
الى سورية ، وأسكن بمض الحثيين في منطقة المستنقعات حول الخليج العربي
ثم عاد الى الساحل السوري وأخضع مدنه . واستولى أيضاً على جزيرة قبرص .
وهكذا فقد عادت الامبراطورية الى سابق امتدادها وسطوتها .

قام سرجون الثاني بنقل العاصمة الى كنج ثم الى نينوى ، ثم بنى مدينة
جديدة سماها دورشاروكين الى الشمال الشرقي من نينوى ولكنه لم ينعم
بالاقامة فيها كثيراً إذ مات في إحدى محروبه العديدة ودفن خارج وطنه .

تولى الحكم بعده ابنه سنحاريب ، فأعاد العاصمة الى نينوى . وقد
وجه حملته الاولى الى بابل التي ظهر فيها من جديد مردوخ بعل الدين وأعلن
انفصاله كما وحرص ملوك الدويلات السورية وحصل على تأييد مصر وعيلام .
ولكن سنحاريب هزمه واضطره للفرار الى عيلام وعين على بابل ابنه ،
وقهر ملك عيلام وخلفه وعين أخاه بدلا منه . ووجه حملته الثانية

ضد الكاشيين الذين ثاروا عليه . ورغم وعورة الطرق وصعوبة الحرب في بلادهم الجبلية تمكن من دحرهم ودخول عاصمتهم وسيي سكانها ومساكن آشوريين مكانهم وجعلها قلعة آشورية . أما الحملة الثالثة فوجهها الى الغرب لاختضاع الحثيين والممالك السورية التي تحالفت فيما بينها وأيدتها مصر بجيش جاء لمساعدتها الا ان سنحاريب دحر المدن المتمردة ودخل صور مقر زعيم التحالف الذي فر الى قبرص . وتقدم سنحاريب نحو الجنوب ، فأخضع المدن الفلسطينية وبلاد ادوم ومؤاب وعمون التي كانت قد دخلت في حلف ملك صور ، وهزم الجيش المصري ورده الى بلاده ، وانتقم من مدن يهودا ونهبها وحاصر ملك اليهود حزقيا في اورشليم ولكنه لم يستطع دخول المدينة ، فقفل راجعاً الى بلاده بعد أن تعهد حزقيا بدفع الجزية له .

وقد وجه حملات الى شمال بلاد النهرين ، كما غزا كيلييا فأخضعها وقبض على ملكها وسلخ جلده حياً . ثم أرسل حملة كبيرة الى بلاد الحثيين في الاناضول .

أما حملته السادسة فكانت موجهة ضد بيت ياكين (حول الخليج العربي) التي كانت تتمرد كلما أنست من نفسها بعض القوة ، وضد حليفاتها عيلام ، وفي طريق عودته احتل بابل . لكن الشيخ الكلداني موشيزيب مردوخ استطاع فيما بعد أن يعتصب العرش البابلي ويحكم جنوب بلاد الرافدين ، فقاد سنحاريب حملته السابعة ضده فرد العيلاميين الى بلادهم ، واحتل بابل وأسر ملكها ودمرها تدميراً تاماً وحول اليها مياه الاقنية حتى يزيلها عن الوجود نهائياً .

بعد أن قتل سنحاريب على يد أبنائه ، استلم الحكم ابنه أسار حدون

فُقدت الحملات العديدة ضد مختلف المناطق في امبراطورية . ، ففضى على ثورة كلدانية في بيت ياكين أي في منطقة القطر البحري ، ثم غزا سورية حتى وصل الى العريش ، وانكفأ الى الشمال فدحر الاسكيميديين المغيرين من الشمال وأعاد اخضاع كيليكيا والأناضول ، وقضى على تمرد الآراميين عليه في بلاد النهرين ومالبت أن سار الى سورية وقضى على ملك صيدا الذي تمرد ضده وبني في سورية مدينة جديدة سماها كاراسار حدود ونقل اليها الاسرى الكلدانيين من منطقة القطر البحري وتحالف مع ملك صور . ولكن الثورات كانت تتجدد ضده في سورية بتأييد من المصريين فأيقن أنه لا يستطيع الاحتفاظ بسورية الجنوبية إلا إذا أخضع مصر . لذلك أرسل حملة بقيادة شانابوشو الذي هزم ملك مصر الوبى طهارقا واحتل الاشوريون منف وسيطروا على مصر كلها وفرضوا عليها الجزية . وقسم أسار حدود مصر الى ٢٢ مقاطعة ، وعين عليها ولاة مصريين ووضع الى جانب كل منهم حاكما آشوريا . وقد ثار عليه المصريون في أواخر حكمه فأرسل جيشه لاختياد الثورة . ثم لحق بجيشه الا انه مات في الطريق عام ٦٦٩ قبل أن يصل الى مصر .

وحكم بعده ابنه آشور بانيبال (حكم حوالي ٤٢ سنة) . وتابع الجيش الذي كان والده قد ارسله للقضاء على الثورة في مصر مهمته فاستطاع الاشوريون إخضاع الثورة ، وفرض طهارقا الى النوبة ومات فيها . وأسر ملك منف نخاو الذي كان قد نصبه الاشوريون في عهد أسار حدود ، ولكنه استطاع التفرغ معهم فأعادوه الى مملكته ونصبوا ابنه بسامتيك على ولاية أتريب . حاول خليفة طهارقا طرد الاشوريين فسار اليه الملك الاشوري على رأس جيشه ونهب طيبة ودمرها في العام ٦٦٠ ق . م وولى على مصر بسامتيك الذي جاهد

فياً بعد لتحرير بلاده من نير الآشوريين فاستطاع تحقيق ذلك بمساعدة الميديين
وتحررت مصر من السيطرة الآشورية .

وقد خاض آشور بانيبال حرباً كثيرة ضد ملوك سورية وأجبرهم على
الخنوع ودفع الجزية . كما قهر العيلاميين وأجبرهم على التراجع الى بلادهم بعد أن
حاولوا غزو جنوب بلاد النهرين بمساعدة القبائل الآرامية المقيمة هناك والتي
عاقبها آشور بانيبال بشدة بعد طرده العيلاميين . ثم انتصر على المانيين المقيمين
بجوار بحيرة وان وكذلك على الميديين . أخيراً ثار عليه أخوه شماس شوم أوكين
الذي كان ملكاً على بابل وأيديته جميع مدن أكد والقبائل الكلدانية والآرامية
في منطقة الخليج العربي ، وملك عيلام والسوريون والفينيقيون والفلسطينيون
كما أيدته مصر والقبائل العربية في شبه جزيرة العرب . فقاد آشور بانيبال حملة
كبيرة ضد أخيه وحاصره في بابل التي كان أسارحدون قد أعاد بناءها ، فاحتلها
وأحرق قصرها ومات أخوه في الحريق . وقد انتقم من أعدائه شر انتقام ،
فماقتب سكان أكد والآراميين ، وقاد حملتين الى بلاد عيلام فاحتلها ودمرها
ونقل سكانها الى مناطق أخرى ، ثم قاد حملة الى بلاد العرب وانخضع القبائل
البدوية المقيمة فيها ، وغزا سورية والساحل واحتل حوران ووصل الى عكا .

ويظهر ان الهدوء قد عم في امبراطوريته في اواخر عهده فاهتم بالعلوم
والفنون والآداب ، وانشأ المكتبة الشهيرة في نينوي وجمع فيها الكثير من
الرقم الطينية التي حوت اكثر علوم وآداب الاقدمين واساطيرهم وكل
ما يتعلق بحياتهم .

بعد موت آشور بانيبال حكم بعض الملوك الضعفاء . وقد استطاع
بعضهم الانتصار على الميديين والآراميين . وتحالفوا مع المصريين والسكيتيين

أعداء الآشوريين التقليديين بسبب ظهور خطر الكلدانيين والميديين ولكن الكلدانيين الذين كانوا قد أقاموا دولة لهم في بابل بدأوا يهاجمون آشور من الجنوب ، بينما يهاجمها الميديون من الشرق والشمال . وأخيراً اتفق الميديون مع الكلدانيين واستطاعوا احتلال مدينة نينوى اثر الهجوم الثالث عليها سنة ٦١٢ ق . م وحرق الملك الآشوري نفسه مع اقربائه في قصره . وقد دمرت مدينتا نينوى وكلخ تدميراً تاماً الى درجة ان الاجيال اللاحقة لم تستطع تعيين موقعها .

وحاول امير آشوري ان يتاسك في مدينة حران ويحافظ على الدولة الآشورية فجمع شتات الجيش وسيطر على بعض المناطق الشمالية التي يكتنحها الآشوريون . الا ان الميديين والكلدانيين سرعان ما زحفوا نحوه فقهروا قواته وقضوا عليه واستولوا على المدينة سنة ٦٠٩ ق . م ، فزال بذلك آخر معقل للآشوريين وزالت دولتهم ولم يبق لهم قائمة بعد ذلك .

لقد سفك ملوك الآشوريين الكثير من الدماء واقترفوا العديد من المظالم ، فقد كانوا يسملون عيون اعدائهم ، ويقطعون سننهم ويسلخون جلودهم وهم احياء . وسبوا الكثير من الشعوب وشردوها وحكموها بالحديد والنار . وكان جيشهم ينشر الرعب والدمار والموت اينما حل . وكان الشرق الادنى ضحية ذلك الجيش الفاسي طيلة مايقارب الألف عام حتى كات اخيراً اسلحة آشور .

نظام الحكم : يقف الملك على رأس النظام ويعتبر نفسه نائب الاله آشور والمنفذ لرغباته ، يتلقى منه الاوامر ويقدم له الحساب ، ومهمته إخضاع شعوب العالم لهذا الإله وكان الملك حاكماً مستبداً مطلق الصلاحيات

يفعل ما يشاء ويحكم كما يريد . والحكم ينتقل بالوراثة ويعين الملك ابنه الأكبر خلفاً له . وقد يتولى الابناء الآخرون الحكم أحياناً . ويعتبر الملك الكاهن الأكبر والقائد الأعلى للجيش له المقام الأول مع زوجته وولي عهده في المجتمع . ويأتي في المرتبة الثانية التورتان الذي يقود الجيوش ويعتبر نائب القائد الأعلى . ويليه مجموعة كبار الضباط العسكريين وكبار الموظفين من الأشراف الأغنياء .

وقد قسمت الامبراطورية الى مقاطعات يعين الملك عليها ولاة لإدارتها . وأحياناً يبقى على البلاد المفتوحة ملوكها أو أمراؤها المحليون على ان يقدموا له الطاعة والخضوع أو التبعية والولاء . كما قسمت المقاطعات الى مناطق يدير كل منها امير صغير . ويتوجب على جميع الخاضعين للامبراطورية الآشورية دفع الجزية والقيام بأعمال السخرة وتلبية دعوة الملك للحرب وقت الحاجة . كان الجيش الآشوري عماد الدولة الآشورية قامت على يديه ودامت بقوته وجبروته وحكمت الشعوب بواسطته . وكان يتألف من العناصر الآشورية بصورة رئيسية ، وأحياناً يستعين الملوك بفرق مرتزقة من شعوب البلدان المغاورة . ويضم الجيش فرقاً محترفة دائمة بالإضافة الى الفرق الاحتمياطية التي تجند وقت الحرب فقط وتحل بانتهائها . وتشكلت فرق الخيالة وراكبي العربات من أبناء الطبقات الغنية ، بينما فرق المشاة من الناس البسطاء . وكانت هناك جماعات متخصصة لشق الطرق ونصب الجسور والقيام بالحصار واقتحام الحصون .

الثقافة الآشورية

١ - الكتابة واللغة : تكلم الآشوريون بلغة سامية شرقية قريبة من الآكادية . وقد اقتبسوا كثيراً من الكلمات والتعابير الآكادية حتى غدت الآشورية وكأنها لهجة من اللهجات البابلية - الآكادية . أما في المراسلات الخارجية فقد استعملوا اللغة الآكادية التي كانت قد غدت لغة عالمية واستعملها الآشوريون والمصريون أيضاً في مراسلاتهم مع الشعوب الأجنبية . كما اقتبس الآشوريون من البابليين طريقة الكتابة المسهارة ولكنهم بسطوها وحسنوها قليلاً . أما اللغة الآشورية فلم يتكلم بها سوى الآشوريون أنفسهم . ولما ازدهرت اللغة الآرامية وانتشرت في مختلف بلاد الشرق الأدنى خضع الآشوريون لتأثيرها أيضاً وأصبح ملوكهم يستخدمون في قصورهم كتابة من الآراميين . وحتى اللوحات المسهارة أصبحت تدون فيها ابتداء من القرن الثامن مختصرات باللغة الآرامية . وقد بلغ من سعة انتشار اللغة الآرامية أن غدت لغة الإدارة في الإمبراطورية الفارسية فيما بعد ووصل تأثيرها إلى آسيا الوسطى والهند .

٢ - الديانة : نلاحظ في الديانة الآشورية نفس العقائد والتصورات التي كانت سائدة لدى البابليين القدماء مع بعض الفروق البسيطة التي استدعتها

طبيعة الشعب الاشوري وطبيعة بلادهم وطبيعة الامبراطورية الشاسعة التي أقاموها فيما بعد . وقد بنى الاشوريون ديانتهم على الافكار الدينية القديمة التي كانت منتشرة قبلهم ، وعلى المفاهيم الاساسية للكون والحياة والتصورات حول الالهة التي آمنت بها شعوب بلاد النهرين قبل السيطرة الاشورية .
وإذا كان كهنة بابل في عهد حمورابي قد جعلوا مردوخ سيداً للآلهة وحل مكان انليل السومري - الاكادي فان الاشوريين وضعوا لهمهم آشور في مرتبة السيادة .

وفي النص الاشوري لنشيد الخليفة السومري القديم نجد آشور قد استأثر بصفة خلق الكون والانسان ، واله العالم بعد أن انتصر على آلهة الشعوب الاخرى المغلوبة على أمرها . ولكن الصفة الحربية القاسية تغلب على الاله آشور نظراً لصفة الشعب الاشوري الحربية وطبيعة بلادهم الجبلية القاسية ، والطابع المميز لامبراطوريتهم التي أقاموها بمجد السيف . وقد عبد الاشوريون الالهة عشنتار إلهة الحب السومرية والبابلية وزوج تموز وسموها بعليث اي السيدة ، وجعلوها زوجاً للاله الاعظم آشور . كما عبدوا اله الشمس شاماش واله القمر سن .

ونجد نفس الاساطير الميثولوجية وقصص الرحلة الى العالم السفلي ومقارعة قوى الفوضى والظلام مع تبديل اسم انيل ومردوخ باسم آشور . وأحياناً نجد آشور الها للشمس والها للنبات كتموز السومري - الاكادي - البابلي . ويرمز له بالشمس الممحنة رمز مردوخ ، وبالشجرة المقدسة رمز اله النبات تموز . وأحياناً يحل الملك محل الشجرة باعتباره نائباً أو مندوباً عن الاله

ومنفذاً لمشيئته . وكان الشعب الاشوري يرى في الحرب من أجل سيادة آشور نضالاً من أجل الحق والعدالة والنظام وكل من يقاومهم يعتبرونه كافراً ومؤيداً لقوى الظلام والفوضى والباطل ويجب محقه دون رحمة .

كانت المعابد الاشورية تشبه المعابد البابلية بزقورتها وساحتها المكشوفة وغرف العبادة والسكن حولها . وكان الكهان يقسمون الى طبقات ومراتب حسب النظام البابلي ، فهناك السحرة والمنجمون والمغنون والخدم . ورغم وجود كهنات عند الاشوريين الا أن عددهن كان أقل بكثير من عددهن أيام البابليين . وكانت تقدم الصلوات والقرايين للآلهة . ويخشى الاشوريون وملاوكهم الالهة ويتقونها ، كما يخصصون لها جزءاً من غنائم الحرب ويقطعون الاراضي للمعابد ويقدمون لها الاموال . ولم يكن يسمح لاحد بالاستهتار بالدين ، وتقرض على المجاهرين بعدم ايمانهم بالدين أو عدم تقديسهم للالهة العقوبات الصارمة التي قد تصل الى الموت . وكانوا يؤمنون بالسحر ، ولم يكن السحر والدين يفرقان .

واسبغ الاشوريون على آلهتهم صفات ومزايا انسانية كما فعل البابليون تماماً . فهم يتزوجون وينجبون ويعقدون الاجتماعات ويحاربون ويرضون ويغضبون . وصورهم على شكل الانسان وهم يحملون أسلحة وأدوات مختلفة .

ولم يعرفوا شيئاً واضحاً عن الحياة بعد الموت بل يعتقدون أن الصالح تكافئه الالهة بالحياة الطويلة السعيدة ، والطالح تعاقبه بحياة بائسة ضنكة ، فينال كل واحد ما يستحقه في الحياة الدنيا .

٣- الأُداب ، كانت الاداب الاشورية امتداداً للادب البابلي العريق .
فقد اقتبس الاشوريون الاساطير البابلية القديمة التي بدأ جمعها ونسخها منذ عهد
حمورابي . وهي تعد أساس أدب بلاد الرافدين . وقد استمر الكتابة على نسخها
مع تحويرها بعض الشيء ، أو النسخ على متوالها .

والمؤلفات الادبية متنوعة وتبحث في مواضيع مختلفة . فمنها ما هو قانوني
كالتشريعات والعقود . ومنها ما هو اداري كالمراسلات الرسمية . ومنها ما هو
تاريخي كسجلات الملك وتقارير الملوك الاشوريين عن حروبهم الى الالهة .
ومنها ما هو ديني كالصلوات والادعية والرقى السحرية والتقارير عن مراقبة
النجوم .

وقد دونت بعض الكتابات على الحجر والمعدن ولكن ظل
استعمال الخزف في الكتابة مستمراً لكثرة وجوده وسهولة الحفر عليه ولاعتياد
الناس على استعماله . ولا تخلو الكتابات الاشورية من صور فنية وتخييلات
اسطورية وقد تنتهي هذه الصور بالغموض خاصة في النصوص الدينية
والسحرية التي تجنح عن قصد نحو التكم والالغاز لاضفاء جو من الرهبة والقدسية
التي يصعب وان لم يستجبل فهمها على أفراد الشعب العاديين .

وقد لازمت الفظاظة بعض النصوص التي أمر بلقشها ملوك الاشوريين
وان خالطها شيء من العظمة .

ونجد التشابه الواضح بين آداب الاشوريين والبابليين ، وخاصة
في مجالي الكتابات التاريخية والمراسلات ، مع بعض الاختلافات في
المبدأ والاسلوب .

فالأدب التاريخي الآشوري يتصف بطغيان الطابع الحربي عليه أكثر من الأدب التاريخي البابلي وذلك نتيجة طبيعية للحياة الحربية التي قضاها الملوك الآشوريون والشعب الآشوري الذي لا يبدو أن يكون تاريخه سلسلة متصلة من المعارك لانهاء الألتبدأ من جديد . وسار الآشوريون في تدوينهم للتاريخ على طريقة مخالفة للطريقة البابلية وخاصة في الحوليات السنوية ، اذ كان البابليون يسمون السنين بأسماء أحداث هامة مشهورة حدثت في تلك السنة ، بينما سمي الآشوريون السنين بأسماء كبار موظفيهم الذين حكموا في السنين المعنية ، وذلك بالاضافة الى التاريخ بالنسبة لسني حكم الملوك عند الفريقين . وقد تم العثور على رقم تحتوي على أنواع مختلفة من المعلومات التاريخية منذ عهد الأسرة الأولى الى سقوط الامبراطورية . ومنها رقم يحوي أسماء الملوك الآشوريين منذ البداية الى عهد شمسي حدد الأول معاصر حمورابي . وهناك بعض الرقم التي تتحدث عن الحروب التي خاضها الملوك في شكل تقرير مقدم الى الاله . وكانت أغلب الكتابات التاريخية الآشورية تنقش على جدران القصر الملكي وأساساته .

واتبع الآشوريون طرقاً مختلفة لتدوين تاريخهم فدوّنوا الأخبار حسب تسلسل السنين وحسب الحملات وحسب الأقاليم .

ومن أشهر الوثائق الآشورية وثائق تيفلات بلاذر الأول (القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ، التي كتبت على ألواح طينية موشرية وحفظت تحت الزوايا الأربع لجدران معبد أنو - حدد في آشور ، والنقوش التي خلفها سامنصر الثالث (القرن التاسع قبل الميلاد) على الأبواب البرونزية جنوبي نينوى ، والمسلة التي عثر عليها في كالج وسجلت عليها أخبار احدى وثلاثين سنة

متابعة من حكمه . والنصوص المنحوتة التي تركها سارجون الثاني القرن الثامن قبل الميلاد) في المدينة التي شيدها (دور شاروكين)، بالإضافة الى الرقم الكبيرة التي وجدت في مكتبة آشوربانيبال العظيمة في نينوى .

أما في مجال الادب التشريعي فلم يعثر الا على بعض النصوص القانونية في مكتبة آشوربانيبال ، ومعظمها في حالة رديئة وأحسنها هو الرقيم الذي يعالج الوضع الحقوقي للنساء وتبعيتهن للرجال بشكل مطلق من وارلاهن . وهناك بعض الألواح التي تبحث في المعاملات التجارية ، الرهونات والديون والسرقة والغش ، وكلها تتميز بالقسوة في فرض الاحكام وعدم الدقة في التعابير الحقوقية وشرح الارضاع القانونية .

ومن جهة أخرى نظم الآشوريون بعض الملاحم البطولية والمؤامرات الشعرية التي تمجد قوة آشور ، وتجد تجسيداً لها في انتصارات الملوك والقواد الآشوريين . وقد وصلتنا من هذا النوع مقاطع للمحمة آشورية من العصر الوسيط تصور الملك الآشوري بطلاً يتقدم رجاله وفرسانه الى الحرب ضد أعداء الإله آشور .

كذلك استمرت العادة التي بدأت منذ عهد حمورابي في إنشاء المكتبات الملحقة بالهيكل والقصور الى العصر الآشوري . ولكن لم يبذل ملك جهداً ومثابرة كالتى بذها الملك الآشوري آشوربانيبال الذي كان يفتخر ان الآلهة قد وهبته كل علم الكتابة . وقد اقام هذا الملك مكتبة كبرى في مدينة نينوى جمع فيها مختلف انواع اللوحات التي تبحث في الامور الدينية والادبية والتاريخية والفلكية وغير ذلك من الامور .

وكان يرسل الموظفين لجلب الوثائق والنصوص ، او على الاقل كتابة نسخ عنها وارسالها الى مكتبة فينوي . كما يوصي ولائه بارسال كل ما يقع اعينهم عليه من وثائق ونصوص قديمة او حديثة . ولقد امكن للعالم الاطلاع على الكنوز الادبية والعلمية القديمة كملحمة جلجاميش وقصة الطوفان واصل الخليفة وغيرها بفضل ذلك العمل العظيم الذي قام به آشور بانيبال ، بعد اكتشاف العلماء الانكليز لهذه المكتبة ونقلهم الوف اللوحات التي تعد الان من اعظم ثروات المتحف البريطاني .

٤ - العلوم : استمر تطور العلوم في العهد الاشوري ، وظلت تتأثر بالمعتقدات الدينية والتأملات السحرية ، ومع أنها كانت تتحرر من هذه القيود احيانا كثيرة الا انها لم تنعتق منها نهائيا طوال العصور القديمة .

وقد اعتمدت علومهم على ما وصلهم من سابقاتهم البابليين ولم يحقق الاشوريون تقدماً هاماً في هذا الميدان .

ففي الرياضيات تايروا على استعمال النظام الستيني والنظام العشري في الحساب . كما حفظوا المعلومات المعروفة سابقاً في مجالي الهندسة والجبر (حل المعادلات من الدرجة الثانية ، وطول المحيط ومساحة الدائرة وغير ذلك) . وقسموا السنة الى ٣٦٠ يوماً و١٢ شهراً واحياناً ١٣ شهراً ، واليوم الى ٢٤ ساعة كما استعملوا نفس الموازين والمقاييس التي سبقهم البابليون الى استعمالها ، وان كانوا قد عدلوا احيانا . وتداولوا النقود المسكوكة من النحاس والفضة والبرونز وغير ذلك من المعادن .

وفي مجال علم الفلك كان الاشوريون متقدمين نوعاً ما ، ولم يفصلوه قط عن التنجيم المزيف . وكان هناك اشخاص مهمتهم مراقبة النجوم وكواكب

السماء وكتابة التقارير عن مشاهداتهم ، ليطلع الكهنة المنجمون والمعرفون
والسحرة ويتنبأوا بما سيحدث من حوادث عامة أو فردية ، او لمعرفة نوايا الالهة
ومن ثم تنفيذ رغباتها لتحاشي غضبها ونقمتها . وقد حفظت تقارير فلكية تحمل
تنبؤات كهنوتية الملك استندت على مراقبات فلكية في كافة انحاء الامبراطورية .
واتخذ الاشوريون تقويماً قمرياً وشمسياً ، وكانت السنة عندهم قمرية تعتمد
على رصد القمر . ولكن اختلاف فصول السنة عن المواسم الفصلية قادهم للتعرف
على السنة الشمسية ، وحاولوا التوفيق بينها باضافة شهر كل عدة سنوات . واخيراً
اكتشفوا في حوالي العام ٧٤٧ ق . م (في عهد تيغلات بلزر الثالث) ان عدد
ايام (٣٣٥ شهراً قمرياً) يعادل عدد ايام (١٩ عاماً شمسياً) فبسداو يضيفون
سبعة اشهر قمرية في كل فترة ١٩ عاماً . وكان الملوك هو الذي يصدر
الاورامر بالاضافة .

وفي مجال الطب ، اعتبروا المرض نتيجة لاثم اقترفه المريض ، او
أن شيطانا قدمسه لذلك عالجوا المرضى بالتعاويد والطقوس الدينية والرقى
السحرية . ثم بدأوا يقرنون هذه العلاجات بأدوية قدموها للعرضى .
وكانت أدويتهم مؤلفة من جذور بعض النباتات ومن أوراق بعضها الآخر ومن
الزيت والمعادن والرماد والدم وغير ذلك .

ورغم أنهم عرفوا الادوية التي يجب أن تعالج بها مختلف الامراض الا
أنهم لم يفسلوا الطقوس الدينية والسحرية عنها ، ان يجب التلفظ ببعض الكلمات
والقيام ببعض الطقوس أثناء تناول الدواء ، وذلك ليشفى المريض بصورة
أكيدة وقائمة . وهناك بعض الامراض التي لم يجدوا لها الدواء ، ولم يعرفوا

كيفية شفائها فاعتبروها عقاباً من الالهة للأثمين والمذنبين . وكان معظم أطبائهم من البابليين .

أما العلوم الطبيعية فلم تشهد تقدماً ملموساً الا في مجال استخراج وصناعة الحديد الذي أصبح يستعمل بكثرة وخاصة في تسليح الجيش ، بينما ظلت صناعة الزجاج على حالها . ورضع الاشوريون ، مقتدين بذلك بالسومريين والبابليين ، قوائم ذات هدف تعليمي تحتوي على أسماء النباتات والحيوانات والمعادن ، وحاولوا تبويب هذه اللوائح وتقسيمها الى مجموعات معينة ، ولكن تبويبهم كان بسيطاً وساذجاً .

لم يعرف الاشوريون ما يمكن أن نسميه علم الجغرافية ، ولكنهم تركوا وصفاً لبعض المناطق ومخططات لبعض البلاد التي قاموا بغزوها وذكرها تضاريسها (خاصة في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) .

كما لم يعرفوا العلوم التاريخية بمعناها الصحيح ، ولكنهم دونوا كثيراً من المعلومات التاريخية والاحبار عن ملوكهم وحروبهم ومعاصيرهم وأعمالهم ونشاطهم العمراني . وهي تعطينا صورة عن عصرهم رغم أنها محشوة بالافتخارات والادعاءات والتخيلات الخرافية والتفسيرات الدينية المزيفة والتمويلات والمبالغات الكثيرة المختلطة مع الحقائق .

٥ - الفنون : اذا كان الاشوريون عالة على البابليين في مجالي الديانة والكتابة خاصة (اذا جاز لنا القول) فانهم كانوا اكثر عبقرية منهم في بعض المجالات وخاصة في المجال الفني . وهم وان كانوا قد اقتبسوا بعض النواحي

من فن الجنوب وحافظوا على بعض التقاليد الفنية القديمة ، الا انهم أبدعوا في جوانب كثيرة أيضاً .

فمنذ عهد توكولتي نينورتا الأول (في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) بدأ الاشوريون في خلق فن آشوري خاص بهم متميز عن الفن البابلي . ورغم محاولتهم الاستقلال الحضاري عن التأثيرات الميتانية - الحورية في الشمال والبابلية في الجنوب ، لم ينجحوا كثيراً الا في مجال الفن حيث نرى الصفة المميزة للفنون الاشورية تظهر منذ ذلك الوقت المبكر وتتميز بالنعومة في التفاصيل الدقيقة وبالقوة الحارقة للزخارف والنقوش والاشكال المرسومة . ونلاحظ التطور في فن العمارة والنحت والرسم والحفر على الاختتام قد بدأ يشق طريقه منذ وقت مبكر أيضاً .

من دراسة القصور والمدن الاشورية (من قصر توكولتي نينورتا الى قصر سارجون الثاني في القرن الثاني) يمكننا معرفة خصائص فن البناء الاشوري الذي تميز بالفخامة والعظمة وكبر الابعاد .

ولما كان الاشوريون شعباً محارباً فانهم أحاطوا قصورهم ومدنهم بالاسوار المتينة وأكثرها من اقامة الحصون . وكانت المدن تحاط بأسوار دائرية الشكل أو مربعة تقريباً . وكانوا يقيمون أبنيتهم وقصورهم على أساس من الحجر بينما يعملون الجدران والسقف من الطين ، ومن هــ هذه الناحية كانوا يقلدون البابليين الذين كانت بلادهم غزيرة الطين قليلة الحجارة . ولم يكن الاشوريون مضطرين الى التسج على منوالهم ، ولكن الفكرة الدينية التي كانت تقول بأن الحكمة قد أعطاها الالهة للناس الاوائل من السومريين ساعدت على الاستمرار

في البناء بالحزف ، كما أن السرعة والسهولة شجعتهم على ذلك . ولم يأت
الاشوريون بشيء جديد تقريباً في هندسة البناء ، بل اكتفوا بما هو متداول وسهل
شرط أن يكون عظيماً . واستمرت عادة البناء على المصاطب الاصطناعية
واقامة الجدران السميكه ، وعدم فتح نوافذ للغرف وتوسيع الابواب لتأمين
الهواء والنور واقامة الساحات الواسعة . وبالإضافة الى تغطية الجدران
بالرسوم والفسيقساء زاد الاشوريون التغطية أو التزيين بالنقوش
البارزة من الحجر ، واستمر بناء الزقورات في القصور والمعابد
والهيكل الكبرى .

ونرى التفوق والابداع الاشوري في الفن التصويري في الرسم المسطح
والرسم على الجدران وخاصة فن النقش البارز والحفر على الاختتام . ولا شك
أن الحوريين أثروا في هذه النواحي على الاشوريين أثناء احتلالهم لبلادهم ،
الا أن الاشوريين بذوهم وسبقوهم فيما بعد فكانوا اكثر غنى منهم واقدر
على التعبير عن أفكارهم جيداً .

خلافاً لما كان عليه الامر عند البابليين نجد عند الاشوريين المنحوتات
العظيمة الحجم ، وخير مثال عليها الثيران الهائلة المنحوتة ذات
الرأس البشري التي نحتت على الحجارة الكبيرة وأقيمت أمام قصر سارجون
الثاني لحماية أبوابه .

وغدا فن النقش البارز عند الاشوريين فناً متطوراً راقياً حيث بدأ
يتطور منذ العمود الباكورة . وقد استعملوا الحجارة الكثيرة في بلادهم بنقشها
وتزيين جوانب القصور المبنية بالاجر بها . وكانت النقوش تمثل خاصة الارواح الخيرة

والحيوانات ، والابطال الحقيقيين والخياليين ، والملوك وأعمالهم وحرورهم ،
والجنود والمواطنين والاعضاء .

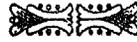
كانت اكثر المواضيع الفنية ذات صفة حربية ، ولكن هذا
لا يعني أنهم لم ينطرقوا الى المواضيع الدينية حيث وجدت بعض النقوش
والمشغولات التي تصور مشاهد دينية . وغايتهم الاولى كانت اظهار عظمة
الانتصارات التي حققها ملوكهم في سبيل تحقيق سيادة الههم آشور على العالم
وانتصاره على الالهة الاخرى .

وقد وصلوا الى الكمال في تمثيل الحيوانات ، بينما اعتنوا بلباس
الناس اكثر من اعتنائهم بصورهم الانسانية . ووجدت النقوش التي تزين
جدران القاعات والاروقة من الداخل ايضاً . وطور الاشوريون مع الزمن اللوحات
الحجرية المنقوشة الى لوحات اخبارية مصورة هي التي عرفت او سميت
في وقتنا الحاضر بالتقارير ، وتمتبر من أهم ما قدمه الشعب الاشوري في
المجال الفني .

وصنع الاشوريون تماثيل مختلفة وكثيرة الالهة والملوك والارواح الخيرة
الحارسه والحيوانات المختلفة وللناس العاديين ، وكانت تماثيل الرجال
كثيرة بينما تماثيل النساء قليلة .

ورغم براعتهم في صناعة الاختام الاسطوانية فانها كانت قليلة
الاستعمال بالنسبة للعهد البابلي ، وكانت اكثر الموضوعات المحفورة
عليها دينية .

ولقد عرفوا التزيين بالرسم ، وبالرسم الملون ، ولشك في الالوان لم تكن تتجاوب غالباً مع الالوان الحقيقية للاشياء او الحيوانات او النباتات المرسومة . كما عرفوا الزخرفة بالمينا ، والتزيين بالكتابة ، وغالباً كانوا يدمجون التزيين بالكتابة مع التزيين بالصور الملونة مما يكسبها جمالا وبهجة واشراقاً أكثر . وبالأجمال نستطيع القول ان الاشوريين لم يبدعوا ولم يبرزوا أصالتهم في ميدان اكثر من ميدان الفن ، بالإضافة الى فن الحرب وتنظيم الجيوش وقيادتها ، بينما تأثروا في غير ذلك من الميادين تأثراً جذرياً بالبابليين . وهكذا فقد كانت الدولة الاشورية طوال عهدها واقعة تحت ضغط الحضارة البابلية العريقة المتفوقة في كلا المجالات، رغم المحاولات المتكررة للتحرر من طغيانها . ورغم ما قام به الاشوريون من تدمير بابل واحراقها ونقل آلهتها ونفي سكانها ، الا أنها كانت على الدوام مسيطرة حضارياً على آشور . وقد عانى الاشوريون من الشعور بالنقص الحضاري تجاه أتباعهم البابليين وظلوا ينظرون اليهم بشيء من الحسد والهيبة والتقدير .



الدولة البابلية الجديدة او الكلدانية

١ - ارتقاء بابل الكلدانية : بعد القضاء على الدولة الاشورية نشأ في منطقة الشرق الادنى توازن ملموس في ميزان القوى حيث اقتسمت ميديا وبابل بشكل سلمي تركه الاشوريين . وقد سيطرت بابل على جنوب بلاد النهرين وقسم من شمالها وفتحت امامها الطريق عبر سورية الى ضفاف البحر المتوسط ، ولكنها لم تحاول السيطرة على آسيا الصغرى بل اقامت علاقات ودية مع الدولتين المسيطرتين في شبه الجزيرة هذه وهما دولة ليديا في الغرب ودولة كيليكييا في الجنوب . وهكذا ساد السلام على حدود الدولة البابلية الناشئة من جهة الشرق ، والشمال ، والشمال الغربي ، لذلك وجهت حروبها التوسعية نحو الغرب والجنوب الغربي .

وحققت بابل في عهد السلالة الكلدانية ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً . فرغم ملاقته من تدمير شامل تقريباً على يد سنحاريب وآشور بانيبال الاشوريين ، استطاعت تلك المدينة ان تنهض من جديد وتجذب اليها افواجا

جديدة من السكان ، وساعد تدهور المدن الآشورية الهامة على بعث مدينته
بابل كمركز دولي رئيسي في بلاد الشرق الادنى .

عرفت الدولة التي أسسها نابو بالاصر باسم الدولة الكلدانية . وقد
حكم نابو بالاصر أول الامر في بابل تحت ظل السيادة الآشورية ثم اعلن
نفسه ملكاً مستقلاً عليها حوالي سنة ٦١٠ ق.م . والكلدانيون هم من الاراميين
الذين جاءوا الى بلاد النهرين من منطقة تعرف باسم بلاد البحر قرب الخليج
العربي ، وهم قريبون من البابليين من حيث الاصل واللغة لذلك انصهروا
بسرعة معهم حتى انه فيما بعد اصبحت الكلمتان - بابلي وكلداني -
مترادفتين .

٢ - الحياة الاقتصادية - الاجتماعية : في عهد الدولة البابلية الجديدة
حدث تطور كبير في شتى المجالات الاقتصادية . فقد بلغت التجارة والصناعة
ازدهاراً لم تبلغاه في العهود السابقة . وساعد على ذلك زوال المنافسين الآشوريين .
وان مدينة بابل وغيرها من المدن الكبرى في بلاد النهرين التي كانت في العهود
الماضية على صلة بالزراعة بصورة رئيسية أصبحت الان مراكز تجارية - صناعية
هامة ، كما أن بعضها اصبح يتمتع باستقلال ذاتي تحسب السلطة الملكية له حساباً .
ويدير الاعمال الهامة في تلك المدن كبار رجال الاعمال الذين غالباً ما كانوا يتحدون
ويشكلون شركات بالمعنى الصحيح وحتى شبكات الري التي كانت سابقاً تحت
اشراف السلطة الملكية انتقلت ادارتها الى الايدي الخاصة . وقد لعب
الكهنة دوراً هاماً في العمليات التجارية حتى ان طبقة الامراء العسكريين لم
تستطع ان تجاريهم في الغنى والثروة ، وهذا مما تميزت به الدولة البابلية الجديدة عن
الدولة الآشورية .

أما أوضاع الفلاحين فقد ساءت بشكّل مدهوس حيث أن الضرائب والواجبات الثقيلة التي اعفيت المدن الكبيرة منها وقعت على عاتق العاملين بالزراعة في الأرياف . كذلك ازداد عدد العبيد ونما دورهم في العمل خاصة في المدن . وتتحدث الوثائق الكلدانية عن وجود المئات من العبيد ، وقد حدث تبدل في أساليب استقلالهم . فإذا كان يُسمح للعبيد في عهد الدولة البابلية القديمة بامتلاك قطعة أرض أو القيام ببعض الأعمال الخاصة في التجارة أو الصناعة (طبعاً ، تحت إشراف سيدهم) ، أصبحوا الآن يشبهون عبيد روما (في نظام البيكولي) أي أصبحوا قانونياً منمتلكات سيدهم المشروطة بشروط . فالعبد الذي يمتلك محلاً للصناعة عليه أن يقدم لسيده خمس قيمته في كل عام بالإضافة إلى حصة معينة من الأرباح . ولكن إذا ساءت الظروف ذلك العبد واغتنى ، فإنه يستطيع امتلاك العبيد والحصول على بعض الحقوق ، كأن يتحاكم مع الأحرار أو يعقد معهم الاتفاقيات ، ولكنه يبقى تحت سلطة سيده الذي يستطيع أن يبيعه أو يعاقبه .

٣ - السياسة الخارجية : ذكرنا سابقاً كيف ان المصريين في العصر الصاوي حاولوا إعادة نفوذهم المتداعي في فلسطين وسوريا ، وكيف ان الفرعون نينخاو الثاني تقدم بجيوشه نحو الفرات لدعم الآشوريين (اعداء مصر سابقاً) ضد التحالف الكلداني الفارسي ، وذلك للمحافظة على توازن القوى المتنازعة في بلاد النهرين ، وخوفاً من انتصار الكلدانيين ومن ثم تهديد مصر نفسها أو منافستها على النفوذ في سوريا وفلسطين . ولكن القوات الكلدانية بقيادة نبوخذ نصر الثاني ابن نابو بالاصر استطاعت أن تلحق الهزيمة بالجيش المصري عند مدينة كركميش (جرابلس الحالية) سنة ٦٠٥ ق م ومن ثم تقدمت نحو سوريا وفلسطين وفرضت سيطرتها على المنطقة .

بعد هذه الحروب الظافرة عاد نبوخذ نصر الى بابل ليعتلي العرش الكلداني حيث أن ولده قدمات ، وحكم البلاد ثلاثاً وأربعين سنة (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) فازدهرت في عهده ازدهاراً عظيماً .

كانت مصر العدو الاكبر للكلدانيين حيث أنها لن تتنازل بسهولة عن نفوذها ومصالحها في سورية وفلسطين . وبالمقابل فان الكلدانيين الذين دخلوا الى مسرح التجارة العالمية كانوا بحاجة الى قواعد لهم على البحر المتوسط ولن يتنازلوا عنها لمصر ، لذلك وجه نبوخذ نصر معظم جهوده وامكانياته للصراع مع مصر ، أما الفراعنة فلم يعتمدوا في هذا الصراع على القوة العسكرية فحسب ، بل لجأوا الى الاساليب الدبلوماسية أيضاً ، فحرضوا الدويلات الصغيرة في غرب آسيا ضد الكلدانيين وخاصة المملكة اليهودية ومملكة صور (تير) . وقد كان بين الامراء اليهود فدسة بمائة لفرعنة مصر تنفذ مايلوفه عليها ، بينما عارض تلك الفئة « النبي » إرميا وطالب في خطبه الحادة اليهود بعدم مقارعة الكلدانيين حيث لا يرى أملاً في نجاحها بل ستقودهم مقارعة الكلدانيين الى الدمار المحتم . ولكن السلطات اليهودية لم تأخذ بنصائح بل الحقت به تعذيباً وطردهم وتقربت من الفرعنة ونهزت أوامرهم وتوجيهاتهم بالتمرد ضد الكلدانيين والامتناع عن دفع الجزية لهم . رداً على ذلك جرد نبوخذ نصر حملة على الدرلة اليهودية فدخل اورشليم وسبى قسماً من سكانها وعزل ملكها يهوياقيم وعين مكانه عمه صدقيا وكان ذلك سنة ٥٩٦ ق.م . لكن صدقيا بتحريض من فرعنة مصر وتحتم ضغط الامراء اليهود المويدين لهم تمرد أيضاً ضد سيطرة الكلدانيين ، فعاود نبوخذ نصر الهجوم على اورشليم (القدس) وقتلها سنة ٥٨٦ ق.م .

بعد حصار دام نصف سنة ، والقي القبض على صدقيا وسملت عيناه كما قتل أولاده وسي جميع سكان المدينة الى بابل . أما سكان الارياف اليهود فقد فر معظمهم الى مصر فخلت فلسطين من اليهود تقريباً . وهكذا تحققت « نبوءة » إرميا البعيد النظر والذي قدر سلفاً خطورة الموقف ونتائج سياسة السلطات اليهودية بالوقوف الى جانب المصريين ضد الكلدانيين . وقد روي عنه قوله (ربما بعد ان حدث ما حدث) : « نبأ لك يا أورشليم .. لقد قال لي الرب سوف أترك السيف مسلطاً عليها .. أريد أن اخرجها من هذه البلاد الى بلد آخر والقي بها في يد بختنصر ملك بابل ، وسوف يزحف عليها الكلدانيون ويضرمون النار فيها ويحرقونها » .

بعد ذلك التفت نبوخذ نصر لاختضاع المدن الفينيقية على الساحل السوري ، ولكن لم يتم له ذلك بسهولة حيث نشط الاسطول المصري في البحر المتوسط وقدم المساعدات والدعم للمدن الفينيقية التي تفارح الكلدانيين الذين لم تكن لديهم قوة بحرية لتطارد الاسطول المصري . وقد صمدت مدينة صور لحصار دام ثلاث عشرة سنة وساعدها على ذلك وقوع قسم منها على جزيرة بعيدة قليلا عن الشاطئ ، وأخيراً فك الحصار باتفاق على حل وسط تعترف بموجبه صور بالسلطة العليا لنبوخذ نصر بينما تحافظ على استقلالها الذاتي .

ثم حاول نبوخذ نصر دخول مصر وربما وصل الى الدلتا ولكن المصادر التاريخية لا تسجل شيئاً يذكر عن تلك الحملة ونتائجها . ومن ناحية اخرى اضطر القراعنة المصريون للترجع عن محاولاتهم فرض سيطرتهم على سورية وفلسطين ، والمحس النفوذ المصري في غربي آسيا أمام النفوذ الكلداني الذي ظل سائداً

حتى أتى المسد الفارسي من الشرق فغمر المنطقة وتلاشت دولة الكلدانيين ونفوذهم .

رغم انتصار نبوخذ نصر في الغرب ظل يقدر الوضع الدولي ببصيرة ناقبة ويحسب حساباً للخطر الذي قد يداهم من الشرق . وقد فهم أن العلاقات السامية القائمة مع الميدين قد لا تطول ، لذلك اهتم بتحصين حدوده معهم فأقام سلسلة من الحصون الدفاعية والخزانات المائية لتفجيرها عند اللزوم واغراق المنطقة بالمياه لتشكل حاجزاً مائياً أمام تقدم الاعداء . ولكن لم تستخدم تلك المنشآت الدفاعية عملياً في حياته حيث ظلت العلاقات السلمية قائمة مع الميدين طيلة حكمه .

٤ - سقوط الدولة الكلدانية : بعد موت نبوخذ نصر سنة ٥٦٢ ق.م دبت الفوضى ونشبت الاضطرابات في بابل نتيجة الصراع الذي دار بين طبقة الكهنة وطبقة الامراء العسكريين ، وتبدل على العرش البابلي خلال سبع سنوات ثلاثة ملوك . وفي سنة ٥٥٥ ق.م اعتلى العرش نابونيد صنيعة طبقة الكهنة وكان آخر الملوك الكلدانيين ، وتميز عهده بازدياد الاضطرابات ونشوب التمردات حتى أنه اضطر لنقل مقر اقامته الى واحة تيماء في شمال الجزيرة العربية تاركاً ابنه بلشاصر (بالتازار) ممثلاً له في بابل ولم يعد اليها الا في اواخر حكمه . كذلك انتهت العلاقات السامية التي كانت قائمة بين الكلدانيين والميدين ونشب النزاع بين الطرفين على مناطق الحدود خاصة على مدينة حران الواقعة في الشمال الغربي من بلاد النهرين ، وفي تلك الاثناء سيطر الفرس بزعامه كير (كورش) على الدولة الميدية ، وأسسوا دولة فارسية اكثر قوة ونشاطاً ، وأخذوا يتوسعون في الاراضي البابلية ، بينما كان نابونيد منشغلاً باصلاحات دينية . وقد أمر

نابونيد بنقل تماثيل الالهة المحلية من مدن المقاطعات الى بابل مما أدى لاستيلاء سكان تلك المدن وخاصة كهنتها الذين نسف دخلهم وتضررت مصالحهم من جراء ذلك . اما التجار الكلدانيون الذين تضررت أعمالهم التجارية نتيجة العمليات الحربية المستمرة فقد كانوا يرغبون في وضع حد للحروب ، حتى لو كان ذلك على حساب خضوعهم للملك الفرس القوي كورش ، ومن ناحية أخرى أمسوا في توسيع نشاطهم التجاري في أنحاء الامبراطورية الاشورية الواسعة . كذلك كان اليهود المنفيون في بابل يرغبون ايضاً بالاحتلال الفارسي آمين ان يحررهم ملك الفرس من الاسر البابلي ويعيدهم الى فلسطين . في هذه الظروف الداخلية المضطربة لن تصمد بالطبع بابل امام هجوم فارسي كاسح ولن تحميها الحصون الدفاعية التي اقامها نبوخذ نصر من قبل . وهكذا بعد ان اكتسحت الجيوش الفارسية لبيديا في آسيا الصغرى واجتاحت سورية وفلسطين عادت لتدخل عاصمة الكلدانيين بابل درن مقاومة تذكر ، بل بالعكس كان ذلك الدخول مبيّتاً مع بعض القادة العسكريين والكهنة من الكلدانيين المتواطئين مع الفرس . وقتل بلشاصر بن نابونيد سنة 539 فانتهى حكم الكلدانيين الى الابد ، ودخلت بابل والبلاد الخاضعة لهم تحت ظل سيادة امبراطورية الفرس الاخمينيين .

وهكذا سقطت المملكة الكلدانية (البابلية الجديدة) وانتهت آخر محاولة لتشكيل امبراطورية كبرى تكون مدينة بابل مركزاً لها . ولكن بابل ظلت مدة من الزمن تحافظ على أهميتها الاقتصادية والثقافية ، حيث كانت مركزاً تجارياً وحضارياً كبيراً ، واثرت تأثيراً ملموساً في تطور الحياة الحضارية لدى شعوب آسيا وحوض البحر الابيض المتوسط . واننا لنجد في التوراة وكتب المؤرخين اليونانيين والرومانيين الكثير من الاخبار والذكريات حول برج بابل المشهور ، وعظمة نبوخذ نصر ، والاسر البابلي لليهود ، وعمّا توصل اليه الكلدانيون من تقدم في مجال علم الفلك والعمران .

الحضارة الكلدانية

نعود لتتحدث قليلا عن بعض المظاهر الحضارية لبلاد النهرين في العهد الكلداني فنقول : إن الغنائم الكثيرة التي حصل عليها نبوخذ نصر نتيجة حروبه التوسعية ، والقوى العاملة من العبيد — عمالا وصناعا — كل هذا ساعده على القيام بمرحلة عمرانية نشيطة . وقد أقيمت المنشآت العمرانية لثلاثة أهداف : اظهار عظمة الملوك وتخليدهم ، خدمة الالهة وطاعتها (خاصة مردوخ) ، حماية البلاد وازدهار الاقتصاد ورفاهية الشعب . لذلك نجد نبوخذ نصر يأمر ببناء ثلاثة أسوار لمدينة بابل ، وتجديد أو اقامة الكثير من المباني فيها ، كما يأمر ببناء الحصون والمنشآت الدفاعية على الحدود مع الميديين . ويأمر أيضاً بشق الاقنية وانشاء السدود على الانهار لتنشيط الزراعة . ومعظم الآثار الموجودة في خرائب بابل حالياً تعود الى عهد نبوخذ نصر ، بعضها احدث في زمانه وبعضها امر بتجديد بنائه . ونذكر منها على سبيل المثال معبد الاله مردوخ الذي أعيد بناؤه واطلق عليه اسم ايساجيل ، كذلك قصر نبوخذ نصر ، وأشهر ما فيه صالة العرش (طولها ٦٠ متراً وعرضها ٢٠ متراً) ، والبوابة التي أطلق عليها فيما بعد بوابة الالهة عشتار (ارتفاعها ١٢ م وقد أعيد بناؤها في متحف برلين) .

وقد عثر المنقبون في ذلك القصر على صفائح كتب عليها : [أنا نبوخذ نصر ملك بابل ابن نابو بالاصر ملك بابل . عندما اختارني مردوخ ملكاً شرعياً وأمرني بتجديد المدن أظهرت له الطاعة والخضوع ، فبنيت أسوار بابل عاصمة ملكي ، وأقيمت على ابوابها ثيراناً عظيمة وتنينات مرعبة ، وانزلت أسسها حتى عالم ماتحت الارض ، ورفعت أبراجها الى علو الجبال ، وجمعت

من معبد الايساجيل قصر السماء والارض ومقرأ لنعيم الارباب ، وكسوته بالذهب وقت بتجديد برج المدرج (الزقورة) [. وعلى مرتفع في بابل أمر نبوخذ نصر بانشاء حديقة (عبارة عن مصاطب مدرجة اطلق عليها فيما بعد الحدائق المعلقة واعتبرت من عجائب الدنيا السبع) رائعة الجمال كي تذكر زوجته الميدية الاصل ، بجمال بلادها الجبلية .

وهكذا عمل نبوخذ نصر على تجميل وتزيين عاصمته لتحل مكان مدينة نينوى الآشورية التي تهدمت ، ولتضاهي بعظمتها مدينة طيبة في مصر ، فأصبحت بابل من أجل مدن آسيا في ذلك العصر .

وتشير بعض النقوش التي تعود الى القرن الثالث قبل الميلاد الى وجود ٥٣ معبداً و ٩٥٥ مصلى في بابل رغم ما تعرضت اليه تلك المدينة من تدهور وانحطاط حتى ذلك العصر (القرن الثالث ق.م) .

وفيا يتعلق بالعلوم فقد تطورت تطوراً ملموساً في عهد الاكاديين الذين استفادوا من خبرات الشعوب التي سبقتهم في بلاد النهرين وسورية وغيرها من المناطق المجاورة ، وتطور خاصة علم الفلك ، فعرف الكهنة الكلدانيون حسابات وانظمة مدارات النجوم بالاضافة الى معرفتهم السابقة لبعض الظواهر الفلكية كالحسوف والكسوف . ولكن لم يتحرر علم الفلك بعد من التنجيم الذي يمارسه بعض الكهنة لاغراض سحرية ، حيث ساد الاعتقاد بأن الانسان يستطيع التعرف على المستقبل عن طريق مراقبة النجوم وحساب مدارات الافلاك التي اتخذت منها الالهة مساكن لها وسجلت فيها جميع الاقدار . وقد كان لبابل دور كبير في انتشار علم الفلك والتنجيم الى معظم انحاء العالم في الازمان اللاحقة .

أما في مجال الدين فقد ظل مردوخ إله بابل يمثل السلطة الإلهية العليا التي تحكم العالم ، وتتحكم بمصير البشر ، وتتوج الملوك ، وتسير التاريخ . وهو الإله الأكبر للدولة والشعب يحتفل بعيدة في رأس السنة البابلية حيث يجدد سنويا مآسيه وانتصاره في النضال من أجل بعث الطبيعة والحياة في الكون . وقد اقيمت أو وجدت لتمجيد المعابد وكثرت لخدمته كهنتها وأملاكها المهداة من الشعب والملك على حد سواء ، وذلك تبركاً وتقرباً من الإله الأعظم . ويكفينا شراً ان نورد ما جاء في هذا المضمار عن لسان نبوخذ نصر مبرهنناً عن تقواه وطاعته لمردوخ : « لقد أمرت بأن يحضر كل يوم على مائدة مردوخ والसार بانيتو حيوانان سميان ، ثور كبير مليء الجوانب كامل الاعضاء ذو جسم نقي لاقامة الطقوس الدينية ، أربع وعشرين نعجة سمينة ، حيوانات نقية للتضحية تكريماً لالهة بابل ، أربع ديوك ، عشر حمامات ، ثلاث رؤوس من الثوم ، كمية من سمك المياه العذبة ، ورود المروج ، كميات كبيرة من الخضر ، محاصيل الحدائق فواكه تلمع كالذهب ، اجود ما في حدائق الفواكه . بلح وصبار من تلون ، تين أبيض ، عسل مصفى ، بيرة خفيفة ، زبدة وقشدة وحليب ، أصفى انواع الزيوت ، دقيق أسمر ذهبي ، عصير السمسم ، نبيذ مشع - كل ذلك أمرت باحضاره كل يوم على مائدة مردوخ والसार بانيتو أكثر من أي وقت مضى . . » (النص محفور على الصخر في وادي باريشا ببلنن) . ولا حاجة للتفصيل في القول عما كانت تتمتع به طبقة الكهنة من نفوذ وسلطان مادامت تنعم بتلك الخيرات المادية وغيرها من مصادر الثروة .

أما الكتابات التي وصلتنا من الكلدانيين فبعضها مسارية مبسطة ومتطورة وبعضها آرامية . وهناك بعض اللوحات المسارية تحتوي على ملخص لها في الهامش

بالإرامية . وقد وصلتنا نماذج متعددة من الأدب الكلداني نورد منها هذا المقطع
الذي يعبر عن ممارسة الكلدانيين لطقوس السحر والعبادة ، وشك البعض منهم
بعدم فائدة ذلك ، أو الحيرة من أمر الآلهة التي لا تنصف الإنسان التقي الصالح
والمؤمن ، بينما قد لاتمس الأشرار بسوء .

زاد الجور علي ولم استطع بلوغ حقي .

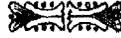
صرخت الي الهي ولكن لم ينظر اليّ .

توسلت الي الهتي ولكنها لم تعن برفع رأسها .

ان العراف بعرفته لم يحدد مستقبلي .

والساحر بضحيته لم يستطع أن يجعل محاكمتي جليله .

وسمع بذلك عدوي فتهاوت أساريه .



الفرس القدماء

١ - الظروف الطبيعية : نشأت دولة الفرس وقامت حضارتهم القديمة في الهضبة المعروفة باسم ايران او بلاد فارس . وهي تشمل الاراضي الواقعة الى الشرق من سلاسل جبال كردستان وزاغروس التي تفصلها عن الاناضول وبلاد النهرين ، ويجدها من الشمال جبال البوروز ، ومن الشرق جبال خراسان ، ومن الجنوب جبال مكران وهكذا تحيط بها الجبال من كل جوانبها تقريباً ، وتتألف من سلاسل متتابعة تخترقها الوديان وتسيل منها بعض الانهار القليلة والصغيرة التي تتجه اما الى البحار أو الى الداخل نحو بعض المستنقعات والبحيرات . وقد كانت هذه الجبال في العصور القديمة مكسوة بغابات السنديان والبلوط وغيرها ، وكانت أمطارها غزيرة وتنت في وديانها أنواع مختلفة من الاشجار المثمرة والنباتات الصالحة للاكل التي كان يجمعها الانسان الاول ويتغذى منها ، كما كانت تكثر فيها مختلف أنواع الحيوانات من الغنم والبقر والماعز التي كان يصطادها الناس ، ووجدت فيها الوحوش كالذئاب والاسود والفهد وغير ذلك .

أما القسم الداخلي من الهضبة فكان يتألف من منطقة منخفضة تغمرها المياه المنحدرة من الجبال في العصر المطير ، ولكنها تحولت منذ بدء عصر الجفاف الى منطقة قاحلة يقل فيها السكان ، ويتجمعون على حوافها في السهول المحصورة بين الصحراء والجبال حيث حاول الانسان منذ القدم ربيها وزراعتها .

وهناك بعض السهول الواقعة خارج الهضبة بين البحر والجبال ، أشهرها السهل الذي كان يسمى ببلاد عيلام ، وقد تكون من رواسب نهر كارون ويتصل بسهل شنعار في جنوب بلاد النهرين . والسهل الواقع بين جبال ألپوروز وبحر قزوين وهو سهل خصب تكثر فيه الأشجار والنباتات والمزروعات المختلفة . وفي جنوب إيران يمتد الخليج العربي الذي كان منفذاً بحرياً يصلها مع الهند . وتحتوي الأراضي الإيرانية على أنواع مختلفة من المعادن واحجار البناء والاحجار الثمينة . .

٢ - السكان : عاش الناس الاوائل في المناطق الجبلية المرتفعة منذ العصر الحجري القديم ، وكانوا يعيشون على الصيد وجمع الثمار ويستعملون الادوات الحجرية . ثم بدأوا ينحدرون الى سفوح الجبال ووديان الانهار حيث يمارسون بعض أنواع الزراعة ويربون الحيوانات المختلفة ، وينشئون الاكواخ من أغصان الأشجار للسكن فبدأت تقوم أولى القرى .

وفي العصر الحجري الحديث نرى ازدياد عدد القرى وتوسعها ، وتطور في الزراعة وفي صناعة الاواني الفخارية الملونة والثيراب . وبدأت تظهر أولى الادوات النحاسية والحلي من الاحجار الكريمة . ثم بدأ استعمال اللبن لبناء البيوت ، واستخدموا الحجر في الاساس وفتحوا النوافذ . ونشاهد تطوراً في

الفن كالرسم والنقش وصنع التماثيل ، وتوسعا في صنع الادوات المعدنية ، وظهور الاختتام . وأشهر مراكز هذه الحضارة هو سيالك بالقرب من كاشان .

كان السكان الاوائل من الشعوب الاسبانية . ولا نعلم الكثير الا عن الشعوب الجبلية التي كانت تجاور سكان بلاد النهرين في العصر التاريخي (بعد اختراع الكتابة) ، ومن هذه الشعوب الميلايون والغوتيون والكاشيون والولميون وغيرهم . وقد خضعوا لدول بلاد النهرين في عهد ملوكها الاقوياء ، بينما نرى أن الغوتيين قضوا على الدولة الاكادية ، والكاشيين على الدولة البابلية فيما بعد .

وفي الالف الثاني قبل الميلاد وغالبا في اواخره بدأت افواج من الآريين او الهندو اوربيين تغزو ايران . وقد قدم هؤلاء من الشمال والشمال الشرقي من بلادهم الاصلية التي كانت ، على الأرجح ، تمتد في المنطقة الواقعة بين نهري الدانوب والاورال في الاراضي الواقعة جنوبي روسيا ، واختلط هؤلاء القادمون مع السكان الذين سبقوهم وشكلوا شعبين شقيقين هما الميديون والفرس .

٣ - ميديا والميديون: تسرب الميديون الى شمال غربي ايران قادمين من بلادهم التي يصفها اتباع زرادشت بأنها بلاد خصبة ذات خيرات ويسمونها اريانا ومنها اشتق اسم ايران . وقد أطلق على المنطقة التي سكنوها اسم ميديا وهي أزربيجان الايرانية الحالية والاراضي الواقعة الى الجنوب الغربي من بحر قزوين . وكانت اهم مدنهم اكياتان (همدان الحالية) التي غدت عاصمة لهم . عاش الميديون في البداية حياة قبلية ، وكانوا هدفا لغارات الاشوريين

والاورارتيين الذين كانوا يتوغلون في بلادهم ويفرضون نفوذهم على بعض قبائلهم . ولم يشكوا دولة لهم الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد عندما استطاع ملكهم خشاتريتا أن يوحد قبائل الميديين تحت سلطته ويتحالف مع الكيميريين والسكيتيين، الذين عبروا جبال القفقاس بعد الميديين ببضع مئات من السنين . وحاول خشاتريتا القضاء على الاشوريين ولكنهم استطاعوا ان يتحالفوا مع السكيتيين ويهزموه ويقتلوه ، واستولى السكيتيون على بلاده حوالي سنة ٦٥٠ ق م .

ولكن كي اخسار (كياكسارس) الذي اصبح ملكاً على الميديين بعد موت ابيه خشاتريتا استطاع سنة ٦٢٥ ق.م أن يقضي على السكيتيين ويحلهم الى مناطق أخرى بعد أن دان لهم في البداية ، ثم اخضع الفرس لسلطانه وبدأ يهاجم الاشوريين . ورغم أنه رد مرتين عن نينوى الا انه استولى على آشور وتحالف مع الكلدانيين فاستطاعوا دخول نينوى ثم حران ، وانتهت بذلك الدولة الاشورية حوالي ٦٠٩ ق م .

وقد تقاسم الميديون والكلدانيون أراضي الامبراطورية الاشورية ، فأخذ الميديون المناطق الشمالية ، والكلدانيون المناطق الجنوبية وقضى كي اخسار بعد ذلك على اورارتو ، ثم قاتل اللبيديين وعقد مهادنة معهم امتدت بوجها حدود دولته حتى نهر الهاليس في قلب الاناضول . وفي عهد خليفته استياغ قام كورش ملك الفرس بالقضاء على دولة الميديين وضما الى مملكته .

٤ - الفرس ونشوء دولة الاخمينيين : استقر الفرس منذ بداية

القرن الثامن في المنطقة التي كانت تسمى بارشوما والواقعة الى الشرق من منابع نهر كارون ، واسسوا مملكة صغيرة بقيادة زعيمهم آخمين الذي اعترف بنفوذ الميلايين ثم خضع للميديين . ولكن ابنه يايسيس اغتم فرصة استيلاء السكيتيين على ميديا . فأخضع منطقة بارسا (الى الجنوب الشرقي من بارشوما) ونصب كلا من ابنه ملكاً في احدى المقاطعتين . اللتين مالبثتا أن خضعتا لسلطة كياكسارس الميدي ، وان ظلتا تحت حكم ملوكها . وعندما تولى الحكم كورش (كيخسرو) سيطر على المقاطعتين وثار على الميديين سنة ٥٥٢ ق م ، واستطاع أن يحتل عاصمتهم أكباتان ويخلع أستياغ ويعلن نفسه ملكاً على الفرس والميديين ويؤسس الامبراطورية الفارسية .

بعد خضوع غربي ايران ، هاجم كورش الميديين في آسيا الصغرى ودحر ملكهم كروزوس واحتل عاصمتهم سارديس . وقسم ليديا الى قسمين وولى عليهما ولاية من الفرس . وقدأخضع كل بلاد آسيا الصغرى حتى ساحل البحر الابيض المتوسط ، واعترفت بسلطته المدن اليونانية هناك .

بعد ذلك التفت كورش الى الشرق ووسع حدوده الى شرقي ايران ، فأخضع المناطق المعروفة الان باسم أفغانستان وباكستان حتى نهر السند (هندوس) .

ثم تفرغ للملكة الكلدانية في بابل فوجه اليها جيشين استطاعا دخول بابل وبورسبيا والقاء القبض على نابونيد الملك الكلداني . ودخل كورش بابل في سنة ٥٣٩ ق م . فعامل سكانها معاملة حسنة واحترم آلهتهم وسمح باعادة تماثيل آلهة مدن الاقاليم الى اوطانها حيث كان نابونيد قد نقلها الى بابل . وقد نصب ابنه

قهيبيز ملكا على بابل وسمح لمن شاء من اليهود المسيبين في بابل بالعودة الى فلسطين فلم يهد منهم الا عدد قليل من الفقراء .

ألقى كورش بمملكته كل البلاد التي كانت خاضعة للكلدانيين وفرض الجزية على الشعوب الخاضعة له . وفي أواخر حياته قامت ضده ثورة في الشمال الشرقي من الامبراطورية فذهب وقضى عليها ولكنه توفي (سنة ٥٢٨ ق . م) متأثراً بجراح أصيب بها في تلك الثورة .

وخلفه ابنه قهيبيز فكان قاسياً ظالماً ولم يتصف بالتسامح وحسن المعاملة كآبيه . وقد بدأ حياته كملك باغتيال أخيه بارديا (سمير ديس) الذي كان والده قد عينه حاكماً للمقاطعات الشرقية ، وذلك لشعوره بالخطر المتجسد فيه وسعيه للانفراد بالحكم .

جهز قهيبيز حملة قوية للاستيلاء على مصر فاستطاع أن يدخل مدينة منف ويأسر بسامتيك الثالث بن أحسن الثاني ، ثم احتل طيبة ووجه الجيوش الى الواحات الصحراوية والى بلاد النوبة وقرطاجة . الا ان تلك الجيوش لم تنجح في مهايتها ، اذ هلك الجيش الذي ارسله الى الواحات في عاصفة رملية وتراجع الجيشان الاخران ، ولكنه استطاع اخضاع اقليم برقة في ليبيا . وقد أساء قهيبيز معاملة المصريين واحترق آلهتهم ، ونهب جنوده المعابد المصرية . وفي طريق عودته من مصر للقضاء على ثورة قامت ضده في بلاد فارس مات في سورية .

أثناء غياب قهيبيز في مصر قام أحد السحرة واسمه جاوماتا وادعى أنه بارديا أخو قهيبيز وأعلن نفسه ملكاً على الفرس . الا أن أحد الامراء الاخمينيين

وأسمه دارا بن هيستامبسيس الذي كان قائداً للحرس الملكي استطاع أن يقتل جاوماتا وينهي ثورته ويستلم الحكم باسم دارا الاول .

٥- دارا الاول (داريوس) ٥٢٢ - ٤٨٦ ق . م : قامت الثورات الكبيرة في أنحاء مختلفة من الامبراطورية الفارسية في بداية عهد دارا الاول ، فاضطر الى خوض غمار معارك متواصلة استطاع بعدها اعادة الامن والنظام الى امبراطوريته والحفاظة على وحدتها . وقد قام بتخليد انتصاراته بنقوش على صخور بيستون يقول فيها انه خاض في سنة واحدة تسع عشرة معركة وأسر تسعة من المتآمرين الطامعين بالعرش وقضى عليهم .

بعد ذلك بدأ بتوسيع حدوده فمد نفوذه في الشرق حتى اقليم بيشاور والهند ، ووجه حملات ضد السكيتيين في بلادهم الواقعة جنوبي روسيا ، ثم استولى على المضائق وبعض جزر بحر ايجه وتراكياء وعبر نهر الدانوب وانكفأ الى الجنوب لاختضاع بلاد اليونان . ورغم أنه حقق بعض الانتصارات على اليونانيين الا أن جيشه اندحر في معركة ماراتون الشهيرة عام ٤٩٠ ق . م أمام جيش أثينا واضطر الى التراجع . وقد قامت ضده الثورة في مصر ، ومات دارا عام ٤٨٦ ق م قبل أن يتمكن من اخماد ثورة مصر أو معاودة الزحف على اليونان .

وهكذا حكم داريوس اودارا امبراطورية واسعة كانت تمتد من ليبيا الى الهند ، ومن البحر الاسود حتى المحيط الهندي ، وكانت أكبر امبراطورية عرفها التاريخ القديم ماعدا الامبراطورية الرومانية التي قامت فيما بعد .

بعد دارا تولى الحكم ابنه سرخس (اكزر كسيس ، أخشويرسن) ففضى على الثورة في مصر وبابل ، وهاجم اليونان ولكنه خسر الحرب

وخرجت اليونان من يده ، ثم انصرف الى الاهتمام بقصوره وملذاته حتى مات .

وفي عهد خلفائه بدأت الامبراطورية الفارسية طريقها نحو الانهيار فكثرت فيها الثورات والمؤمرات والاغتيالات . .

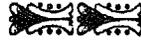
أخذت فارس تتراجع عن المدن اليونانية على ساحل البحر الابيض المتوسط خاصة عندما يتحد اليونانيون ويقاثلونها ، وأحياناً تستطيع استعادة سيطرتها على تلك المدن عندما تنجح في زرع الشقاق والنزاع بين اثينا واسبارطة . كما ان الملوك الفرس لا يكادون يقيمون ثورة من ميديا حتى تقوم ثورة اخرى في مصر أو بابل ، او يعلن أحد الولاة ثورته ضد الملك ، وأحياناً يشكل الولاة اتحاداً فيما بينهم ويتمردون ضد السلطة المركزية ، وقد قامت احياناً ثورات ضد الولاة أنفسهم في مقاطعاتهم .

وهكذا اصبح الضعف والتفكك يسودان تلك الامبراطورية المترامية الاطراف .

أخيراً في عهد الملك ازديشير الثاني (ارتاكزركسيس ، ارتخششا) خرجت مصر من أيدي الفرس (حوالي سنة ٤٠٥ ق.م) ، بينما هزم الاسبارطيون جيوشه في آسيا الصغرى ، وثار ضده أخوه الذي كان والياً على ليديا وفريجيا وقائداً للجيوش الفارسية في آسيا الصغرى ، ولكن الثائر قتل في المعركة وعاد الجنود اليونانيون الذين ساعدوه الى بلادهم بقيادة المؤرخ كزينوفون الذي وصف الرحلة .

وقد نجح خليفة ازديشير في استعادة مصر ، وحاول عقد اتفاقية
مع اثينا ولكنه قتل .

وفي عهد دارا الثالث آخر ملك فارسي زحف الاسكندر المكدوني
ايمضي على فارس بعد ان وحد اليونان فهزم الفرس عند نهر جرانيكوس
في آسيا الصغرى ثم في معركة ايسوس (٣٣٤ ق م) ومعركة اربيل
(٣٣١ ق م) وضم كل فارس وامبراطوريتها الى مملكته .



الحضارة الفارسية القديمة

١ - نظام الحكم ، كان الحكم ملكياً وراثياً ، وان كان يصل في بعض الاحيان الى السلطة أشخاص عن طريق الثورة والاعتصاب والدسائس . وكانت الملكية خاصة ببناء الاسرة الاخمينية وهي واحدة من سبع اسر فارسية يحق لها تولي الحكم ، وزعماء بقية الاسر يشكلون مجلسا استشاريا للملك يقوم باسداء المشورة له ومساعدته في الحكم . وكان باستطاعة الاشراف في البدء مقابلة الملك في أي وقت ، ولكن منذ عهد داريوس الاول اصبحت المقابلة صعبة واحتجب الملك عن اتباعه فلا يرونه الا في المناسبات ، وله الكلمة الاولى والاخيرة في كل أمور المملكة ولا يحق لاحد مراقبته او محاسبته . وكانت له صفة الملك المحارب ويحكم باسم الاله الذي انتخبه لحكم الارض ولكنه لم يؤله نفسه ، وان رأى بعض أتباعه فيه ما يقرب من الاله فقدسوه . ويجمع الملك بشخصه كافة السلطات ويمارس سلطة استبدادية مركزية ، ويساعده اكبر موظفيه الذي يقود بنفس الوقت جزءاً من الجرس الملكي ويدعى شيليارك وهو بمثابة الوزير الاكبر .

وقد سمحت السلطات الفارسية للشعوب المحكومة بالمحافظة على عقائدها الدينية . وقسمت الامبراطورية الفارسية الى ولايات بلغ عددها في عهد داريوس العشرين ، ويحكم كل ولاية وال يدعى ستراب أو موزبان ينتخب من بين

كبار نبلاء الأسر الفارسية والميدية ، ويمثل الملك في مقاطعته ، ويصدر بعض القوانين المحلية ويحجي الضرائب ويقضي بين الناس ويحافظ على الأمن والنظام . لكن الملوك كانوا يحددون صلاحيات الولاة ويراقبونهم ومحاسبونهم على أعمالهم ويعينون قائداً مستقلاً للامور العسكرية في الولاية ، كما يعينون أميناً يراقب الاثنين ويخبر الملك عن كل أعمالها وعن كل مايجري في الولاية بالإضافة الى المفتشين وعميون الملك وآذانه (رجال المخابرات) .

كانت الامبراطورية تؤلف اتحاداً من شعوب كثيرة تدفع جميعها الجزية للسلطات الفارسية التي بيدها القيادة السياسية . وقد أعفي من الجزية الميديون الذين كانوا يتمتعون بالمكانة الثانية بعد الفرس . ولم تكن للبلاد عاصمة واحدة في كل العصور ، وإنما كان الملوك يغيرون العاصمة من حين لآخر ، فكانت باسارغاد التي أسسها كورش أول عاصمة له ، ثم انتقل الى أكباتان عاصمة الميديين ، وبنى داريوس مدينة برسيبوليس لتكون مقراً له وعاصمة لخلفائه ، ثم غدت سوزا عاصمة وأصبحت المقر الرئيسي للملوك والرمز الحسي للحكم الملكي وقوته .

٢ - الآداب والعلوم : استعمل الفرس الكتابة المسهارية التي اقتبسوها عن البابليين ، ولكنهم عدلوا العلامات المسهارية الصعبة وبسطوا مقاطعها وجعلوها ٣٦ رمزاً بعد أن كانت ٣٠٠ علامة ، وجعلوا منها حروفاً هجائية مسهارية يمثل كل رمز حرفاً واحداً بعد أن كان يؤلف مقطعاً كاملاً عند البابليين .

وقد استعملوا الى جانب اللغة الفارسية اللغتين الاكادية والهيلامية ، ودونت بعض النقوش والوثائق باللغات الثلاث وخاصة انتصارات

داريوس على صخور بهيستون في إحدى ممرات جبال زاغروس . ثم بدأ ويدونون مراسلاتهم باللغة الآرامية التي انتشرت في بلاد كثيرة واعتبرت لغة الإدارة ، فكانت تترجم النصوص الفارسية والقوانين والأوامر إلى اللغة الآرامية وترسل إلى المقاطعات المختلفة حيث تترجم إلى لغاتها المحلية .

كان الفرس مولعين ببعض أنواع الشعر والاساطير ولكن لم ينشئوا أدباً يمكن أن يطلق عليه ذلك الاسم ، ولم يتركوا من الخلفيات الأدبية إلا الكتب الدينية وبعض رسائل الملك داريوس الأول ووثائقه وبعض النصوص القانونية وغيرها .

وبالنسبة للعلوم فإنها لم تزدهر أو تتطور عندهم زيادة على ما كانت عليه قبل استيلائهم على البلاد الأخرى . ولم يهتم الفرس كثيراً بالعلوم التي ظل يعمل بها أبناء الشعوب الأخرى وان أظهر بعضهم ميلاً إلى العلوم والفلسفة . وقد تابع علماء الفلك من الكهنة أبحاثهم وأصلحوا التقويم البابلي في العام ٣٦٧ ق.م إذ أضافوا ستة أشهر قمرية في الربيع وشهر في الخريف إلى التقويم القمري كل تسعة عشر عاماً ليتطابق التقويم الشمسي والقمري (٢٣٥ شهر قمرى = ١٩ عام شمسي) .

وكان لدى الفرس أطباء من الكهنة يداونون بالسحر والرقي ، وأطباء يداونون بالأدوية المختلفة وخاصة النباتات . واستخدم الملوك أطباء من اليونان ومصر وبابل وغيرها . ونص القانون الفارسي على أجور المعالجة . وقد أنشأ داريوس مدرسة للطب في مصر ، واصبح للأطباء نقابة في العهد الأخير من الدولة الفارسية ، والطبيب المبتدئ يتدرب في البداية

بمعالجة « الكفرة » والاجانب ثم يعالج الفرس بعد أن يصبح ماهراً في مهنته .

أما التعليم فكان على الغالب مقصوراً على ابناء الطبقات الغنية الذين يعدون لتولي المناصب الحكومية . وكانت مواد التعليم تشمل الدين والطب والقانون . وتقام المدرسة بعيداً عن السوق لما يسود فيه من نفاق وغش يفسد الصغار . أما الاولاد الفقراء فكان المطلوب منهم ان يشبوا ليصبحوا جنوداً بواسل ، وكان الجندي هو المثل الأعلى للفرس .

٣ - الديانة : كانت الشعوب الارية تعبد العالم الى أصل واحد انطلقت منه قوتان هما قوة الخير وقوة الشر . وهذه الفكرة الثنائية انتقلت الى الديانة الفارسية وطبعها بطابعها ، رغم ان الفكرة تحمل جذوراً توحيدية . وانطلاقاً من هذه الفكرة تشكلت مجموعتان من الالهة : تمثل الاولى آلهة الحق والعدل والنور ، وتمثل الثانية قوى الخبث والظلام والباطل .

وقد عبد الفرس القدماء قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنار والماء ، كما عبدوا بعض الحيوانات ، وكان اكبر الالهة هو ميثرا اله الشمس ، ثم آميثا إلهة الخصب . وقد غدت النار أكثر قدسية من غيرها من العناصر لدى الفرس القدماء الذين قدسوا الارض أيضاً . وكانوا يقدمون الصلوات والقرابين في أماكن مقدسة في العراء أو في بيوت النار ، او يقومون بحراسة النار والحفاظة على دوام اشتعالها في كل بيت تقريباً . ولم يعرفوا صوراً للالهة أو أماكن للعبادة . وكان الكهنة هم الذين يديرون طقوس عبادة النار وتقديم الاضاحي . وقد ظهرت آلهة عديدة في البداية ثم قسمت الى مجموعتين متفرعتين من أصل واحد هو المثل الاعلى ، اذ يقوم البعث بعد الصراع بين قوى الخير والشر ويتنصر الحق في النهاية .

بعد ذلك ظهر زرادشت (زارا توسترا) ولاريب أنه استقى من الافكار

القديمة وعدل فيها وأتى بأشياء جديدة . فاستنكر عبادة الالهة القديمة وتقديس النار وتقديم القرابين والادعية والاناشيد لها ، ودعا الى عبادة اله واحد هو أهور مزدا اله الحق والخير والعدالة ، وخالق الارض والسماء والناس وكل شيء . وتوجد الى جانبه بعض القوى التي خلقها هو ولكنها دونه قوة وعظمة وقدرة ، وهي تتجلى بشكل قوتين احدهما للخير والثانية للشر يتصارعان منذ الازل والى الابد وفي كل مجال ، والانسان الحرة في مساعدة أيها يريد ، فيقف الى جانب الحق والعدل والمثل العليا ، او الى جانب النفاق والخداع ، ولكن عليه ان يحارب الشر والنفاق في نفسه وفي كل شيء ليفوز بالسعادة الابدية عندما يحاكم في العالم الاخر . وهذا الجهاد من أجل الحق والنظام هو جوهر العبادة ولا لزوم للقرابين والتقدمات المادية بل يريد أهور مزدا من اتباعه الكفاح من أجل انتصار المبادئ المثالية على الارض .

والكتاب المقدس للزرادشتيين هو الافيستا وهو مجموعة كتب جمعت فيها أقوال زرادشت بعد موته ، وضيف اليه كتاب آخر سمي زانداي وهو شرح للكتاب الاول وضعه الكهنة .

ولكن الديانة الرسمية للدولة الاخمينية لم تسر تماما على العقائد الزرادشتية فنرى داريوس رغم تعظيمه لأهور مزدا واعتباره انه أكبر الالهة يتحدث عن الالهة الاخرى ويأمر بترميم الاماكن المقدسة والمعابد . كما نرى في العصور اللاحقة تأثيرات الديانة البابلية اذ صورت الالهة الايرانية القديمة التي عادت الى الظهور مثل ميثرا وأنيتا بصور انسانية في التماثيل واصبحت لها ماهية بشرية . كما ان الديانة الشعبية تمثلت بعبادة الهة أخرى متعددة لقوى الطبيعة ، واقامة عالم من الظلم والخداع والشياطين يديره أهريمان الى جانب عالم النور والمثالية الذي يسيره أهور مزدا والذي ظل مع كل ذلك ، يحتفظ بصفته كاله أعظم

وخالف اكبر . وقد أعيدت عبادة النار والقيام بالطقوس الدينية وتقديم القرابين والادعية الى جانب الجهاد المثالي ، وظلت فكرة البعث والحساب قائمة . وربما انتعشت هذه العقائد القديمة بسبب تسامح الملوك الفرس مع الأديان التي كانت سائدة عند اتباعهم قبل انشاء امبراطوريتهم ، حيث لا يعرف الشرق القديم تسامحاً بمثل هذا القدر قبل الفرس . وقد يكون ذلك التسامح مع أديان الشعوب الاخرى واحترام المهتمها من وحي المثالية الزرادشتية .

٤ - الفنون : اقتبس الفرس فنون الشعوب الاخرى التي خضعت لهم أو التي احتكوا بها . وكان الفن البابلي اكثر الفنون التي تبناها ثم أخذوا من الفن المصري وفنون آسيا الصغرى وبشكل أقل من فنون اليونان . وهكذا اضافوا الى فنونهم الاولى ما اقتبسوه من الشعوب الاخرى وزادوا عليها بعض التعديلات والاضافات . وهم ان كانوا قد استخدموا الاجانب في بناء قصورهم ونحت نقوشهم الا ان الفرس ايضاً شاركوا في هذه الاعمال بحيث يصعب معرفة ما قام به هؤلاء او اولئك . وكانت اهم الابنية هي القصور والقبور . فقد سعى كل ملك الى انشاء قصر في المدن الرئيسية التي كان يقيم فيها . ورغم توفر الحجارة في بلادهم وعدم خشيتهم من الفيضانات ، فقد اقتبسوا من البابليين طريقة بناء القصور الملكية في امكنة مرتفعة اصطناعية يصعد اليها بدرج ، وانشأوا الاعمدة الضخمة المزينة بالصور والنقوش ، ووضعوا تماثيل ضخمة عند الابواب ، ولكنهم اضافوا فتح النوافذ العديدة والكبيرة نسبياً ، وقاعات الاستقبال الكبيرة ، وتزيين تيجان الاعمدة بنقوش حلزونية تعلوها رؤوس ثيران جاثية ، كما ان الشكل العام للقصر لم يكن على شكل معبد او حصن .

كذلك كان عدد الاعمدة قليلا بالنسبة لمساحات القاعات ، وصنع السقف من خشب الأرز ، وكانت الادراج واسعة يستطيع عشرة اشخاص ان يصعدوها سوية .

اما القبور الملكية التي اقيمت لحماية جثة الملك من التشويه بعد الموت فقد حفرت في الصخور المرتفعة التي يصعد اليها بسلام . وقد تكون فكرة إقامة القبور الاولى مأخوذة عن مصر ، ولكن القبور بدء ببنائها قبل فتح الفرس لمصر ، وكانت صغيرة لاحتوي سوى رواق وغرفة خالية من النقوش أو الرسوم ، وزينوها من الخارج بالاعمدة والنقوش ، حتى يخال للناظر أنه أمام قصر لا قبر .

وكانت النقوش بارزة وضخمة على الصخور ، تمجد الملك وأعماله . وأهمها نقوش داريوس على صخور بهيستون التي حضرت على ارتفاع مائة متر على الطريق بين اشور وميديا في جبال زاغروس ، وتمثل الملك وفوقه رمز أهور مزدا وهو يقضي على اعدائه ، وتحت الصورة نقوش كتبت بلغات ثلاث هي الفارسية والعبلمية والبابلية ، كما ازدانت جدران القصور وابوابها بالنقوش البارزة التي تمثل مشاهد ملكية مختلفة ، وزينت المداخل بشيران ضخمة مجنحة لها رؤوس بشرية ، وابدع النقوش هما نقشان يمثل احدهما أسوداً والثاني الرماة الخالدين حراس الملك .

وقد برع الفرس في التزيين باللون والاحجار الكريمة والذهب وصور الجنود والحيوانات والازهار ، كما طلوا الاجر بالطين وزخرفوه بالنقوش البارزة . واكثر فنونهم ملكية مخصصة لتمجيد الملوك وتعظيمهم . أما الدين فلم يكن يتطلب منهم هياكل عظمية أو معابد ، بل كان يكتفي بالمذابح وبيوت النار ، كما أننا نجد تماثيل للالهة الا في العصور الاخيرة وبصورة قليلة ونادرة جداً .

جدول الخطأ والصواب

القسم الأول

الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ	الخطأ
عديده	عديده	١٧	٣٩	هذا	هذ	١	٣
الساكنة	الساكنة	٩	٤٠	قصارى	قصار	٣	٣
مفاهيم	مفاهيماً	٢	٤١	لذا	لذلك	٧	٣
لم يستطع	لم يستطع	١٢	٤١	يتعلق	يتعلق	١٣	٧
سنين	سنيّاً	١٣	٤١	القوى الحربية	القوة الحربية	٨	١٣
المعقد	المقعد	١٤	٤١	والفلسفة	والفلسفة	٢٣	١٤
مستقيمة	مستقيمة	٢١	٤١	ذا	ذو	٦	١٧
أحدها	أحدهم	٢٣	٤١	محاصيل	محاصيلًا	٢٢	١٧
وظائف	وظائفًا	١٠	٤٢	الصفاف	الصفاف	٢	١٨
الآلهة	الآلهة	٧	٤٣	المواطن	المواطن	٢١	١٨
عشتار	عشتار	١١	٤٦	كانت الآلهة	كان الآلهة	١٠	١٩
مأثر	مأثير	١٢	٤٩	تنويه	تنويه	١١	٢٠
ذلك	فلك	٤	٥٠	ازدياد	ازداد	٢٢	٢٠
نماذج	نماذجاً	١٣	٥٠	مقياساً	مقياساً	٢٣	٢٠
التعاويد	التعاويد	٤	٥١	مواد	مواداً	٢١	٢٨
والتعاويد	والتعاويد	١٠	٥٢	اور	اورا	٨	٣٠
قوائم	قوائمًا	١٧	٥٤	أضف	أضعف	٨	٣١
والتعاويد	والتعاويد	١١	٥٥	ضرائب	ضرائباً	٣	٣٤
مواضيع	مواضيعاً	٨	٥٨	ثلاث طبقات	ثلاثة طبقات	٥	٣٤
جزيرة	جزيرة	٨	٧١	بتقييد	بتقييد	١٨	٣٦
زوال	زول	٣	٧٤	عيونهم	عيونهم	٢٠	٣٦
لتنهي	لتنه	٢١	٨٤	الاصطدامات	الاصطدامات	١٢	٣٩
الذنان	الذنان	١٣	٨٥	رافقه	رافقة	١٧	٣٩

جدول اخطأ والصواب

القسم الثاني

الصواب	الخطأ	صفحة	سطر	الصواب	الخطأ	صفحة	سطر
سلمنصر	سلمنصرا	٥٠	١	ازدهرت	ازهرت	١٤	٢٠
استلامه	استسلامه	٥٠	١٣	شوبارتو	شوربانو	٣٤	٢
موشورية	موشرية	٦١	١٨	حاولت	حولت	٣٦	١٩
أعطتها	أعطاها	٦٦	٢٠	اختلاط القبائل	امتزاج القبائل	٣٦	٢١
القرن الثامن	القرن الثاني	٦٦	١٢	اتحادات	اتحات	٣٧	١٦
				ويرثون	ثويرون	٣٨	١٧

الفهرس

القسم الأول

الصفحة	الموضوع
٣	كلمة المؤلف
٥	مقدمة : الوطن العربي مهد الحضارات القديمة
٧ - ١٥	مدخل إلى تاريخ الحضارة الحضارة : تعريفها - شروطها - نشأتها - مظاهرها
١٦ - ٣٠	دولة سومر وأكاد الظروف الطبيعية ١٦ . السكان ١٨ . النظام الاجتماعي ١٩ . نشوء العبودية ١٩ . نشوء الدول ٢١ . الصراع الاجتماعي في مدينة لاغاش ٢٤ . الدولة الأكادية ٢٥ . انهيار الدولة الأكادية واحتلال الغوتيين بلاد النهرين ٢٨ . سلالة أور الثالثة ٢٩ .
٣١ - ٣٨	الدولة البابلية القديمة الصراع بين مدن بلاد النهرين وارتقاء مدينة بابل ٣١ . نشوء الدولة البابلية القديمة ٣٢ . مجموعة قوانين حمورابي ٣٣ . احتلال السكاشين بلاد بابل ٣٧ .

الموضوع	الصفحة
الثقافة السومرية - البابلية	٣٩ - ٥٨
دور شعوب بلاد النهرين العديدة في بناء حضارتها ٣٩ . الكتابة ٤٠ . الديانة ٤٢ . الآداب ٤٨ . العلوم ٥٢ . الفنون ٥٦ .	
مصر القديمة	٥٩ - ١١٩
مصر في زمن ما قبل الامرات	٥٩ - ٦٣
الظروف الطبيعية ٥٩ . السكان ٦٠ . تفسخ النظام العشائري ٦٢ . نشوء النظام العبودي وظهور دول المدن ٦٢ .	
الدولة القديمة	٦٤ - ٦٨
اتحاد شمال وجنوب مصر في دولة واحدة على يد مينا ٦٤ - ٦٨	
الدولة الوسطى	٦٩ - ٧٦
الفترة الانتقالية ٦٩ . اتحاد مصر الجديد ٧٠ . الامرة الثانية عشرة ٧٢ . الصراع الداخلي والثورات الشعبية ٧٤ . احتلال الهيكسوس مصر ٧٥ .	
الدولة الحديثة	٧٧ - ٩٤
طرد الهيكسوس ٧٧ . نشوء الدولة الحديثة ٧٨ . التطورات الاقتصادية والاجتماعية ٧٩ . السياسة الخارجية في عهد الامرة الثامنة عشرة ٨٠ . الاصلاح الديني في عهد امنحوتب الرابع (اخناتون) ٨٣ . مصر في عهد الامرتين التاسعة عشرة والعشرين ٨٥ . سيطرة الكهنة على الحكم ٨٧ . سيطرة الليبيين على الحكم ٨٨ . غزو النوبيين مصر ٨٩ .	

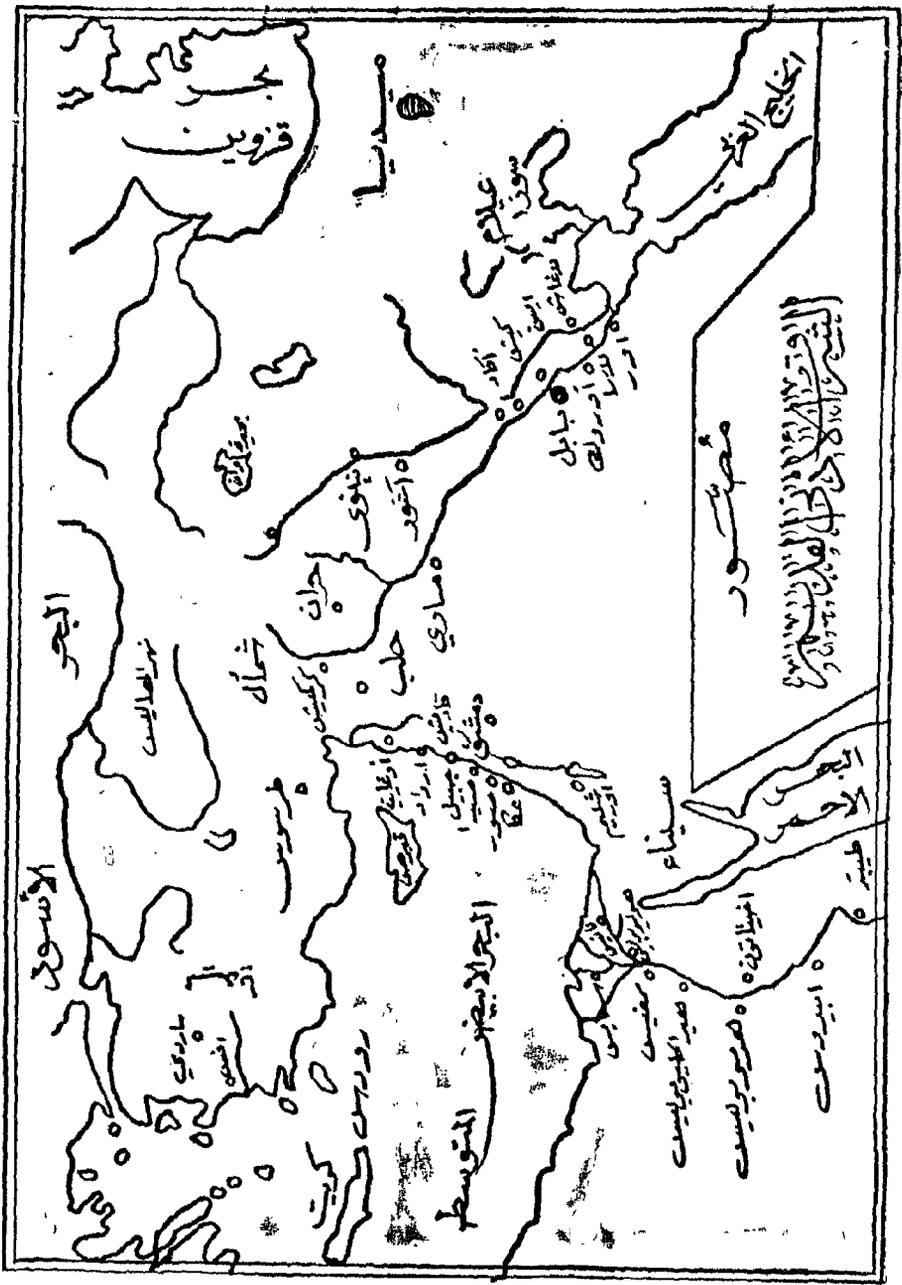
الموضوع	الصفحة
غزو الآشوريين مصر ٩٠ . عصر النهضة المؤقتة أو العصر الصاوي ٩١ .	
عصر الاحتلال الفارسي في مصر ٩٣ .	
ثقافة مصر القديمة	٩٥ - ١١٩
الكتابة ٩٥ . الآداب ٩٦ . الفنون ١٠٢ . الديانة ١١٠ . المعارف	
العلمية ١١٤ .	

القسم الثاني

الحيثيات	١ - ٨
الظروف الطبيعية في آسيا الصغرى ٣ . السكان ٣ . الدولة الحثية	
القديمة ٤ . الدولة الحثية الحديثة ٥ . حضارة الحثيين ٦ .	
سورية الكبرى	٩ - ٣٣
فينيقية - فلسطين - سورية الداخلية	
الظروف الطبيعية ٩ . السكان ١٠ . عصور ما قبل التاريخ ١١ .	
دول المدن ١٢ . فينيقية ١٣ . فلسطين ٢٠ . الممالك الآرامية في سورية	
الداخلية ٣٠ .	
الآشوريون	٣٤ - ٦٩
الظروف الطبيعية ٣٤ . السكان ٣٦ . الدولة القديمة ٣٩ . الدولة	
الوسطى ٤١ . الدولة الحديثة ٤٥ . الآشوريون في القرنين الثامن والسابع	
قبل الميلاد ٤٨ . نظام الحكم ٥٥ . الثقافة الآشورية ٥٧ - ٦٩ .	

الصفحة	الموضوع
٦٣	الكتابة واللغة ٥٧ . الديانة ٥٧ . الآداب ٦٠ . العلوم ٦٣
	الفنون ٦٥
٧٠ - ٨٠	الدولة البابلية الجديدة أو الكلدانية
	ارتقاء بابل الكلدانية ٧٠ . السياسة الخارجية ٧٢ . سقوط الدولة الكلدانية ٧٥ . الحضارة الكلدانية ٧٧
٨١ - ٩٦	الفرس القدماء
	الظروف الطبيعية ٨١ . السكان ٨٢ . ميديا والميديون ٨٣ . الفرس ونشوء دولة الأخمينيين ٨٤
٩٠ - ٩٦	الحضارة الفارسية القديمة
	نظام الحكم ٩٠ . الآداب والعلوم ٨١ . الديانة ٨٣ . الفنون ٩٥

نيسان ١٩٧٢



قزوين
جبل

مدينا

عمان
مسقط
عقاب
بابل
البحرين
القطيف
الدمشق
القدس

الخليج الفارسي

البحر الاحمر
البحر المتوسط

مصر

البحر

البحر الابيض المتوسط

سمرقند

بغداد

دمشق

القدس

البحرين

القطيف

الدمشق

القدس

الاسود

البحر الابيض المتوسط

البحر المتوسط

